أعلام المسلمين

٩٥

الإمام

ابن قيم الجوزية

الداعية المصلح والعالم الموسوعي

صالح أحمد الشامي



دار القلم
دمشق

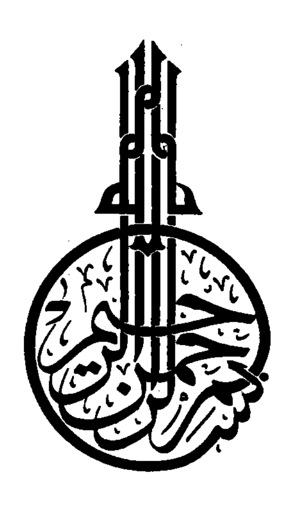
أعلام المسلمين

٩٥



صالح أحمد الشامي

دار القلم
دمشق


بسم الله الرحمن الرحيم

الطَّبْعَة الأولى
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

تُطلب جميع كتبنا من:
دار القلم - دمشق هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٤٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣
الدار الشامية - بيروت هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١) ص.ب: ١١٣/٦٥٠١
www.alkalam-sy.com

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:
دار البشير - جدّة: ٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

هذا الرجل

«سمع ـ ابن قيم الجوزية ـ الحديث، واشتغل بالعلم، وبرع في علوم متعددة، لا سيما علم التفسير والحديث والأصلين.. ولازم شيخ الإسلام ابن تيمية فأخذ عنه علماً جمّاً، مع ما سلف له من الاشتغال، فصار فريداً في بابه في فنون كثيرة، مع كثرة الطلب ليلاً ونهاراً».

العلامة ابن كثير

«الفقيه الأصولي، المفسر النحوي العارف، تفقه في المذهب، وبرع وأفتى، ولازم الشيخ تقي الدين وأخذ عنه، وتفنن في علوم الإسلام، وكان عارفاً بالتفسير لا يجارى فيه، وبأصول الدين، وإليه المنتهى فيهما، والحديث ومعانيه وفقهه، ودقائق الاستنباط منه، لا يلحق في ذلك، وبالفقه وأصوله، وبالعربية، وله فيها اليد الطولى، وتعلم الكلام والنحو وغير ذلك، وكان عالماً بعلم السلوك وكلام أهل التصوف وإشاراتهم ودقائقهم، له في كل فن من هذه الفنون اليد الطولى».

الحافظ ابن رجب

«اشتغل كثيراً: ناظر واجتهد، وأكب على الطلب.. وصار من الأئمة الكبار في علم التفسير والحديث والأصول، فقهاً وكلاماً، والفروع والعربية».

المحقق الصفدي

«كان جريء الجنان، واسع العلم، عارفاً بالخلاف، ومذاهب السلف».

الحافظ ابن حجر

«صنف وناظر واجتهد، وصار من الأئمة الكبار في التفسير والحديث والفروع والأصلين والعربية».

الإمام السيوطي

«ما تحت أديم السماء أوسع منه علماً».

برهان الدين الزرعي



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضلُ الصلاة ، وأتمُّ التسليم على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد :

فإن الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ واحد من أعلام هذه الأمة ، الذين أثروا المكتبة الإسلامية بتراثهم، وأضافوا إلى الثقافة العامة من علومهم .

وقد سمع باسمه كثيرون، منهم الكبير ومنهم الصغير ، ولكن بعضهم لا يعرف عنه إلا القليل .

وقد رغب بعض الإخوة أن أكتب للإمام ترجمة متوسطة تلبِّي الحاجة في التعريف به .

وقد ساعد على تلبية طلبهم، أنِّي كنت منذ عقد ونصف من الزمن قد بدأت العمل على إخراج طائفة من كتبه تحت عنوان «تقريب تراث الإمام ابن القيم» ، وقد بلغت حتى الآن خمسة عشر كتاباً.

فرأيت في تلبية طلبهم أمراً حسناً، على الرغم من كثرة الدراسات التي أجريت حول هذا الإمام، إذ كلٌّ منها يتناول جانباً من ثقافته، كالتربية عند ابن القيم، أو منهج التفسير عنده.. وما أشبه ذلك.

وهناك في واقع الحال، لكل عالم ترجمتان:

الأولى: يكتبها عنه معاصروه الذين عاشوا معه، وهي تشكِّل مجموعة الأخبار التي نقلت سلوكه وأعماله.. وعادة يشترك بذلك المحِبُّون والمبغضون.

الثانية: هي ترجمة أخرى يكتبها العالم نفسه من خلال كتبه التي ألَّفها، وبقيت بعده تترجم حياته بطريقة أو بأخرى، ولقد كانت هذه الكتب بعض حياته.. فهي الزمن الذي سُطرتْ به، إنها أيامه وساعاته التي قضاها مع هذه البحوث التي تركها لنا بعده.

وسوف يكون جلُّ اهتمامي موجهاً إلى النوع الثاني، فتسليط

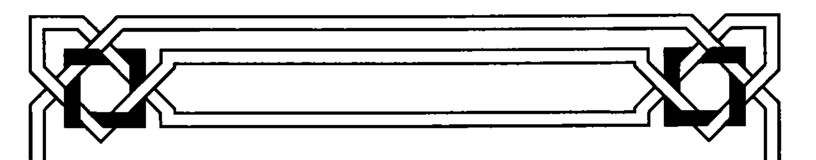
الضوء على تراثه الذي بين أيدينا، يعطي التصوُّر الأفضل والمباشر عنه.

ولن أهمل النوع، وسوف أبذل جهدي في تسجيل ما أستطيع الوصول إليه.

هذا، وأرجو الله تعالى أن يتقبَّل هذا العمل، وسائر أعمالي، إنه سميع مجيب، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

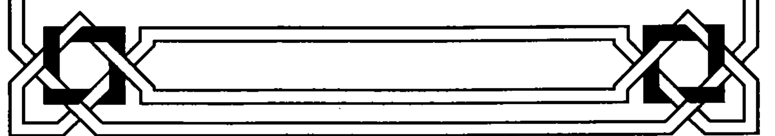
١ شعبان ١٤٢٨ هـ	وكتبه
١٤/ ٨/ ٢٠٠٧ م	صالح أحمد الشامي





تمهيد عام

حين جاء ابن القيم





أولاً
الحالة السياسية

ولد ابن القيم في مطلع العقد الأخير من القرن السابع الهجري، وكان سلطان المسلمين يومئذ في مصر ، وأمراؤهم في بلاد الشام.

والمسلمون يومئذ مشغولون بتطهير البلاد من فلول الفرنجة وبقايا الحروب الصليبية. وتَمَّ فتح عكا في سنة تسعين وستمائة، أي قبل مولد ابن القيم بسنة واحدة.

يقول ابن كثير في «البداية والنهاية» في حوادث هذه السنة:

«وفيها جاء البريد ـ من القاهرة ـ إلى دمشق لتجهيز آلات الحصار لعكا، ونودي في دمشق: الغزاةَ في سبيل الله إلى عكا ، وخرج العامة والمتطوعة.. حتى الفقهاء والمدرسين والصلحاء.

وركب السلطان الأشرف من الديار المصرية بعساكره قاصداً عكا، فتوافت الجيوش هناك.. ونصبت عليها المجانيق من كل

ناحية يمكن نصبها عليها، واجتهدوا غاية الاجتهاد في محاربتها والتضييق على أهلها.

وتمَّ الزحف عليها يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى عند طلوع الشمس، وطلع المسلمون على الأسوار، ونصبت السناجق الإسلامية فوقها.. فولّت الفرنج عند ذلك الأدبار وركبوا هاربين في مراكب التجَّار، وقتل منهم عدد لا يعلمه إلا الله تعالى.

وسلَّمَتْ صور وصيدا قيادتها إلى الأشرف، فاستوثق الساحل للمسلمين، وقطع الله دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله ربِّ العالمين».

في هذا الجو ولد ابن القيم.. ولم يكن فتح عكا نهاية لأجواء الحرب والخوف في دمشق؛ فقد كانت موجات التتار التي دقَّت أبواب دمشق أكثر من مرة تلقي بظلالها على الأجواء العامة، التي كانت مليئة بالخوف والرعب من الوحشية التي اشتهر بها هؤلاء التتار، وتميزت بها أعمالهم المنكرة.

وفي سنة (٦٩٩ هـ) التقى جند الناصر بن قلاوون بالتتار في وادي الخزندار، وكانت معركة شديدة انهزم فيها جند الناصر وولوا الأدبار فارين.. واجتازوا دمشق فارين إلى مصر.

فباتَ أهل دمشق في خوف شديد، وفر أعيانها حتى صار البلد شاغراً من الحكام.

وجمع ابن تيمية من بقي من أعيان البلد واتفق معهم على ضبط الأمور، وخرج في جماعة من العلماء إلى قازان ملك التتار، وطلب منه الأمان لأهل دمشق وعدم دخولها. . فاستجاب ولكن إلى حين.

قال ابن كثير: «وفي مستهلِّ صفر سنة سبعمائة، وردت الأخبار بقصد التتار بلاد الشام، وأنهم عازمون على دخول مصر، فانزعج الناس لذلك وازدادوا ضعفاً على ضعفهم، وطاشت عقولهم وألبابهم، وشرع الناس في الهرب إلى مصر.

وجلس الشيخ تقي الدين ابن تيمية في ثاني صفر بمجلسه في الجامع، وحرَّض الناس على القتال، وساق لهم الآيات والأحاديث الواردة في ذلك، ونهى عن الإسراع في الفرار، ورغَّب في إنفاق الأموال في الذَّبِّ عن المسلمين وبلادهم وأموالهم، وأن ما ينفق في أجرة الهرب إذا أنفق في سبيل الله كان خيراً. وتابع المجالس في ذلك. . وثَبَّت الناس وحثَّ على الجهاد.

ثم جاءت الأخبار بأن ملك التتار قد خاض الفرات راجعاً عامه ذلك لضعف جيشه وقلة عددهم. . فطابت النفوس لذلك، وسكن الناس».

على أن حلم دخول دمشق الذي كان يراود التتار لم يفارقهم، ولذا لم تطل فترة اطمئنان نفوس أهل دمشق.

فقد حملت أخبار سنة اثنتين وسبعمائة أخبار عزم التتار على ذلك.

قال ابن كثير: «وفي شهر رجب قويت الأخبار بعزم التتار على دخول بلاد الشام، فانزعج الناس لذلك، واشتد خوفهم جدّاً، وقنت الخطيب في الصلوات، وقرئ البخاري.

وفي ثامن عشر -من رجب- قدمت طائفة كبيرة من جيش المصريين بقيادة ركن الدين بيبرس.. ثم قدمت طائفة أخرى.. فقويت القلوب، واطمأن كثير من الناس.

وخرجت العساكر إلى ناحية الكسوة.. حيث اجتمعت العساكر الشامية والمصرية.

وكان التتار قد دخلوا حمص وبعلبك وعاثوا في تلك الأراضي فساداً.. ثم تابعوا طريقهم حتى وصلوا إلى القطيفة.. ولما عرفوا أن جيش المسلمين في الكسوة، قصدوا إلى الجيش ولم يشتغلوا بالبلد، وقالوا: إن غَلبنا فإن البلد لنا، وإن غُلبنا فلا حاجة لنا به.

وكان لابن تيمية دوره الكبير في تثبيت الجند، وكان يقول لهم: إنكم منصورون في هذه الكَرَّة، فيقول له الأمراء: قل إن شاء

الله، فيقول: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً، وكان يتأوَّل في ذلك أشياء من كتاب الله تعالى؛ منها قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠].

وقد تكلم الناس في كيفية قتال هؤلاء التتار من أي قبيل هو؛ فإنهم يظهرون الإسلام، وليسوا بغاة على الإمام؛ فإنهم لم يكونوا في طاعته في وقت ثم خالفوه؟.

فقال الشيخ تقي الدين: هؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا على علي ومعاوية، ورأوا أنهم أحق بالأمر منهما، وهؤلاء يزعمون أنهم أحق بإقامة الحق من المسلمين.

فتفطَّن العلماء والناس لذلك.

وكان يقول للناس: إذا رأيتموني من ذلك الجانب وعلى رأسي مصحف فاقتلوني!.. فتشجع الناسُ في قتال التتار، وقويت قلوبهم ونياتهم، ولله الحمد.

ولما التقى الجيشان ثبت المسلمون ثباتاً عظيماً.. ثم نزل النصر عليهم قرب العصر يومئذ، واستظهر المسلمون على أعدائهم.. فلما جاء الليلَ لجأ التتار إلى اقتحام التلول والجبال والآكام، فأحاط بهم المسلمون يحرسونهم من الهرب، ويرمونهم عن قوس واحدة إلى وقت الفجر.. فقتلوا منهم ما لا يعلم عدده إلا الله عز وجل.

وكانت هزيمة التتار منكرة حتى وصل جماعة منهم إلى الفرات؛ فغرق بعضهم فيه بسبب الظلام.

وكشف الله بذلك عن المسلمين غمَّة عظيمة شديدة، ولله الحمد والمنة».

وكانت هذه نهاية التتار، وقد جرت هذه المعركة على أرض اسمها «مرج الصُّفَّر»، وسميت المعركة «وقعة شقحب» وهو اسم لقرية صغيرة هناك.

في هذا الجو قضى ابن القيم صباه؛ حيث كان عمره يوم وقعة شقحب اثني عشر عاماً.. وعاش قبل ذلك مع أهل دمشق خوفهم وما أصابهم من شدة.. فقد كان واعياً لذلك.

ولعل إعجابه بابن تيمية قد بدأ في تلك الأيام، حيث رأى فيه - كما رأى غيره - العالم المجاهد بسيفه وقلمه وكلمته، ورأى فيه القائد حين تغيب القيادة، وأصبح الحليم حيران.



ثانياً
الوضع الاجتماعي

«لم تكن الناحية الاجتماعية أقل سوءاً من الناحية السياسية، فقد كان الناس يعيشون في رعب وفزع، وخوف من سوء المصير، وخيَّم الفقر، وابتلي الناس بالجوع والغلاء، مع نقص في الأموال والثمرات، وانطلق اللصوص ينهبون ويسلبون، واستعان الأمراء بهولاء اللصوص على تحقيق مآربهم، وظهر الفساد في المتاجر، وفي كل نواحي الحياة»[١].



(١) من مقدمة الشيخ سيد سابق لكتاب «إعلام الموقعين».

ثالثاً

الحياة العلمية

لم تكن الحياة العلمية على شاكلة الحياة السياسية والاجتماعية، ويرجع السبب في ذلك إلى «أن المماليك عرفوا أن العلم سياج الدولة وعمادها، والعلماء هم حملة هذا العلم وروَّاد الأمة، فعملوا على تشجيع العلوم والتزلُّف إلى العلماء، فبنوا لهم المدارس، والمساجد. . وأجزلوا العطاء للعلماء، وأوقفوا على ما بنوا الأوقاف العظيمة، وذلك لأنهم كانوا ينشئون دولة، فرأوا أن خير ما يضمن لهم البقاء هو تشجيع العلوم والظهور أمام المسلمين بأنهم حماة الدين المدافعون عن البلاد والعباد. . »[1].

كما ساهم العلماء في نشر العلم رغم الظروف الصعبة التي يعيشها الناس، وساهم الأغنياء في بناء المدارس وإقامة الأوقاف عليها.

---

(١) ابن قيم الجوزية، ولمحمد مسلم الغنيمي، ص(٧٤)، المكتب الإسلامي.

ويصوِّر لنا الدكتور عبد الرحمن النحلاوي واقع الحياة العلمية خير تصوير، فيقول: «. . لذلك كثرت المدارس وتنوَّعت في كل عاصمة من عواصم الولايات، في طول البلاد وعرضها، وأقيمت على نظام شعبي لا مركزي، روعيت فيه شروط الواقفين وأنظمة الأوقاف، كما أقيمت على نظام من التخصص، فهناك مدارس خصصت للفقه، بل لفقه مذهب معين، ومدارس لتدريس الحديث، وأخرى للتفسير، وللغة أو النحو. . .».

«وكان أعيان كل بلدة أو ولاية، وأغنياؤها، هم الذين يؤسسون المدارس، ويحددون العلوم التي يرغبون أن تدرس، ويرصدون لها أوقافاً من أموالهم، ويكتب «صك الوقف» لكل مدرسة، يحدد فيه الواقف شروطه: كعدد طلاب المدرسة، والعلم الذي يراد أن تخصص له، ونحو ذلك. . .».

«وتقوم الدولة بالإشراف على هذه المدارس، لمراقبة تنفيذ وصية الموصي، أو وقف الواقف، عن طريق «كبير القضاة» كما قال الإمام السبكي، ومما يتعين على القاضي: أن ينظر في أمر الأوقاف والمستحقين من المشتغلين والمحتاجين وغيرهم. . .».

«وقد يشترط الواقف قراءة علوم أخرى. . يقفها الواقف على طائفة مذهب معين، ويشترط في المدرس أن يعرف ـ مثلاً ـ من العلوم كذا وكذا، كالتفسير والحديث. . .».

«وقد بلغت هذه المدارس من الرقي مبلغاً، صُنِّفَ معه طلابها ورُتِّبوا على درجات أدناها«فقهاء المدارس»؛ وهم الطلاب العاديون المبتدئون، وفوقهم درجة «المنتهي من الفقهاء»؛ وعليهم من البحث والمناظرة فوق ما على من دونهم».

«وتعلوهم درجة«المفيد»؛ وعليه أن يعتمد ما يحصل به في الدرس فائدة من بحث زائد على بحث الجماعة، وأعلاها درجة«المعيد»؛ وهوالذي يعيد ما قرره شيخ المدرسة، وعليه تفهيم بعض الطلبة ونفعهم وعمل ما يقتضيه لفظ الإعادة».

«أما الوظائف الإدارية في هذه المدارس فأعلاها وظيفة «القيم» على المدرسة، وهو القائم على تنظيم جميع شؤونها، والمشرف على صرف مرتبات طلابها وشيخها وسائر الموظفين، ويشرف كذلك على سير الدروس، وتحقيق الأهداف التي وُقِفَتْ من أجلها المدرسة.. ثم «النقيب» ويختار من الطلاب، مهمته تنظيمهم وتنبيههم للسماع، وإيقاظ نائمهم، كما ذكر ابن جماعة الكناني».

«ثم «كاتب الغيبة على الفقهاء»؛ وهو الذي ينظم جدول الغياب والحضور، ثم «كاتب غيبة السامعين» وهو كسابقه إلا أنه خاص بمدارس الحديث».

«وهناك وظائف «فنية ـ إدارية» لبعضها صفة علمية، مثل

«شيخ الرواية»؛ وعليه أن يسمع المحدثين، ويستمع لما يقرؤونه عليه لفظة لفظة، ووظائف ملحقة بالمدرسة، كوظيفة«خازن الكتب»؛ ومهمته صيانتها والاحتفاظ بها، وإعارتها للمحتاجين إليها، وألا يخرج الكتاب إلا برهن إذا اشترط الواقف ذلك»[١].

على أن هذه الحركة العلمية النشطة، كانت ضمن إطار محدود بالمذهبية، فكل أتباع مذهب يعتنون بالمدارس التي تعلم مذهبهم، فظل الجمود قائماً، وعاش طلاب العلم الجدد عالة على السابقين يقلدونهم تقليداً أعمى.

«ولذلك خمدت القرائح وعجزت عن الابتكار والاجتهاد والتجديد، ولا ينقض هذا وجود أفراد كان لهم - إلى حدٍّ ما - جهد يذكر فيشكر»[٢].

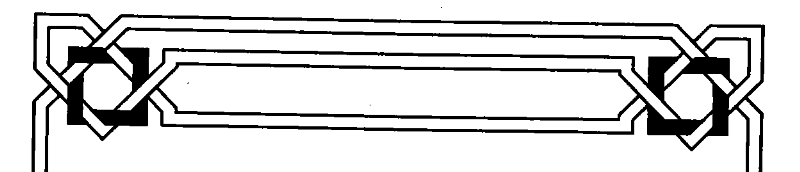


---

(١) ابن قيم الجوزية، لعبد الرحمن النحلاوي، ص(٧١ ـ ٢١)، دار الفكر المعاصر.

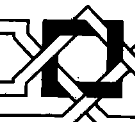
(٢) من مقدمة الشيخ سيد سابق لكتاب «إعلام الموقعين».





الباب الأول

مولد ابن القيم ونشأته



تمهيد

ينبغي أن نعترف ـ ونحن في صدد التقديم لهذا الباب ـ أن الإمام ابن القيم لم يحظَ في كتب التراجم بما هو أهل له، من الحديث عن تاريخ حياته المليئة بالعطاء، الحية بالحركة الفاعلة في سبيل الإصلاح.

إنها صفحات قليلة سطرتها كتب التراجم، وهي متشابهة في المحتوى والمضمون، ولذلك فتعددها لا يفيد أكثر من تأكيد الخبر. أما الزيادة في بعضها على بعض فهي قليلة لا تكاد تذكر.

هذا ما نجده في «البداية والنهاية» لابن كثير الدمشقي، و«ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب، و«الوافي بالوفيات» للصفدي، و«الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» لابن حجر، و«البدر الطالع» للشوكاني، و«منادمة الأطلال» لابن بدران، و«شذرات الذهب» لابن العماد، و«الرد الوافر» لابن ناصر الدين الدمشقي، و«بغية الوعاة» للسيوطي، و«هدية العارفين» للبغدادي، و«العبر» للذهبي... وغيرها.

فترجمته في «البداية والنهاية» ـ على سبيل المثال ـ جاءت في صفحة واحدة، وفي «شذرات الذهب» جاءت في صفحتين ونصف، ونصف هذه الترجمة في تعداد كتبه . . وهكذا بقية كتب التراجم.

وهذا ما تنبَّه له الشيخ أبو الحسن الندوي، حيث قال: «وممَّا يبعث على الدهشة والاستغراب: أن التاريخ لا يتحدث عن سيرته إلا بإيجاز، والمعتمد في ذلك هو ما ذكره تلميذه النابغة الشهير الحافظ ابن رجب الحنبلي عن سيرته في (طبقات الحنابله)»[1].

والترجمة المشار إليها عند ابن رجب هي في حدود ثلاث صفحات؛ استغرق سرد أسماء كتبه أكثر من صفحة.

والذي يبدو لي أن سبب هذا الشُّح في المعلومات حول شخص ابن القيم هو طبيعة الحياة التي عاشها؛ وهي تنقسم إلى ثلاثة أدوار:

الدور الأول: حياته الأولى من مولده حتى سنة(٧١٢هـ)؛ وهي سنة تتلمذه على الإمام ابن تيمية.

الدور الثاني: من سنة (٧١٢هـ) حتى سنة (٧٢٨هـ)؛ وهي سنوات مصاحبته للإمام ابن تيمية.

---

(١) رجال الفكر والدعوة في الإسلام، الجزء الثاني (الحافظ ابن تيمية)، ص(٢٦٣).

الدور الثالث: ما بعد وفاة ابن تيمية سنة(٧٢٨هـ) وحتى نهاية حياته.

ففي الدور الأول كان ابن القيم في دور طلب العلم، فلم تكن له تلك الشهرة التي تلفت الأنظار لترجمته.

وفي الدور الثاني كان في مكان الظل لابن تيمية؛ فكانت الأضواء مسلطة على شيخه.

وفي الدور الثالث كانت حياته امتداداً لحياة شيخه.. «والحقيقة أنه أذاب شخصيته في حياة شيخه وأستاذه بحيث لم يعد له وجود مستقل ولا شخصية بوحدها» كما قال الشيخ أبو الحسن الندوي[1].

ولعل مراد أبي الحسن: أن المنهج الذي سلكه ابن القيم بعد وفاة شيخه كان في الطريق نفسه الذي سلكه شيخ الإسلام - من الإلحاح على القضايا التي كانت محل اهتمام ابن تيمية، فلم يكن هناك من جديد يلفت النظر.

ولهذا كانت ترجمته مختصرة كما رأينا.

❑ ❑ ❑

---

(١) المرجع السابق نفسه.



الفصل الأول

مولده وأسرته

اسمه ونسبه:

هو أبو عبد الله، شمس الدين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز بن مكي، زين الدين، الزرعي، ثم الدمشقي، الحنبلي، الشهير بـ «ابن قيم الجوزية».

هذا هو نهاية ما تحرر الوقوف عليه، في جر نسبه، من نحو ثلاثين كتاباً من كتب التراجم التي ترجمت له من المتقدمين والمتأخرين، وهي متفقة في هذا السياق إلى جد أبيه: «سعد».

وأما جده الأعلى فهو «مكي» الملقَّب «زين العابدين» فإن عامة من ترجم لابن القيم رحمه الله لم يذكره في سياق نسبه، وإنما تحصَّل لي من ترجمة أخيه عبد الرحمن في كتاب«الدرر الكامنة» لابن حجر.

وأما «الزُّرعي» ـ بضم الزاي المعجمة ـ فنسبه إلى «زرع» ـ بضم الزاي ـ قرية صغيرة من بلاد حوران، ويطلق عليها الآن اسم «ازرع» ـ وهي جنوبي دمشق، وتبعد عنها (٥٥) ميلاً[١].

---

(١) التقريب لفقه ابن قيم الجوزية، للشيخ بكر أبو زيد (١/ ١٩ ـ ٢٠).

ولادته:

تتفق كتب التراجم على أن ولادته كانت سنة (٦٩١هـ) ، وفي كتاب «الوافي بالوفيات» للصفدي أن مولده كان في سابع صفر من ذلك العام[١] .

ولم تبين هذه الكتب مكان الولادة، ونقل الشيخ بكر أبو زيد عن المراغي في كتابه «طبقات الأصوليين» أن ولادته كانت في دمشق .

وذهب كل من الشيخين شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط في ترجمته في مقدمة «زاد المعاد» إلى أن ولادته كانت في «ازرع» ، وتحول بعد ذلك إلى دمشق .

قلت: يغلب على الظن أن ولادته كانت في دمشق، فقد ذكر في جملة مشايخه ـ كما سيأتي ـ الشهاب العابر، قال ابن القيم: وسمعت عليه عدة أجزاء، ولم يتفق لي قراءة هذا العلم عليه لصغر السِّنِّ واخترام المنية له .

فالشهاب العابر عاش في دمشق ومات فيها، ولم يكن في «ازرع»، وتوفي سنة (٦٩٧هـ) وابن القيم يومئذ في السابعة .

---

(١) الوافي بالوفيات (٢/ ١٩٥) .

ثم إن والده كان قيماً للمدرسة، أي مديراً لها، وليس من المعقول أن يصل إلى هذا المنصب إلا بعد مدة من العمل في هذه المدرسة ـ وبخاصة في ذلك الزمن ـ، وإذن فوالده كان مقيماً في دمشق قبل ولادته. والله أعلم.

وقطع أبو الحسن الندوي بأن ولادته كانت في دمشق[1].

سبب شهرته بـ (ابن قيم الجوزية):

اشتهر هذا الإمام بين أهل العلم، المتقدمين منهم والمتاخرين بـ (ابن قيم الجوزية)، وقد يختصر بعضهم فيقول: (ابن القيم).

ويشرح لنا الشيخ بكر أبو زيد سبب ذلك فيقول:

«تتفق كتب التراجم على أن المشتهر بهذا اللقب (قيم الجوزية) هو والد هذا الإمام: الشيخ أبو بكر ابن أيوب الزرعي، إذ كان قيماً على المدرسة الجوزية بدمشق مدة من الزمن؛ فقيل له: (قيم الجوزية) واشتهرت ذريته وحفدتهم من بعد بذلك.

ولا تعطينا كتب التراجم عن هذه القوامة أكثر مما ذكر، ولعل هذا لوضوح الحال، وتوارد المعنى اللغوي للقيم على الاصطلاحي.

---

(١) رجال الفكر والدعوة في الإسلام، الجزء الثاني، ص(٢٦٣).

إذ القيم في اللغة هو: الشخص السائس للأمر، القائم عليه بما يصلحه.

وفي كلام أهل الاصطلاح لا يعدو أن يكون كذلك، فهو بمعنى الناظر والوصي حسب الاصطلاح، فيقال: ناظر المدرسة ووصيها وقيّمها، كلها بمعنى واحد.

ويكفي والده فخراً أن تعطى له قوامة هذه المدرسة وإدارتها، لما لها دور فعال بين المدارس آنذاك.

وإذ عرفنا سبب الشهرة، فلا بد من إلمامة للتعريف بالمدرسة الجوزية التي صارت القوامة عليها.

فالجوزية ـ بفتح الجيم لا غير ـ هي من أعظم مدارس الحنابلة بدمشق الشام، نسبة إلى واقفها (ابن الجوزي)؛ وهو: محي الدين يوسف، ابن الإمام الواعظ المشهور أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي القرشي البكري البغدادي الحنبلي المتوفى سنة(٦٥٦هـ).

وهذه المدرسة لا يزال محلُّها معروفاً إلى الآن في دمشق في حي البزورية، وقد بين جماعة من المؤرخين الدماشقة الأدوار التي مرت على مبنى هذه المدرسة الإسلامية والوقف الخيري.

قال الشيخ عبد القادر بدران في كتابه (منادمة الأطلال): تقع

هذه المدرسة بالبزورية المسمى قديماً سوق القمح، وقد اختلس جيرانها معظمها، وبقي الآن منها بقية، ثم صارت محكمة إلى سنة (١٣٢٧هـ)؛ وهي الآن مقفلة لا ندري ما يصنع بها الزمان فيما بعد.

وقال الأستاذ أحمد عبيد بعد كلام ابن بدران: ثم أقفلت مدة إلى أن فتحتها جمعية الإسعاف الخيري وجعلتها مدرسة لتعليم الأطفال، وقد احترقت في أول الثورة السورية، ولا تزال كذلك إلى اليوم»[١].

أسرته:

إن البيئة التي ينشأ فيها الإنسان لها التأثير الكبير على تنمية استعداداته ومواهبه، كما لها الأثر الكبير على تربية أخلاقه وبناء شخصيته، ولهذا يحسن بنا أن نتعرَّف باختصار على بعض من كان يحيط به.

١ ـ **والده**: الشيخ الصالح العابد، أبو بكر بن أيوب، قيم الجوزية، قال فيه ابن كثير: «كان رجلاً صالحاً متعبِّداً، قليل التكلُّف، وكان فاضلاً، وقد سمع شيئاً من دلائل النبوة عن الرشيد العامري، توفي فجأة ليلة الأحد تاسع عشر ذي الحجة بالمدرسة الجوزية، وصُلي عليه بعد الظهر بالجامع، ودفن بباب الصغير،

---

(١) التقريب لفقه ابن القيم (١/ ٣٢ ـ ٢٥)، باختصار.

وكانت جنازته حافلة، وأثنى عليه الناس خيراً، رحمه الله تعالى»[1].

قال ابن حجر: كانت وفاته في ذي الحجة سنة(٧٢٣ هـ)[2].

٢ ـ **أخوه زين الدين**: قال في شذرات الذهب: «أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، أخو شمس الدين بن قيم الجوزية الحنبلي. كان إماماً قدوة، سمع من ابن عبد الدايم، وعيسىٰ المطعم، والحجار، وحَدَّث.

وذكره ابن رجب في مشيخته وقال: سمعت عليه كتاب «التوكل» لابن أبي الدنيا بسماعه عن الشهاب العابر، وتفرد بالرواية عنه.

توفي ليلة الأحد ثامن عشر ذي الحجة سنة (٧٦٩ هـ)، وصلي عليه من الغد بجامع دمشق ودفن بالباب الصغير»[3].

٣ ـ **ابن أخيه زين الدين**: وهو عماد الدين، أبو الفداء إسماعيل بن الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الأصل ثم الدمشقي الحنبلي المعروف بابن قيم الجوزية.

كان من الأفاضل، واقتنى كتباً نفيسة، وهي كتب عمه شمس

---

(١) البداية والنهاية، لابن كثير (١٤/ ٩٥).

(٢) الدرر الكامنة (١/ ٥٢٧).

(٣) شذرات الذهب، في ترجمته سنة وفاته.

الدين ابن القيم، وكان لا يبخل بعاريتها، توفي يوم السبت الخامس عشر من شهر رجب سنة (٧٩٩ هـ)[١].

٤ ـ ابنه عبد الله:

جمال الدين، كانت ولادته سنة (٧٢٣ هـ)، قال في شذرات الذهب: «كان لديه علوم جيدة، وذهن حاضر حاذق، وأفتى ودرَّس وناظر، وحجَّ مرات، وكان أعجوبة زمانه، توفي يوم الأحد (١٤) شعبان سنة (٧٥٦ هـ)»[٢].

ومما جاء في ترجمته فيما نقله الشيخ بكر أبو زيد: أنه كان مفرط الذكاء والحفظ، حفظ سورة الأعراف في يومين، وصلى بالقرآن سنة (٧٣١ هـ) أي وهو في التاسعة من عمره تقريباً. وهو الذي تسلم التدريس في الصدرية بعد والده، وأطنب مترجموه في الثناء عليه علماً وصلاحاً وذكاءً مفرطاً، وغيرةً في ذات الله تعالى.

٥ ـ ابنه إبراهيم: وكانت ولادته سنة (٧١٦ هـ). قال في شذرات الذهب: «سمع من ابن الشحنة وغيره، واشتغل في أنواع العلوم، وأفتى ودرَّس وناظر.

ذكره الذهبي في معجمه المختص فقال: تفقه بأبيه، وشارك

---

(١) شذرات الذهب، في ترجمته سنة وفاته.

(٢) المرجع السابق نفسه.

في العربية، وسمع وقرأ وتنبه، وأسمعه أبوه بالحجاز، وطلب بنفسه، ودرس بالصدرية والتدمرية، وله تصدير بالجامع الأموي ، وشرح ألفية ابن مالك، وسماه «إرشاد السالك إلى حل ألفية ابن مالك» وكان له أجوبة مسكتة».

توفي ببستانه بالمزة يوم الجمعة مستهل صفر، وصلي عليه بجامعها ثم بجامع جراح، ودفن عند والده بباب الصغير، وبلغ من العمر ثمانياً وأربعين سنة؛ إذ كانت وفاته سنة (٧٦٧ هـ) ، وترك مالاً كثيراً[١] .

* * *

بهذا الجو العلمي نشأ ابن القيم، يتقلب في أحضان دروس العلم ويستنشق عبيره أنَّى سار ، وقد أوتي ذكاءً وقَّاداً وفكراً صافياً، وعقلاً نقَّاداً يزن الأمور ويقايس بينها؛ فيقبل ما صفا ويترك ما كدر.

وهذا ما أتاح له فيما بعد أن يتربَّع على الكرسي الذي سمي «ابن القيم».



(١) شذرات الذهب ، في ترجمة سنة وفاته.

الفصل الثاني

طلبه للعلم

بدء طلبه العلم:

نشأ ابن القيم في أحضان والده الذي كان قيِّماً للمدرسة الجوزية، والقيِّم ـ كما رأينا ـ هو الدرجة العليا في الترتيب الإداري للموظفين، فهو المسؤول الذي يُرجع إليه.

ولا شك أن ابن القيم كان يتردَّد على والده في هذه المدرسة من نعومة أظفاره، فنشأ في أحضان العلم وحلقات الدرس، وأَلِفَ رؤيتها قبل أن يعي ما يدور فيها.

وليس بين أيدينا ما يعطينا التصور الواضح عن المراحل التعليمية التي تدرج فيها، وكل ما يمكن تسجيله في هذا الصدد هو العلوم التي تلقَّاها ما قبل سنة (٧١٢ هـ)؛ وهي السنة التي بدأ تتلمذه فيها على الإمام ابن تيمية.

نتبين ذلك من خلال ذكر شيوخه وما قرأ على كل منهم.

ومما يبين لنا طلبه المبكر للعلم أنه سمع عدة أجزاء على أبي

العباس العابر ، قال: لم يتفق لي قراءة هذا العلم عليه لصغر السن واخترام المنية له رحمه الله تعالى[1].

ومن المعلوم أن أبا العباس توفي سنة (٦٩٧ هـ)؛ وهذا يعني أن ابن القيم كان في السابعة من العمر.

رحلته في طلب العلم:

الرحلة في طلب العلم أمر معهود في ترجمة العلماء، ولا نجد عناية بهذا الأمر من الذين ترجموا لابن القيم، وقد وجدت جهداً مشكوراً في هذا الصدد للأستاذ يوسف علي بديوي؛ وذلك في مقدمته لكتاب «الروح» الذي نشرته دار ابن كثير بدمشق. وقد رأيت أن أضع هذا الجهد بين يدي القارئ لما فيه من فائدة.

قال الأستاذ يوسف علي بديوي:

«نتلمّس من مصنفات ابن القيم بعض الإشارات التي تفيد أنه ارتحل في طلب العلم إلى: مصر ونابلس والقدس وطرابلس ومكة.

أما عن هذه الرحلات فلم نجد إلا المقريزي يشير إلى بعضها،

---

(١) زادالمعاد (٣/ ٦١٥)، طبعة مؤسسة الرسالة، بتحقيق الأستاذين: شعيب وعبد القادر الأرنؤوط.

فقد ذكر في كتاب «السلوك لمعرفة دول الملوك» في خاتمة ترجمته: «وقدم القاهرة غير مرة».

وقد وهم بعضهم حينما قال: «وتفقَّه على ابن تيمية ورافقه إلى مصر»[1]، والواقع أنه لم يرافقه إلى مصر، بدليل قول ابن تغري بردي: «ولزم شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية بعد عودته من القاهرة في سنة اثنتي عشرة وسبعمائة».

وفي إشارات ابن القيم - في آثاره - توضيح طلبه للعلم.

فقد ذكر في «إغاثة اللهفان» في معرض كلامه على طب البدن والقلب ما نصه: «وذاكرتُ مرة بعض رؤساء الطب بمصر في هذا، فقال: والله لو سافرت إلى المغرب في معرفة هذه الفائدة لكان سفراً قليلاً، أو كما قال»[2].

وفي «هداية الحيارى» قال: «وقد جرت لي مناظرة بمصر مع أكبر من يشير إليه اليهود بالعلم والرياسة»[3].

وفي «بدائع الفوائد» ذكر في معرض حديثه عن أمر القبلة قوله: «وأما السامرة فإنهم يُصَلُّونَ إلى طود لهم بأرض الشام،

---

(١) آداب اللغة العربية، لزيدان (٣/ ٢٦٤).
(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٧١).
(٣) هداية الحيارى، ص (١٢٤).

يعظِّمونه ويحجون إليه، ورأيته أنا وهو في بلد نابلس، وناظرت فضلاءهم في استقباله»[1].

وأما عن رحلاته الأخرى ، فتفيد المصادر بأن له كتاباً كبيراً سماه: «المسائل الطرابلسية»، لعله ألفه في طرابلس آنذاك، وثمة إشارات في مؤلفات ابن القيم إلى مكة والقدس، «كتاب الفتح القدسي» ، و«التحفة المكية» ، و«الرسالة التبوكية» التي ألَّفها في تبوك سنة (٧٣٣ هـ)» . اهـ .

ملازمته للإمام ابن تيمية:

تتفق جمع المصادر على أن اتصال ابن القيم بشيخ الإسلام ابن تيمية كان سنة (٧١٢ هـ) ، وذلك بعد عودة الشيخ من الديار المصرية، حيث لازمه حتى وفاته سنة (٧٢٨ هـ) .

قال ابن كثير : ولما عاد الشيخ تقي الدين ابن تيمية من الديار المصرية في سنة ثنتي عشرة وسبعمائة لازمه إلى أن مات، فأخذ عنه علماً جمّاً[2] .

ونعتقد أنه مع وفاة الإمام ابن تيمية قد انتهت مرحلة الطلب عند ابن القيم، واستقلَّ بنفسه ، ولم يتتلمذ على أحد بعد شيخه .

---

(١) بدائع الفوائد (٤/ ١٧٢) .
(٢) البداية والنهاية (١٤/ ٢٣٤) .

مكتبته:

الكتاب هو رأس مال العالم الذي لا بدَّ له منه، والاهتمام بالكتب دليل على الاهتمام بالعلم، ولقد اشتهر الإمام ابن القيم بحبه للكتب وجمعها وكتابتها، فهي المصدر الذي أتاح له هذه الثقافة الواسعة في كل فنون العلم.

قال ابن كثير: «وله من التصانيف الكبار والصغار شيء كثير، وكتب بخطِّه الحسن شيئاً كثيراً، واقتنى من الكتب ما لا يتهيأ لغيره تحصيل عشره من كتب السلف والخلف»[١].

وقال الحافظ ابن رجب: «وكان شديد المحبة للعلم، وكتابته ومطالعته وتصنيفه، واقتناء الكتب، واقتنى من الكتب ما لم يحصل لغيره»[٢].

وقال الحافظ ابن حجر: «وكان مغرىً بجمع الكتب، فحصل منها ما لا يحصر، حتى كان أولاده يبيعون منها بعد موته دهراً طويلاً سوى ما اصطفوه منها لأنفسهم»[٣].

وقد سبق معنا في ترجمة ابن أخيه قول ابن العماد: «كان من

---

(١) البداية والنهاية (١٤/ ٢٣٤).

(٢) ذيل طبقات الحنابلة (٣١٨).

(٣) الدرر الكامنة (٥/ ١٣٨).

الأفاضل ، واقتنى كتباً نفيسة ، وهي كتب عمه الشيخ شمس الدين ابن القيم، وكان لا يبخل بإعارتها».

وهذه الكتب التي وصلت إلى ابن أخيه، إما أنه ورثها؛ فقد كانت وفاته بعد وفاة ولدي الشيخ بزمن، وإما أنه اشتراها عندما كان أولاده يبيعونها.



الفصل الثالث

شيوخه وتلاميذه

شيوخه:

إن التعرُّف على شيوخ العالم تساعد في إلقاء الضوء عليه، وتصّورٍ أفضل عن مواهبه، وتبرز مصادر تكوينه العلمي. ومن هؤلاء الشيوخ:

١ ـ والده: قيم الجوزية:

وقد سبقت ترجمته.. وكان له في علم الفرائض اليد الطولى، وعنه أخذها ابنه[١].

هذا ما ذكرته كتب التراجم، وهذا لا يعني أن الابن لم يأخذ عن الأب إلا هذا العلم، وإنما تخصيصه بالذكر لما لهذا العلم من مكانة بين العلوم، قال الإمام ابن تيمية: «علم الفرائض من علم الخاصة، حتى إن كثيراً من الفقهاء لا يعرفه»[٢].

---

(١) الوافي بالوفيات (٢/ ١٩٥).

(٢) الاستقامة، لابن تيمية (١/ ٥٨).

٢ـ الشهاب العابر:

أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن عبد المنعم بن نعمة النابلسي الحنبلي، ولد ليلة الثلاثاء ثالث عشر شعبان سنة ثمان وعشرين وستمائة، وسمع بها من عمه تقي الدين يوسف، ومن الصاحب محيي الدين بن الجوزي، وسمع من سبط السلفي وغيره، وترحل إلى مصر ودمشق والإسكندرية، وتفقَّه في المذهب. قال الذهبي: فقيه إمام عالم لا يدرك شأوه في علم التعبير، وله مصنف كبير في هذا العلم سماه «البدر المنير» ، توفي سنة (٦٩٧ هـ)، ودفن بتربة أبي الطيب بباب الصغير[١].

قال ابن القيم: سمعت عليه عدة أجزاء ، ولم يتفق لي قراءة هذا العلم عليه لصغر السن واخترام المنية له[٢].

فهو أول أستاذ سمع منه ابن القيم بحسب هذا القول.

سليمان بن حمزة الحاكم:

هو مسند الشام قاضي القضاة، تقي الدين أبو الفضل سليمان بن حمزة. . ابن قدامة المقدسي ، ثم الصالحي الحنبلي، ولد سنة ثمان وعشرين وستمائة ، وتوفي سنة خمس عشرة

---

(١) شذرات الذهب (٥/ ٤٣٧).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٦١٥).

وسبعمائة. قال البرزالي: شيوخه بالسماع نحو مائة شيخ، وبالإجازة أكثر من سبعمائة[1].

ذكره في مشيخة ابن القيم كل من ابن رجب، وابن حجر... وغيرهما.

٤ ـ ابن عبد الدائم:

أبو بكر بن المنذر بن زين الدين أحمد بن عبد الدائم بن نعمة المقدسي الحنبلي، قال الذهبي: كان مسند الوقت، صالحاً، سمع من ابن الزبيدي والناصح والأربلي والهمداني وطائفة، وكان ذا همَّة وجلادة، وذكرٍ وعبادة، لكنه أضرَّ وثقل سمعه، وتوفي سنة (٧١٨ هـ)[2].

سمع منه ابن القيم الحديث كما ذكرالصفدي.

٥ ـ شرف الدين ابن تيمية:

المفتي الزاهد القدوة؛ شرف الدين عبد الله بن عبد الحليم، أخو الشيخ تقي الدين، ولد سنة (٦٦٦ هـ) بحرَّان، وقدم مع أهله إلى دمشق ضيفاً، سمع المسند والصحيحين وكتب السنن، وتفقه في المذهب حتى أفتى، وبرع في الفرائض والحساب والعربية،

---

(١) شذرات الذهب (٦/ ٣٥).

(٢) المصدر السابق (٦/ ٤٨).

كان شريف النفس شجاعاً مجاهداً ورعاً، توفي سنة (٧٢٧هـ)[١].

قال ابن القيم في مسألة من مسائل الطلاق: «وهذا اختيار شيخنا أبي محمد ابن تيمية أخي شيخ الإسلام»[٢].

٦ ـ الصفيُّ الهندي:

صفي الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم الهندي الشافعي، مولده بالهند سنة (٦٤٤ هـ)، قدم مصر، ثم دمشق سنة (٦٨٥ هـ)، وسمع من ابن البخاري، وولي بها مشيخة الشيوخ، ودرس بها بالظاهرية الجوانية، وانتصب للإفتاء والإقراء في الأصول والمعقول. . وكان ذا دين وتعبُّد وإيثار وخير وحسن اعتقاد، توفي بدمشق سنة (٧١٥ هـ)[٣].

أخذ عنه ابن القيم: الأصلين: أصول الفقه، والتوحيد، وقرأ عليه أكثر «الأربعين» و«المحصل»، ذكر ذلك الصفدي والشوكاني وغيرهما.

٧ـ المجد الحرَّاني:

مجد الدين إسماعيل بن محمد الفراء الحراني، ثم الدمشقي،

---

(١) شذرات الذهب (٦/ ٧٦).
(٢) إعلام الموقعين (٤/ ١١٤).
(٣) شذرات الذهب (٦/ ٣٧).

الفقيه الحنبلي، شيخ المذهب. ولد سنة (٦٤٥ هـ) بحران، وقدم دمشق مع أهله، فسمع من كثير من مشايخها، وسمع المسند والكتب الكبار، تصدى للفتوى مدة طويلة، وانتفع به خلق كثير، مع الديانة والتقوى وضبط اللسان والورع واطراح التكلف في الملبس وغيره.

كان عالماً بالفقه والحديث وأصول الفقه والفرائض والجبر والمقابلة، قال ابن رجب: كان سريع الدمعة، سمعت بعض شيوخنا يذكر عنه أنه كان لا يذكر النبي ﷺ في دروسه إلا ودموعه جارية، توفي سنة (٧٢٩ هـ)، ودفن بمقابر باب الصغير[١].

وذكر الصفدي العلوم التي أخذها عنه ابن القيم، فقال: أخذ الفرائض عنه بعد أن أخذها عن والده، وأخذ عنه الفقه، وقرأ عليه مختصر الخرقي، وكتاب المقنع لابن قدامة، وأخذ عنه الأصول، وقرأ عليه أكثر الروضة لابن قدامة[٢].

وممن ذكرتْهم التراجم في عداد شيوخه:

٨ ـ قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة الحموي المتوفى سنة (٧٣٣ هـ).

---

(١) شذرات الذهب (٦/ ٨٩).

(٢) الوافي بالوفيات (٢/ ٢٧٠).

٩ ـ عيس شرف الدين بن عبد الرحمن المطعم المتوفى سنة (٧١٩ هـ).

١٠ ـ أبو نصر محمد بن عماد الدين الشيرازي ، المتوفى سنة (٧١٤ هـ).

١١ ـ إسماعيل أبو الفداء بن يوسف بن مكتوم ، المتوفى سنة (٧١٦ هـ).

١٢ ـ أيوب زين الدين، ابن نعمة النابلسي، ثم الدمشقي، الكحال ، المتوفى سنة (٧٣٠ هـ).

١٣ ـ فاطمة بنت الشيخ إبراهيم جوهر البطائحي البعلي ، المسندة المحدثة ، توفيت سنة (٧١١ هـ).

١٤ ـ ومن شيوخه: شيخ الإسلام ابن تيمية الذي سأفرد ترجمته في الفصل التالي.

تلاميذه:

إن ذكر تلاميذ العالم يبين أثره في المجتمع ، قال ابن رجب: «وأخذ عنه العلم خلق كثير في حياة شيخه وإلى أن مات، وانتفعوا به، وكان الفضلاء يعظمونه ويسلمون له»[١].

---

(١) شذرات الذهب (٦/ ١٦٩).

ومن تلاميذه:

١ ـ **ابنه إبراهيم:** وقد سبقت ترجمته.

٢ ـ **ابنه عبد الله:** وقد سبقت ترجمته.

٣ ـ ابن كثير:

الحافظ الكبير عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي الشافعي، ولد سنة (٧٠٠ هـ). ذكره الذهبي فقال: الإمام المحدث المفتي البارع، ووصفه بحفظ المتون وكثرة الاستحضار جماعة، ولازم المزي وتزوج بابنته، وسمع عليه أكثر تصانيفه، وأخذ عن الشيخ تقي الدين ابن تيمية فأكثر عنه، انتهت إليه الرياسة في التاريخ والحديث والتفسير. وذكر ابن قاضي شهبة في طبقاته: أنه كانت له خصوصية بابن تيمية، ومناضلة عنه، واتباع له في كثير من آرائه، وكان يفتي برأيه في مسألة الطلاق، وامتحن بسبب ذلك وأوذي، توفي سنة (٧٧٤ هـ)، ودفن بمقبرة الصوفية عند شيخه ابن تيمية[١].

أقول: ذكر كثير ممن ترجم للإمام ابن القيم أن ابن كثير من تلاميذه، وليس بين أيدينا ما يدل على ذلك، بل إن ترجمة ابن كثير لابن القيم تنفي ذلك؛ فقد جاء فيها:

---

(١) شذرات الذهب (٦/ ٢٣١).

«وفي ليلة الخميس ثالث عشر رجب توفي صاحبنا الشيخ الإمام العلامة شمس الدين . . » ، ثم قال: «وكنت من أصحب الناس له ، وأحب الناس إليه»[1].

فقوله: «صاحبنا» لا يدل على ذلك، ولو كان تتلمذ عليه لقال: «شيخنا» ، وواضح من ترجمة ابن كثير أنه كان تلميذاً لابن تيمية مثله مثل ابن القيم جمعتها الصحبة في التلمذة على شيخ الإسلام.

٤ ـ ابن رجب:

الحافظ زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير بـ «ابن رجب» ، قدم من بغداد مع والده إلى دمشق وهو صغير، أجازه ابن النقيب والنووي، واشتغل بسماع الحديث، وكانت مجالس تذكيره للقلوب ضارعة ، وللناس عامة مباركة نافعة، اجتمعت الفرق عليه، ومالت القلوب بالمحبة إليه، وله مصنفات مفيدة ومؤلفات عديدة، وكان لا يتردد إلى أحد من ذوي الولايات، توفي بدمشق سنة (٧٩٥ هـ)[2].

---

(١) البدائة والنهاية (١٤/ ٢٣٤).
(٢) شذرات الذهب (٦/ ٣٣٩).

قال ابن رجب في ترجمته لابن القيم: «أبو عبد الله ابن قيم الجوزية شيخنا.. لازمت مجالسه قبل موته أزيد من سنة، وسمعت عليه قصيدته النونية الطويلة في السنة، وأشياء من تصانيفه وغيرها»[1].

٥ ـ السبكي:

الإمام تقي الدين أبو الحسن، علي بن عبد الكافي السبكي الشافعي، المفسرالحافظ الأصولي، ولد سنة (٦٨٠ هـ)، برع في الفنون، وتخرج به خلق في أنواع العلوم، وأقرَّ له الفضلاء، وولي قضاء الشام، وولي مشيخة دار الحديث بالأشرفية.. وصنف نحو مائة وخمسين كتاباً، توفي بمصر سنة (٧٥٦ هـ)[2].

ذكر ابن الحجر: أن السبكي رحل لطلب الحديث إلى الشام والحجاز والإسكندرية، وفي الشام أخذ عن جماعة؛ عدَّ منهم «ابن القيم»[3].

٦ ـ النابلسي:

محمد بن عبد القادر بن عثمان النابلسي الحنبلي، ولد

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٤٤٧).
(٢) شذرات الذهب (٦/ ١٨٠).
(٣) الدرر الكامنة (٣/ ١٣٤).

بنابلس، ورحل إلى دمشق وسمع بها ، وكان من الفضلاء، وكان يلقب بـ «الجنة» لكثرة ما عنده من العلوم، لأن الجنة فيها ما تشتهي الأنفس، وكان عنده ما تشتهي أنفس الطلبة، وانتهت إليه الرحلة في زمانه، له مصنفات حسنة؛ منها مختصر طبقات الحنابلة. وصحب ابن قيم الجوزية، فقرأ عليه أكثر تصانيفه، وكان خطه حسناً جدّاً، توفي سنة (٧٩٧ هـ)[١].

٧ ـ قاضي الجماعة بفاس:

محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحيى بن عبد الرحمن القرشي، أبو عبد الله التلمساني، قاضي الجماعة بفاس. ذكر ترجمته السيوطي في «بغية الوعاة»؛ فقال: «أخذ بمصر عن أبي حيان، وبدمشق عن الشمس ابن قيم الجوزية»؛ توفي تقريباً سنة (٧٥٩ هـ)[٢].

وممن ذُكر في عداد تلاميذ الإمام ابن القيم:

٨ ـ محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي الشافعي، المتوفى سنة (٧٤٨ هـ).

---

(١) شذرات الذهب (٦/ ٣٤٩).

(٢) عن مقدمة كتاب الروح ، ليوسف علي يديوي ، الناشر دار ابن كثير.

٩ ـ صلاح الدين الصفدي، خليل بن أيبك بن عبد الله الشافعي، المتوفى سنة (٧٦٤ هـ)

١٠ـ قاضي القضاة علاء الدين، علي بن إسماعيل القوْنَوي الشافعي، المتوفى سنة (٧٢٩ هـ)

١١ ـ المقَّري: محمد بن محمد بن أحمد القرشي التلمساني، جد صاحب «نفح الطيب»، المتوفى سنة (٧٥٩ هـ).

١٢ ـ الغزي: محمد بن محمد الغزي الشافعي، ينتهي نسبه إلى الزبير بن عوام، المتوفى سنة (٨٠٨ هـ).

١٣ ـ الفيروز آبادي: محمد بن يعقوب، أبو الطاهر، صاحب القاموس، المتوفى سنة (٨١٧ هـ).



الفصل الرابع

الإمام ابن تيمية شيخ ابن القيم

لما كانت تلمذة ابن القيم على شيخ الإسلام ابن تيمية ذات طابع خاص متميِّز، كان من المستحسن إفراد هذا الفصل لترجمته ترجمة مختصرة تبين للقارئ الخطوط العريضة في حياة شيخ الإسلام رحمه الله تعالى.

* * *

هو شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن عبد السلام بن عبد الله ابن تيمية الحراني الحنبلي.

ولد بحران سنة إحدى وستين وستمائة، وقدم مع والده وأهله إلى دمشق، وكانوا قد خرجوا من بلاد حران مهاجرين بسبب جور التتار، وقدموا دمشق سنة سبع وستين.

طلبه للعلم:

فسمع الحديث من أئمته في دمشق، وسمع «مسند» أحمد مرات، و«معجم» الطبراني الكبير، والكتب الكبار والأجزاء.

وعني بالحديث، وقرأ بنفسه الكثير، ولازم السماع[1] مدة سنين، ونسخ وانتقى، وتعلَّم الخط والحساب في المكتب، واشتغل بالعلوم، وحفظ القرآن، وأقبل على الفقه، وقرأ أياماً في العربية على ابن عبد القوي[2] ثم فهمها، وأخذ يتأمَّل كتاب سيبويه حتى فهمه، وبرع في النحو وأقبل على التفسير إقبالاً كليّاً حتى حاز فيه قصب السبق، وأحكم أصول الفقه، كل هذا وهو ابن بضع عشرة سنة، فعجب الفضلاء من فرط ذكائه، وسيلان ذهنه، وقوة حافظته، وسرعة إدراكه.

ذلك ما قاله من ترجموا له في نشأته.

أخلاقه:

قالوا: إنه نشأ في تصوُّن تام، وعفاف، وتأله، واقتصاد في الملبس والمأكل، ولم يزل على ذلك خُلقاً صالحاً، برّاً بوالديه، تقياً ورعاً، عابداً ناسكاً، صوّاماً قوّاماً، ذاكراً الله تعالى في كل أمر، وعلى كل حال، رجّاعاً إلى الله تعالى في سائر الأحوال والقضايا، وقّافاً عند حدود الله تعالى وأوامره ونواهيه، آمراً

---

(١) أي: السماعات، وهي مجالس علم الحديث الشريف.

(٢) هو العلامة شمس الدين محمد بن عبد القوي ابن بدرن المرادي الحنبلي (٦٣٠ ـ ٦٩٩هـ).

بالمعروف، ناهياً عن المنكر، «فارغاً من شهوات المأكل والملبس والجماع، لا لذة له في غير نشر العلم وتدريسه، عرض عليه منصب قضاء القضاة ومشيخة الشيوخ فلم يقبل».

وقَبِل وظائف والده في التدريس وله إحدى وعشرون سنة.

وكان والده من كبار الحنابلة وأئمتهم، ودرّس هو بعده، فاشتهر أمره وبَعُد صيته في العالم، وما أتى له ثلاثون سنة، حتى كان من أعظم علماء عصره، بل أعظم عالم في عصره، لا تكاد نفسه تشبع من العلم، ولا تروى من المطالعة، ولا تَمَلُّ من الاشتغال، ولا تكِلُّ من البحث، وقلَّ أن يدخل في باب من أبواب العلوم إلا وفُتح له من ذلك الباب أبواب، واستدرك أشياء في ذلك العلم على حُذّاق أهله.

وكان يحضر المجالس والمحافل في صغره، فيتكلم ويناظر ويفحم الكبار، ويأتي بما يحار منه أعيان البلد. وشرع في الجمع والتأليف وله نحو سبع عشر سنة.

وانتهت إليه الإمامة في العلم، والعمل، والزهد، والورع، والشجاعة، والكرم، والتواضع، والحلم، والأناة، والجلالة، والمهابة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع الصدق، والأمانة، والعفة، والصيانة، وحسن القصد، والإخلاص،

والابتهال إلى الله تعالى، وشدة الخوف منه، ودوام المراقبة له، والتمسك بالأمر، والدعاء إلى الله تعالى، وحسن الأخلاق، ونفع الخلق والإحسان إليهم.

وكان رحمه الله سيفاً مسلولاً على المخالفين، وشجًى في حلوق أهل الأهواء والمبتدعين، وإماماً قائماً ببيان الحق ونصرة الدين، طنت بذكره الأمصار، وضنت بمثله الأعصار.

جهاد الإمام ومحنته:

بدأت محنة شيخ الإسلام لما تمَّت أدواته وشاعت فتاويه في مسائل وجد منها حساده مدخلاً لهم، فناقشوه وكفَّروه وبدَّعوه واعتقله الولاة وغربوه.

وكان منذ سنة تسع وتسعين و(ستمائة) ظهرت شخصيته السياسية في البلاد، وبدأ تعويل الأمة عليه في دفع أعدائها عنها في نوبة غازان[1]، فقام بأعباء الأمر بنفسه، واجتمع بنائبه وجرؤ على المغول[2]، وتوجَّه بعد ذلك بعام إلى الديار المصرية لما اشتد الأمر بالشام من المغول، واستصرخ بأركان الدولة وحضَّهم

---

(١) **غازان**: قائد جيش التتار الذي حاصر دمشق في المرة الأولى سنة (٦٩٩هـ).

(٢) **المغول والتتار**: أمتان من الجنس الأصفر، اكتسحوا العالم الإسلامي؛ فخربوا المدن، وأزالوا معالم الحضارة، ثم هداهم الله ـ بعد ذلك ـ للإسلام فكان منهم حماة له.

على الجهاد، ثم عاد بعد أيام إلى دمشق، وظهر اهتمامه بجهاد التتار وتحريضه الأمراء على ذلك إلى ورود الخبر بانصرافهم، وقيامه القيام المحمود في وقعة (شقحب)[1] سنة اثنتين وسبعمائة واجتماعه بالخليفة والسلطان، وأرباب الحل والعقد، وتحريضهم على الجهاد.

ثم توجهه في آخر سنة أربع وسبعمائة لقتال الكسروانيين[2] واستئصال شأفتهم.

ثم مناظرته للمخالفين في سنة خمس في المجالس التي عقدت له بحضرة نائب السلطنة الأفرم، وظهوره عليهم بالحجة والبيان، ورجوعهم إلى قوله طائعين ومكرهين.

ثم توجهه بعد ذلك في السنة المذكورة إلى الديار المصرية، في صحبة قاضي القضاة الشافعية[3]، وعقدهم له مجلساً حين

---

(١) **شقحب**: عين ماء جنوب دمشق بعد الكسوة على يمين الذاهب إلى حوران، جرت فيها معركة عظيمة بين التتار والمسلمين، أبلى شيخ الإسلام فيها البلاء الحسن، وكانت في أول رمضان.

(٢) **الكسروانيون**: هم سكان جبل كسروان، وقد جرت المعركة معهم في مستهل ذي الحجة سنة أربع وسبعمائة. والمعارك والثورات كانت قبل وبعد ذلك منهم.

(٣) هو القاضي نجم الدين ابن صَصْري، كما في «العقود الدرية»، ص (٢٤٨).

وصوله بحضور القضاة وأكابر الدولة، ثم حبسه في الجب بقلعة الجبل، ومعه أخواه[1] سنة ونصفاً، ثم إخراجه بعد ذلك، وعقدهم له مجلساً ظهر فيه على خصومه، ثم عقدهم له مجلساً سنة سبع لكلامه في طريقة الاتحادية[2]، ثم الأمر بتسفيره إلى الشام على البريد، ثم الأمر برده من مرحلة، وسجنه بحبس القضاة سنة ونصفاً، ثم إخراجه منه وتوجيهه إلى الإسكندرية، وجعله في برج، حبس فيه ثمانية أشهر.

ثم توجهه إلى مصر واجتماعه بالسلطان[3] في مجلس ضم القضاة وأعيان الأمراء، وإكرامه له إكراماً عظيماً ومشاورته له في قتل بعض أعدائه، وامتناع الشيخ عن ذلك.

ثم سكناه القاهرة، ثم توجهه إلى الشام، ثم ملازمته بدمشق لنشر العلوم وتصنيف الكتب وإفتاء الخلق.

---

(١) هما شرف الدين عبد الله، وزين الدين عبد الرحمن.

(٢) أصحاب وحدة الوجود، وهم أنواع، ويوجد منهم في الديانات الثلاث، كما يوجد منهم في ديانات الهند. وهذه العقيدة أشد من كل كفر، فليس عندهم رب وعبيد، ولا خالق ولا مخلوق، وإنما كل الكون يشكل وحدة؛ كل جزء منها عبد من وجه، ورب من وجه آخر.

(٣) هو الملك الناصر محمد بن قلاوون المتوفى (٧٤١هـ). وكان ذلك سنة (٧١١هـ) بعد عودة الناصر للملك وعزل الجاشنكير (المظفر) الذي كان من أتباع نصر المنبجي، وأشد الحكام على ابن تيمية.

إلى أن تكلم بمسألة الحلف بالطلاق، فأشار عليه بعض القضاة بترك الإفتاء بها في سنة ثماني عشرة (وسبعمائة)، فقبل إشارته دفعاً للفتنة، ثم ورد كتاب السلطان بعد أيام بالمنع من الفتوى بها، ثم عاد الشيخ إلى الإفتاء بها وقال: لا يسعني كتمان العلم. وبقي كذلك مدة إلى أن حبسوه بالقلعة خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً، ولم يزل على عادته من الاشتغال والتعليم.

إلى أن ظفروا له بجواب يتعلق بمسألة شد الرحال إلى قبور الأنبياء والصالحين[1]، وكان أجاب به من نحو عشرين سنة، فشنعوا عليه بسبب ذلك، وورد مرسوم السلطان في شعبان من سنة ست وعشرين بجعله في القلعة، فأخليت له قاعة حسنة، وأقام فيها ومعه أخوه يخدمه، فكتب في المسألة التي حبس بسببها

---

(١) وقد أوضح ابن كثير هذه المسألة، فقال: إن جواب ابن تيمية في هذه المسألة ليس فيه منع زيارة قبور الأنبياء والصالحين، وإنما فيه ذكر قولين في شد الرحل والسفر إلى مجرد زيارة القبور.

وزيارة القبور من غير شد رحل إليها مسألة، وشد الرحل لمجرد الزيارة مسألة أخرى.

والشيخ لم يمنع الزيارة الخالية عن شد رحل بل يستحبها، ويندب إليها، وكتبه ومناسكه تشهد بذلك، ولم يتعرض إلى هذه الزيارة في هذا الوجه في الفتيا، ولا قال: إنها معصية، ولا حكى الإجماع على المنع منها، ولا هو جاهل قول الرسول ﷺ: (**زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة**).

مجلدات عديدة، وظهر بعض ما كتبه واشتهر، وآل الأمر إلى أن مُنع من الكتابة والمطالعة، وأخرجوا ما عنده من الكتب، ولم يتركوا له دواة ولا قلماً ولا ورقاً، وكتب عقيب ذلك بفحم. وكان إخراج الكتب من عنده من أعظم النقم، وبقي أشهراً على ذلك، وأقبل على التلاوة والعبادة والتهجد حتى أتاه اليقين.

* * *

هذا مجمل ما قيل في حالة شيخ الإسلام، ومع ما حاول أعداؤه أن ينغصوا عيشه دأب في كل زمن على التأليف، فألف ثلاثمائة مجلد وكلها في الشرع، وفي حل مسائل عويصة من الدين؛ نقرأ فيما وصلنا منها مثالاً من علمه النفيس، وعمله الذي عقمت القرون أن يأتي رجل بما يماثله.

كثرت تآليفه، لأنه كان يؤلف من صدره، حفظ الكتاب والسنة وما دوِّن في شروحهما، وما قاله العلماء في تفسيرهما، وقد ساعدته كثرة محفوظه، وفيض خاطره، وسعة بيانه على تدوين حقائق لم يكتب لعالم مثله في موضوعه، ولو لم يكن له إلا «منهاج السنّة» لكفاه على الأيام فخراً لا يبلى، ففيه مثال من علمه وقوة حجته، ومعرفته بالملل والنحل، وإذا قلنا: إنه لم يؤلَّف نظيره في الرد على المخالفين لأهل السنة، لصدقنا كل منصف من أهل القبلة.

وكتاب «منهاج السنّة» من أصحِّ الشهادات على علو كعبه في معرفة الشرع وما تقلب عليه، وما حاول بعض أهل الأهواء من العبث به، وفيما أورده الموافقون والمخالفون من صحيح الآراء وبهرجها، وكان عنوان مداركه الواسعة بتاريخ الإسلام، وتاريخ الملل والنحل.

ولو ادعينا: أنه لم يأتِ عالم (مثله) يعرف ما طرأ على الدين ومذاهب أهله فيه ساعة ساعة ويوماً يوماً؛ ما قدر أحد على رد دعوانا.

رد على المعتزلة[1]، وعلى الجهمية[2]، وعلى الشيعة، وعلى الفلاسفة، وعلى غيرهم.. فجاء بالعجيب من الآراء التي استخرجها من روح الشريعة واستنبطها ببعد نظره، وشدة بحثه، فما كتب لإمام من الأئمة في عصره وبعد عصره أن يناقضه ويرد أقواله.

---

(١) **المعتزلة**: فرقة من الفرق الإسلامية، وقد سمي أتباعها بالمعتزلة لاعتزال زعيمها واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد حلقة الحسن البصري لما اختلفا معه في حكم مرتكب الكبيرة، وقالا: إنه في منزلة بين منزلتين لا مؤمن ولا كافر مطلقاً.

(٢) **الجهمية**: هم الجبرية، ودُعوا بالجهمية نسبة إلى جهم بن صفوان، وكانوا يقولون: إن الإنسان مجبر لا اختيار له ولا قدرة. وقد مات جهم مقتولاً نحو سنة (١٢٨ هـ).

وما سمع لأحد علماء الدين في عصره صوت مثل صوته، في إحقاق الحق، ونصرة سلطان الإسلام.

كان ابن تيمية في النصف الثاني من عمره سراجاً وهاجاً أطفأ بعلمه وعمله شهرة أرباب المظاهر من القضاة والعلماء، وكان الصدر المقدَّم كلما دخل في موضوع ديني أو سياسي، وعبثاً حاول بعض الشافعية والمالكية أن يسلموه للعامة علَّهم يقتلونه، فما استطاعوا أكثر من حجز حريته أشهراً في سجن، وكان الملوك يحمونه من تعصب خصومه ويعرفون قدره.

وكان الملك الناصر صاحب مصر يرفع من مقام ابن تيمية كثيراً، وأراد أن يقتل من أفتوا بخلعه من العلماء، وحثه على أن يفتيه في قتل بعضهم، فأنكر أن ينال أحداً منهم بسوء، وقال له: إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم، فقال له: إنهم آذوك وأرادوا قتلك مراراً، فقال الشيخ: من آذاني فهو في حل، ومن آذى الله ورسوله، فالله ينتقم منه، أنا لا أنتصر لنفسي، وما زال به حتى حلم عنهم السلطان وصفح.

وكان قاضي المالكية ابن مخلوف يقول: ما رأينا مثل ابن تيمية؛ حرَّضْنا عليه، فلم نقدر عليه، وقدر علينا، فصفح عنا وحاجج عنا.

فعل هذا ابن تيمية وخصومه؛ يقولون: يجب التضييق عليه إن لم يقتل، وإلا فقد ثبت كفره.

ونحن نقول: إن هذا هو الفرق العظيم بين أخلاقه وأخلاق مشاكسيه، هم كانوا ممن يهتمون لدنياهم ومظاهرهم، وهو كان يهتمُّ للأخرى فقط، وشتان بين المطلبين.

كان يهتم لنشر الدين والقضاء على البدع بقلبه ولسانه وقلمه، وهمهم أن يرضى عنهم السلطان فيبقيهم في مناصبهم، ويستميلوا العامة فيقبِّلوا أيديهم.

قال الذهبي: وكان أبيض، أسود الرأس واللحية، قليل الشيب، شعره إلى شحمة أذنيه، كأن عينيه لسانان ناطقان، ربعة من الرجال، بعيد ما بين المنكبين، جهوري الصوت فصيحاً، سريع القراءة، تعتريه حدة لكن يقهرها بالحلم...

وقال: تعتريه حدة في البحث وغضب تزرع له عداوة في النفوس[1].

وفاته في السجن:

قال الحافظ ابن رجب: مكث الشيخ معتقلاً في القلعة من

---

(١) تم تلخيص هذه الترجمة من ترجمة للأستاذ محمد كرد علي؛ طبعها ونشرها المكتب الإسلامي، وعلق عليها وحققها الأستاذ زهير الشاويش.

شعبان سنة ست وعشرين إلى ذي القعدة سنة ثمانٍ وعشرين، ثم مرض بضعة وعشرين يوماً، ولم يعلم أكثر الناس بمرضه، ولم يفجأهم إلا موته.

وكانت وفاته في سحر ليلة الإثنين عشرين ذي القعدة، ذكره مؤذن القلعة على منارة الجامع، وتكلم به الحرس على الأبرجة، فتسامع الناس بذلك، واجتمع الناس حول القلعة؛ حتى أهل الغوطة والمرج.

وغسله جماعة من أكابر الصالحين وأهل العلم كالمزي وغيره.

وأخرج الشيخ إلى جامع دمشق، وصلوا عليه الظهر، وكان يوماً مشهوداً لم يعهد بدمشق مثله.

وصرخ صارخ: هكذا تكون جنائز أئمة السنة، فبكى الناس بكاء كثيراً.

وأخرج من باب البريد واشتد الزحام، وصار النعش على الرؤوس يتقدم تارة ويتأخر أخرى، وخرجت جنازته من باب الفرج، وازدحم الناس على أبواب المدينة جميعاً للخروج، وعظم الأمر بسوق الخيل. . . ودفن وقت العصر بمقابر الصوفية.

وحزر من حضر جنازته بمائتي ألف، ومن النساء بخمسة عشر ألفاً، رحمه الله ورضي عنه[1].

❑ ❑ ❑

---

(١) شذرات الذهب (٦/ ٨٥ ـ ٨٦).

الفصل الخامس

ابن القيم وشيخه ابن تيمية

لماذا تأخر اتصال ابن القيم بشيخه؟:

اتفقت كلمة كتب التراجم على أن اتصال ابن القيم بشيخ الإسلام ابن تيمية كانت سنة (٧١٢ هـ)؛ وهي السنة التي عاد فيها شيخ الإسلام من مصر إلى دمشق واستقر فيها إلى أن مات سنة (٧٢٨ هـ).

أي أن ملازمته له دامت لمدة ستة عشر عاماً.

وهذا يعني ـ أيضاً ـ أن عمر ابن القيم يوم اتصل بشيخه كان (٢٢) عاماً، أي في سن من يتخرج من الجامعة في أيامنا هذه.

ونتساءل: لماذا تأخر هذا الاتصال؟.

ما من شك بأن ابن القيم عرف «شيخ الإسلام ابن تيمية» من صباه من خلال أحداث حصار دمشق من قِبَلِ التتار، فقد كان الشيخ هو الرجل الفاعل على الساحة يومئذ، وأخبار شجاعته في

قتاله ضد التتار تناقلها الناس، والإنسان في صباه تعجبه أخبار البطولة. . وابن القيم واحد ممن عاش هذه الأحداث، وارتسمت من خلالها صورة الشيخ في مخيلته. .

ويغلب على الظن أن سبب التأخر هو أن الشيخ ابن تيمية مكث في مصر سبع سنوات قبل أن يعود ليستقر في دمشق، فقد كان سن ابن القيم (١٥) عاماً قبل أن يسافر الشيخ، وفي هذه السن لم يكن ـ فيما يبدو ـ مؤهَّلاً للقاء الشيخ، فقد كان في بدايات التحصيل.

إعجاب ابن القيم بشيخه:

وما إن اتصل ابن القيم بشيخ الإسلام، حتى رأى نمطأ جديداً من التفكير، وأسلوباً لم يعهده في فهم النصوص من قبل، ومرجعية محصورة في الكتاب والسنة، وقد كان من قبل يعيش ضمن إطار المذهب ومرجعيته.

وهكذا خرج من الأطر الضيقة إلى فضاء الإسلام وسعته. . وهذا ما جعله يستمسك بالشيخ، ويقصر ملازمته عليه.

ولما رأى الشيخ من تلميذه الإقبال الصادق على العلم، والذهن المتفتح، والعقل المستنير؛ أولاه من عنايته وألوان توجيهه ونصحه. . ما جعل التلميذ يلهج بذكر أستاذه طول حياته.

والحقيقة: أن كلاًّ منهما رأى في الآخر ضالته المنشودة.

فقد رأى ابن القيم في شيخه العالمَ الملمَّ بعلوم وقته، فهو العالم المفسر، والمحدث، والفقيه.. والنحوي والفرضي، والعالم بالمذاهب والأديان.. إنه مجموعة من العلماء في شخص واحد.. فلم يَعُدْ بحاجة إلى غيره.

ورأى فيه العابد الصادق، والمجاهد الشجاع، والآمر بالمعروف لا يخاف في الله لومة لائم، والناصح الحريص على استقامة المسلمين والتزامهم بدينهم، وتحرير عقولهم من الأوهام والانحرافات..

إنه اللقاء بين العلم والعمل على أعلى مستوى يتم في شخص شيخ الإسلام، فكيف لا يكون إعجاب ابن القيم به شديداً وفيه هذه الصفات وغيرها من صفات الخير كثير.

ورأى شيخ الإسلام في تلميذه: الطالب الحريص على العلم، المتمتع بالذكاء الكبير، والعقل المستنير، المستوعب لما يلقى إليه، القادر على التحرر من ربقة التقليد.. إنه نموذج من الطلاب الذين يقل وجودهم.. ولذا كانت عناية الشيخ بتلميذه كبيرة.

وهذا ما جعل هذا اللقاء بين الشيخين يستمر (١٦) عاماً، وحتى عندما سجن الشيخ في السنتين الأخيرتين من حياته بسبب فتوى قديمة له، سجن معه تلميذه لا لشيء سوى أنه تلميذ

للشيخ . . ولم يخرج من السجن إلا بعد وفاة شيخه فيه، فأطلق سراحه.

هل كان ابن القيم نسخة من شيخه؟:

ما من شك في أن الإمام ابن القيم كان معجباً بشيخه إلى حد بعيد، وأن تأثره به كان كبيراً، في كل ما كان يذهب إليه، وأكد هذا استمراره على هذا الخط حتى بعد وفاة شيخه، فكانت حياته بعده امتداداً لحياة شيخه ولمنهجه . .

وفي وصف هذه الحال جاءت كلمات بعض المترجمين له، من معاصريه وممن أتى بعدهم.

قال الحافظ ابن حجر: «وكان ـ ابن القيم ـ جريء الجنان، واسع العلم، عارفاً بالخلاف ومذاهب السلف، وغلب عليه حب ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله، بل ينتصر له في جميع ذلك، وهو الذي هذَّب كتبه ونشر علمه»[1].

وهذه الكلمة وأمثالها لا تعني بحال من الأحوال أن ابن القيم كان نسخة من شيخه، وإنما هي بيان لاحتفال ابن القيم بالعلم الذي أخذه عن شيخه، وبالنظر إلى أول الكلمة يتبين ذلك، فقد قال ابن حجر: . . «كان جريء الجنان واسع العلم، عارفاً

---

(١) الدرر الكامنة (٤/ ٢١).

بالخلاف ومذاهب السلف»، وأضاف إلى ذلك عنايته بأقوال شيخه.

وأما قوله: «حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله»؛ فهذا لا يعني الطعن على ابن القيم، لأنه تلقى هذه الأقوال عن شيخه وعرف أدلتها، وسأل عن الإشكالات التي كانت تقع له.. فهو لم يأخذها عنه أخذ المقلد، وإنما أَخْذَ العالم الذي يسأل عن الدليل ويتعرف على الحكمة.. فانتصاره لأقوال شيخه إنما كان انتصاراً للدليل والحجة.. وينبغي أن نذكر هنا: أن ستة عشر عاماً من الصحبة ليس بالوقت القليل، وإنما هو الوقت الطويل الذي أتاح للتلميذ التعرف على ما عند الشيخ.

وفي رأيي أن كلمة ابن حجر لا تختلف عن كلمة ابن كثير عندما قال: «ولما عاد الشيخ تقي الدين ابن تيمية من الديار المصرية في سنة ثنتي عشرة وسبعمائة لازمه إلى أن مات، فأخذ عنه علماً جمّاً، مع ما سلف له من الاشتغال، فصار فريداً في بابه فنون كثيرة»[١].

فابن القيم ـ كما يقول ابن كثير ـ أخذ علماً كثيراً عن ابن تيمية

---

(١) البداية والنهاية (١٤/ ٢٣٤).

أضافه إلى ما عنده من علم سابق، ولم يكن علم ابن تيمية وحده هو الذي تفرَّد بصياغة ابن القيم.

ولم يقل أحد من العلماء والمترجمين إن ابن القيم نسخة عن شيخه.

قال الدكتور الشيخ بكر أبو زيد: «سمعتها ـ أي جملة: إنه نسخة عن شيخه ـ فما زلت أبحث وأتتبع أصل هذه المقالة ومنشأها حتى تحصَّل عندي أنها من سخائم صدر الكوثري التي ملأ بها كتبه، وأوسع ابن القيم فيها سبّاً ولعناً وتكفيراً»[1].

وقد ردَّ الشيخ بكر أبو زيد ردّاً مطولاً، وفنَّد هذه المقالة من وجوه، ومن وجملة ما قال:

«إنا نجد عند أحدهما ـ أي ابن القيم وابن تيمية ـ مباحث بل مؤلفات في أبواب من العلم لا تكون عند الآخر.

والأدلة على انفراد ابن القيم رحمه الله تعالى بمباحث ومؤلفات لم نرَ في معناها لشيخ الإسلام ابن تيمية كثيرة؛ منها ما يلي:

١ ـ كتاب «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة»:

---

(١) ابن قيم الجوزية، للدكتور بكر عبد الله أبو زيد، ص (١٣٩)، نشرته دار العاصمة ـ الرياض.

فإن موضوع هذا الكتاب ومباحثه الجليلة ـ إذا استثنينا منه بعض المسائل كمسألة التحسين والتقبيح العقليين، ومسألة الفأل ـ لا نجد مباحثه بالجملة لدى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى.

٢ ـ كتابه النافع المعطار «زاد المعاد في هدي خير العباد» في التاريخ والسيرة النبوية وفقهها، وترتيب هدي النبي ﷺ في أعماله وعباداته.. ونحو ذلك، فليوجِد لنا المعترضون كتاباً لشيخ الإسلام بهذا المعنى على هذا النسق.

٣ ـ كتابه «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح»؛ فإن مباحثه بالجملة غير موجودة لدى شيخ الإسلام ابن تيمية، وفيه من فنون الصناعة الحديثية الطيب الكثير.

٤ ـ موسوعة معارفه الفذة «بدائع الفوائد»؛ فإنه فيه من غرائب العلم في اللغة والإعراب والفقه والتفسير ونحو ذلك ما يعزُّ وجوده لدى شيخ الإسلام رحمه الله تعالى».

ثم ضرب الشيخ أمثلة من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية التي لا يوجد مثلها لدى الإمام ابن القيم؛ مثل كتاب «منهاج السنة النبوية» وغيره[١].

---

(١) المرجع السابق، ص (١٤٧).

ما من شك في أن لابن القيم شخصيته المستقلَّة، وتأثره بشيخه لا يؤثر في استقلالها، وتراث ابن القيم شاهد على ذلك.

توبة ابن القيم بعد اتصاله بشيخه!:

جاء هذا العنوان في كتاب الشيخ بكر أبو زيد، وجاء تحت هذا العنوان قوله: «ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى في «النونية»[1] بعض ما يقوله الأشاعرة وغيرهم في الصفات من التأويلات، وبعض ما في كتب النفاة من الطامات، وبيَّنَ ضررهم على الدين ومناهضتهم لنصوص الكتاب والسنة، ثم عقد فصلاً أعلن فيه أنه قد وقع في بعض تلك المهالك، حتى أتاح له الإلٰه مَنْ أزال عنه تلك الأوهام، وأخذ بيده إلى طريق الحق والسلامة؛ وهو شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى.

وفي إعلانه لتوبته على يديه يقول:

يـــا قـــوم واللهِ العظيـــمِ نصيحـــة

مـــنْ مشفـــقٍ وأخٍ لكـــمْ معـــوانِ

---

(١) هي منظومة لابن القيم مطولة بلغت أبياتها قرابة ستة آلاف بيت؛ سماها «الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية»، وسميت النونية لأن قافيتها حرف النون.

جـرَّبْـت هـذا كلَّـه ووقعـتُ فـي
تلـك الشبـاك وكنـتُ ذا طيـرانِ
حتَّـى أتـاحَ لِـيَ الإلٰـه بفضلِـهِ
مـن ليـس تجـزيـهِ يـدي ولسـانـي
فـالله يجـزيـه الـذي هـو أهلُـه
مـن جنـةِ المـأوى مـع الـرِّضـوانِ
أخـذتْ يـداه يـدي وسـار فلـم يـرم
حتـى أرانـي مطلـعَ الإيمـانِ
. . . إلخ»[1].

أقول: ولم أرَ من المترجمين لابن القيم من ذكر هذا الموضوع أو أشار إليه، بحسب اطلاعي المتواضع.

والتوبة ـ بمعناها الخاص ـ تكون بعد الذنب المتعارف عليه أنه ذنب، ووضعها عنواناً لهذا الأمر لا يتناسب مع مكانة ابن القيم ـ مع تقديري الكبير للشيخ بكر ـ وإنَّ كل إنسان مهما كان شأنه عرضة للوقوع في الذنب.

وليس في هذه الأبيات وكذلك الأبيات بعدها ذكر للتوبة.

---

(١) ابن قيم الجوزية، للدكتور بكر أبو زيد.

وإنما القضية هنا تكون في إطار تغير الاجتهاد أو تصحيح المسار، ومثل هذا لا يعدُّ ذنباً، والانتقال إليه لا يسمى توبة.

وقد رأيت في ترجمة ابن القيم من موقع جامع شيخ الإسلام ابن تيمية «على الإنترنت» النص التالي:

«وبدأت هذه الملازمة بتوبة ابن القيم على يدي شيخه ابن تيمية، كما أشار إلى ذلك بقوله..» وذكر الأبيات.

وهي خطوة متقدمة جدّاً عمّا ذكره «الشيخ بكر»؛ حيث تجعلنا نتصور ابن القيم وقد جلس بين يدي شيخه في بدء تعرفه عليه ليتوب بين يديه.. كما كان يفعل أصحاب المعاصي والكبائر الذين تابوا بين يدي الإمام ابن الجوزي.

والأبيات في الحقيقة هي تسجيل لفضل شيخ الإسلام على ابن القيم في إيضاح بعض مسائل العقيدة، والدعوة إلى التزام الكتاب والسنة، كما في الأبيات التي بعدها. وهي بعيدة كل البعد عما أريد الاستشهاد بها من أجله.

❑ ❑ ❑

الفصل السادس

ابن القيم بعد وفاة شيخه

توفي الإمام ابن تيمية سنة (٧٢٨ هـ)، وتوفي الإمام ابن القيم سنة (٧٥١ هـ)؛ أي أنه عاش بعد شيخه (٢٣) عاماً.

وهي مدة طويلة لا نجد في كتب التراجم ذكراً لها، إذا استثنينا بعض الجمل التي تشير إلى بعض ما نال ابن القيم بسبب فتاويه.

ومن ذلك ما قاله ابن كثير: «وقد كان متصدِّياً للإفتاء بمسألة الطلاق التي اختارها تقي الدين ابن تيمية، وجرت بسببها فصول يطول بسطها مع قاضي القضاة تقي الدين السبكي»[١].

وقال ابن حجر: «وامتحن مرة أخرى بسبب فتاوى ابن تيمية، وكان ينال من علماء عصره وينالون منه، قال الذهبي في «المختصر»: حبس مرة لإنكاره شد الرحل لزيارة قبر الخليل»[٢].

---

(١) البداية والنهاية (١٤/ ٢٣٤).

(٢) الدرر الكامنة (٤/ ٢٢).

وقال أيضاً: «وجرت له محن مع القضاة، منها في ربيع الأول؛ طلبه السبكي بسبب فتاواه بجواز المسابقة بغير محلل..»[1].

وقال ابن كثير: «وفي يوم الثلاثاء سادس عشر جمادى الآخرة، حصل الصلح بين قاضي القضاة تقي الدين السبكي وبين الشيخ شمس الدين ابن قيم الجوزية على يد الأمير سيف الدين بن فضل في بستان قاضي القضاة، وكان قد نقم عليه إكثاره من الفتيا بمسألة الطلاق»[2].

* * *

إنها كلمات قليلة، ولكنها تلقي الضوء على عقدين من الزمن من حياة الإمام ابن القيم.

فإفتاؤه بمسألة الطلاق.. جرت بسببها فصول يطول بسطها.. كما قال ابن كثير.

وكان ينال من علماء عصره وينالون منه.. كما قال ابن حجر

وحبس لإنكاره شد الرحل لزيارة قبر الخليل.. كما قال الذهبي.

---

(١) الدرر الكامنة (٤/ ٢٣).
(٢) البداية والنهاية (١٤/ ٢٤٢).

وطلب إلى مجلس قاضي القضاة بسبب فتاواه بشأن المسابقة بغير محلل.

وجرت مصالحة بينه وبين قاضي القضاة السبكي بشأن فتياه بمسألة الطلاق..

إنها مؤشرات على فاعلية ابن القيم في المجتمع الذي عاش فيه، فقد تدرب على قول الحق والعمل به غير مبالٍ بالعواقب التي تصيبه في سبيل ذلك.

وهذه المؤشرات تعيد إلى ذاكرتنا حياة شيخه الفاعلة.. والتي ناله بسببها ما ناله حتى قضى آخر حياته في السجن.

أجل لقد كان ابن القيم بهذا المعنى امتداداً لحياة شيخه، وكأن الصورة نفسها تتكرر مرة أخرى.. فها هو يدخل السجن أكثر من مرة بعد وفاة شيخه، ولأسباب شبيهة بالأسباب التي عانى منها شيخه.

وإذا كانت فتواه في عدم شد الرحل لزيارة قبر الخليل.. تثير كثيراً من الذين يُعْنَوْنَ بهذه القضية، وفتاواه في أمر الطلاق تثير علماء السلطة باعتبار هذه القضية أمراً مشتركاً بين الفتوى والقضاء.. فنتساءل عن فتواه في أمر المسابقة بغير محلل؛ وهي

اجتهاد في حكم فرعي فقهي.. ما الذي يدعو إلى استدعاء ابن القيم من أجله؟!..

والحقيقة: أن بعض العلماء الذين كانوا وراء إيذاء الشيخ ابن تيمية، استمروا على طريقتهم في النكاية لتلميذه.. أو ربما تولى هذه القضية تلاميذهم الذين تربوا على أيديهم، فليست القضية هنا عداءً لشخص، وإنما عداء لخطة ومنهج..

* * *

والذي يبدو أن ابن القيم عانى كثيراً من هؤلاء الناس الذين لم يكونوا على استعداد لتحكيم العقل، والانصياع للحجة والدليل، وبعض كتاباته تشير إلى ذلك..

ففي آخر مقدمته لكتابه «شفاء العليل» يقول:

«فيا أيها المتأمل له، الواقف عليه، لك غنمه، وعلى مؤلفه غرمه، ولك فائدته، وعليه عائدته، فلا تعجل بإنكار ما لم يتقدم لك أسباب معرفته، **ولا يحملنك شنآن مؤلفه وأصحابه على أن تحرم ما فيه من الفوائد** التي لعلك لا تظفر بها في كتاب، ولعل أكثر من تعظمه ماتوا بحسرتها ولم يصلوا إلى معرفتها».

ونجد قريباً من هذا، بل ما هو أوضح منه في ثنايا كتابه «مفتاح دار السعادة»؛ حيث يقول متحدِّثاً عن مكانة ما يقدمه في هذا الكتاب:

«فهذا مضمون هذه التحفة، **ولا بد لكل نعمة من حاسد، ولكل حق من جاحد ومعاند**.

هذا وإن ما أودع من المعاني والنفائس رهن عند متأمِّله ومطالعه، له غنمه، وعلى مؤلفه غرمه، وله ثمرته ومنفعته، ولصاحبه كدره ومشقته **مع تعرضه لمطاعن الطاعنين ولاعتراض المناقشين**.

وهذه بضاعته المزجاة، وعقله المكدود؛ يعرض على عقول العالَمين، وإلقاؤه نفسَه وعرضه **بين مخالب الحاسدين، وأنياب البغاة المعتدين**.. وها هو قد استُهدِفَ لسهام الراشقين..

اللهم فعياذاً ممن قَصُرَ في العلم والدين باعه، وطالت في الجهل وأذى عبادك ذراعه، فهو لجهله يرى الإحسان إساءة، والسنَّة بدعة، والعرف نكراً، ولظلمه يجزي بالحسنة سيئة كاملة، وبالسيئة الواحدة عشراً، قد اتخذ بطر الحق وغمط الناس سلماً إلى ما يحبه من الباطل ويرضاه، ولا يعرف من المعروف ولا ينكر من المنكر إلا ما وافق إرادته أو حالف هواه.

يستطيل على أولياء الرسول وحزبه بأصغريه، ويجالس أهل الغي والجهالة ويزاحمهم بركبتيه..

وعياذاً بالله من عدو في صورة ناصح، يجعل عداوته وأذاه

حذراً وإشفاقاً، وتنفيره وتخذيله إسعافاً وإرفاقاً. وإذا كانت العين لا تكاد إلا على هؤلاء تفتح، والميزان بهم يخف ولا يرجح، فما أحرى اللبيب بأن لا يعيرهم من قلبه جزءاً من الالتفات، ويسافر في طريق مقصده بينهم سفره إلى الأحياء بين الأموات.

اللهم فلك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان، وبك المستغاث، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك وأنت حسبنا ونعم الوكيل»[1].

وفي هذين النصين ومن خلال كلماتهما يتبين لنا حجم المعاناة التي كان يعيشها الإمام ابن القيم بين خصومه، وحجم ما في صدورهم من حسد وغل وعداوة.

* * *

إن ما سبق يوضح لنا أن الإمام ابن القيم كان بعد وفاة شيخه في جهاد دائم، فهو حامل منهجه بعده، وهو المدافع عن أفكاره التي أضحت أفكاره التي خالطت لحمه ودمه.

وهذا ما جعل الذين وقفوا في مقابل شيخه يقفون منه الموقف ذاته. وكان عليه أن يتحمَّل ذلك كما فعل شيخه من قبل.

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢١٦ ـ ٢١٨)، الناشر دار ابن عفان ـ الخبر.

على أن كل هذه المعوقات لم تكن حاجزاً بينه وبين السعي لما يريد من إحقاق الحق وبيانه من خلال ما سطره من مؤلفات ؛ أثرت المكتبة الإسلامية بما أضافته من مصنفات جديدة فريدة في بابها ، حملت في ثناياها ما تبناه الإمام من اعتقاد وفكر وفقه ، معتمداً على الحجة والدليل ، مع بيان الحكمة والتعليل .

هذا إلى جانب عمله في التدريس والتعليم .

إنها حياة مليئة أيامها بالخير ، ويكفي أن نذكر أن ابن القيم قد عاش ستين سنة ، ثم نقارن هذا الزمن بذلك الانتاج الكبير من التأليف والتصنيف .

رحمه الله رحمة واسعة ، فقد ترك للمسلمين تراثاً حافلاً بالعلم والهداية ، مرشداً إلى طريق إياك نعبد وإياك نستعين .



الفصل السابع

عمل ابن القيم في التدريس وغيره

نشأ ابن القيم في أحضان العلم، متردِّداً بين حلقاته، فكان عليه أن يقبل من الأعمال ما يناسب مع ما نذر نفسه له. .

وكتب التراجم تذكر من أعماله: التدريس والفتوى والإمامة والتأليف.

قال ابن كثير في بدء ترجمته له: «محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي، إمام الجوزية وابن قيّمها»[1].

وهذا يدلُّ على أن إمامة جامع مدرسة الجوزية كانت العمل الأول الذي أسند إليه.

وقال ابن كثير أيضاً في حوادث سنة (٧٣٦ هـ): «وفي سلخ رجب أقيمت الجمعة بالجامع الذي أنشأه نجم الدين بن خيلخان تجاه باب كيسان من القبلة، وخطب فيه الشيخ الإمام العلامة شمس الدين ابن قيم الجوزية»[2].

---

(١) البداية والنهاية (١٤/ ٢٣٤).

(٢) البداية والنهاية (١٤/ ١٧٤).

أما التدريس والتعليم فلم يكن في الأصل وظيفة تسند إلى العالم، وإنما كان أمراً لازماً لكل عالم أن يبذل علمه للناس، فالعلماء ورثة الأنبياء، ولذا فالعالم يقوم بذلك ابتغاء وجه الله تعالى . .

ولا شك بأن ابن القيم قام بهذا الواجب كما قام به شيخه من قبل، وكما هو شأن العلماء قال ابن رجب: «وأخذ العلم عنه خلق كثير من حياة شيخه وإلى أن مات، وكان الفضلاء يعظمونه ويتتلمذون عليه».

ونقل عن الذهبي قوله: «وتصدى للأشغال وإقراء العلم ونشره».

وأما التزامه بالتدريس في المدارس، فإن أكثر الذين ترجموا له قالوا: إنه درس بالمدرسة الصدرية.

وبالجملة: فإن أعماله كانت مرتبطة بالعلم تلقياً وعطاءً، ومناظرة وفتوى، وغير ذلك مما هو من وظيفة العالم ومهمته.



الفصل الثامن

وفاة ابن القيم رحمه الله

تتفق الروايات التي ترجمت للإمام ابن القيم على أن وفاته كانت ليلة الخميس في الثالث عشر من رجب، وقت أذان العشاء، سنة إحدى وخمسين وسبعمائة من الهجرة[1].

وصلِّي عليه من الغد عقب صلاة الظهر بجامع دمشق الكبير ـ الأموي ـ ثم بجامع الجراح، وقد ازدحم الناس على تشييع جنازته.

قال ابن كثير: وقد كانت جنازته حافلة ـ رحمه الله تعالى ـ شهدها القضاة والأعيان والصالحون، من الخاصة والعامة، وتزاحم الناس على نعشه.

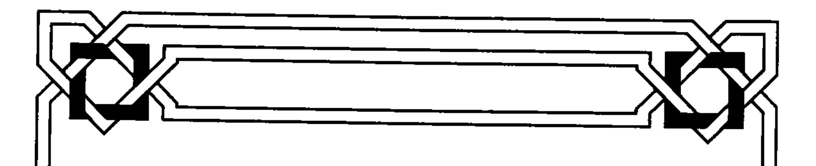
ودفن بمقبرة الباب الصغير عند والديه رحمهما الله تعالى[2].

❑ ❑ ❑

---

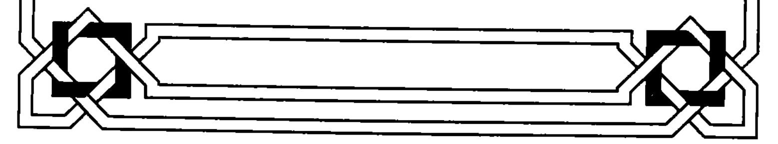
(١) البداية والنهاية (١٤/ ٢٣٤).

(٢) المرجع السابق نفسه.



الباب الثاني

شخصية الإمام ابن القيم





الفصل الأول

أخلاقه وسجاياه

إن البيئة التي ينشأ فيها الإنسان يكون لها النصيب الأوفى في بناء شخصيته، ولقد نشأ ابن القيم في بيت علم وصلاح وتقوى، فقد كانت أسرته مثالاً لمكارم الأخلاق، وكان المكان الذي يتردد إليه منذ صغره هو المدرسة الجوزية؛ حيث كان عمل أبيه، وحيث حلقات العلم، وحلقات السلوك الفاضل، فقد كانت الأخلاق يومئذ تتلقى عمليّاً مع تلقي العلم، فالشيخ يرشد طالبه بسلوكه أولاً ، وبأقواله ثانياً؛ إلى فضائل الأخلاق ، وفي الوقت نفسه يملي عليه العلم.

وفي هذا الجو الذي كان يغمر دمشق كلها بمدارسها الكثيرة، وحلقات العلم التي تملأ المساجد نشأ ابن القيم. . فكان له أوفى نصيب من الخلق الفاضل، كما كان له أوفى نصيب من العلم، فهما صنوان ـ الخلق والعلم ـ لا يصلح أحدهما وحده دون الآخر.

وصف أخلاقه:

لعل أوفى نصٍّ في بيان أخلاقه هو ما سطره الإمام ابن كثير في ترجمته؛ حيث قال:

«وكان حسن القراءة والخلق، كثير التودد، لا يحسد أحداً، ولا يؤذيه، ولا يستعيبه، ولا يحقد على أحد.. وبالجملة: كان قليل النظير في مجموعه وأموره وأحواله، والغالب عليه الخير والأخلاق الصالحة، سامحه الله ورحمه»[1].

رحم الله ابن كثير فقد كان بليغاً في قوله، حيث جمع في هذه الكلمات القليلة كل الأخلاق الفاضلة. ولعل الذين ترجموا للإمام استغنوا بما ذكره ابن كثير؛ فلم يتعرضوا لذكر هذا الجانب من شخصية ابن القيم، أو لعلها كانت من الشهرة والوضوح بحيث لا تحتاج إلى تسجيل.

الجرأة والإعجاب بالرأي:

ونقل الشوكاني عن الذهبي قوله: «ثم تصدر للاشتغال، ونشر العلم، ولكنه معجب برأيه، جريء على الأمور».

ويعلق الشوكاني على هذا القول، فيقول:

---

(١) البداية والنهاية (١٤/ ٢٣٤).

«قلت: بل كان متقيِّداً بالأدلة الصحيحة، معجباً بالعمل بها، غير معول على الرأي، صادعاً بالحق، لا يحابي فيه أحداً، ونعمت الجرأة»[1].

أجل لقد كان ابن القيم كذلك؛ لأنه يملك الدليل على ما ذهب إليه، وهذا الذي يفسر جرأته، فالدليل هو السلاح الفعَّال في ميدان العلم، والدليل هنا هو الكتاب والسنة.. فإذا كان ابن القيم يملك هذا الدليل في مواجهة خصمه الذي دليله قال فلان وقال فلان.. فكيف لا يكون جريئاً؟! وكيف لا يكون معجباً بما ذهب إليه؟!.

وقد جاء بعض هذا الوصف عند ابن حجر في «الدرر الكامنة»؛ إذ قال: «وكان جريء الجنان».

والجرأة في الحق من الأخلاق الفاضلة، بل هي نمط من الجهاد الذي أمر به المسلمون.

التواضع:

التواضع صفة العلماء العاملين، وبخاصة أولئك الذين اتسعت دائرة معارفهم. إذ كلما اتسعت دائرة علم الإنسان، كلما كبر علمه

---

(١) البدر الطالع (٢/ ١٤٣).

بعظم جهله[1]، وهذا ما يدعوهم إلى خفض الجناح والخشية لله تعالى.

وابن القيم عالم متواضع، يدل على ذلك كلماته في مقدمات كثير من كتبه، أو في ختام هذه الكتب.

وقد ذكر الصفدي في آخر ترجمته أبياتاً له، وقال: «أنشدني من لفظه لنفسه» وذكر تلك الأبيات[2]، وقد ذكرها أيضاً ابن حجر في ترجمته له، وهي تدل على التواضع الجم، وفيها يقول:

بنـــي أبـــي بكـــر كثيـــر ذنـــوبـــه
فليس على من نال من عرضه إثم

بنـــي أبـــي بكـــر جهـــول بنفســـه
جهـــول بـــأمـــر الله أنـــى لـــه العلـــم

بنـــي أبـــي بكـــر غـــدا متصـــدِّراً
يعلّـــم علمـــاً وهـــو ليـــس لـــه علـــم

بنـــي أبـــي بكـــر غـــدا متمنِّيـــاً
وصـــال المعـــالـــي والـــذنـــوب لـــه هـــمّ

---

(١) انظر في بيان ذلك: «التربية الجمالية في الإسلام»، ص (١٣٨)، للمؤلف، نشره المكتب الإسلامي.

(٢) الوافي بالوفيات (٢/ ١٩٦).

بنـــي أبـــي بكـــر يـــروم تـــرقيـــاً
إلــى جنــة المــأوى وليــس لــه عــزم
بني أبـي بكـر يـرى الغـرم فـي الـذي
يــزول ويفنــى والــذي تــركــه الغنــم
بنــي أبــي بكــر لقــد خــاب سعيــه
إذا لم يكن في الصالحات له سهم
بنــي أبــي بكــر كمــا قــال ربــه
هلــوع كنــود وصفــه الجهــل والظلــم
بنــي أبــي بكــر وأمثــالــه غــدوا
بفتــواهــم هــذي الخليقــة تــأتــمُّ
وليس لهم في العلم باع ولا التقى
ولا الزهد والدنيا لديهم هي الهم
فــوالله لــو أن الصحــابــة شــاهــدوا
أفـاضلهـم قـالـوا هـم الصـم والبكـم

وهل التواضع إلا هذا؟!.

وهذا التواضع لا يتناقض أو يتعارض مع الجرأة التي سبق ذكرها، فالجرأة موقف اقتضته مناسبة، بينما التواضع لا يكون تواضعاً إلا إذا كان سلوكاً دائماً قائماً في نفس الإنسان وتربيته.

البراءة من التعصُّب:

عندما التزم ابن القيم أن يكون مع الدليل حيث كان، والتزم أن يكون المرجع في هذا الدليل هو الكتاب والسنة، كان عليه أن ينبذ التعصب للمذهب أو الرأي.. وهو ما صرح بالتزامه عندما قال في آخر مقدمة تعليقه على سنن أبي داود:

«فأنا أبرأ إلى الله من التعصُّب والحمية، وجعل سنة رسوله ﷺ تابعة لآراء الرجال، منزلة عليها، مسوقة إليها، كما أبرأ إليه من الخطأ والزور والسهو...».

وبمثل هذا يكون الإخلاص، وتتخلَّص النفوس من شهواتها، ويصبح العالم وارثاً نبويّاً، فالعلماء ورثة الأنبياء بهذا المعنى.

رحم الله ابن القيم فقد كان نموذجاً للعلماء العاملين.

هل كان ابن القيم معجباً بنفسه؟:

هذا السؤال تطرحه تعبيرات كثيرة يسوقها ابن القيم في نهاية بعض المسائل أو في خاتمة كتاب.. من أمثال قوله: «وهذا.. لا تظفر به مجموعاً في كتاب واحد غير هذا البتة»[1]، وقوله:

---

(١) كتاب الروح، ص (٦)، طبعة المكتب الإسلامي.

«لعل المجتهد في الطلب لا يظفر به فيما سواه من الكتب»[1]، وقوله: «وبسطت الكلام على مواضع جليلة، لعل الناظر المجتهد لا يجدها في كتاب سواه»[2].

وقد تكرر هذا كثيراً جدّاً حتى بات ذكره ملفتاً للنظر.

فهل يدل هذا على غير الإعجاب بالنفس، وظهور الـ «أنا» لابن القيم في هذا الرداء الجميل؟.

والجواب: قد يكون هذا صحيحاً لو لم يكن لدينا من سيرته وسلوكه ما ينفي ذلك.

فقد رأينا في وصف أخلاقه ما يتنافى تماماً مع هذا المسلك، ورأينا في عبادته وخشوعه لله تعالى ما يضاد ذلك.

وإنما الدافع إلى قوله مثل هذه الكلمات: أن ابن القيم عالم موسوعي ـ كما سوف نتحدث عن ذلك ـ فهو حين يحقق في مسألة يستوفي كل ما يتعلق بها، بحثاً وجمعاً للروايات والأقوال، وهذا يكلفه الجهد والوقت.. وهو لو وجده مقرراً عند غيره لم يتعب نفسه به.. ولهذا ـ ومن باب النصيحة ـ فإنه يلفت نظر القارئ إلى قيمة هذا «البحث» تبعاً لما بذل فيه من وقت وجهد،

---

(١) حادي الأرواح، ص(٢٢).

(٢) مقدمة تهذيب سنن أبي داود.

حتى تكون قراءته له بإمعان. . ويسعَدَ بما قدم له ابن القيم من جهد. .

فليست القضية من باب الإعجاب بالنفس، وإنما من باب بيان الواقع، ونصيحة المسلمين. . فالثناء هنا لبيان قيمة البحث. . حتى يتمسَّك به القارئ ويقدره؛ وهو ما بينه جليّاً بعد تفسيره سورة «الكافرون» بقوله:

«هذا ما فتح الله به من هذه الكلمات. . وألهمه بفضله وكرمه، والله يعلم أني لو وجدتها في كتاب لأضفتها إلى قائلها، ولبالغت في استحسانها. . »[1].

فانظر إلى قوله: «لأضفتها إلى قائلها، ولبالغت في استحسانها». .

أما إضافتها إلى قائلها فهو من الأمانة العلمية التي عرفت عن العلماء. .

وأما مبالغته في استحسانها، فإنما ذلك ليلفت النظر إلى موضوع قيِّم قد لا يعرف الواقف عليه قيمته. . وذلك من باب النصح والإرشاد.

فعندما يمدح ابن القيم العمل وينسبه إلى صاحبه ويبالغ في

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٤١).

استحسانه.. فهل يفعل ذلك إعجاباً بنفسه؟ وكيف يكون إعجاباً بنفسه والعمل الممدوح ليس له؟!.

وإذاً، فالأمر لدى ابن القيم يسير على وتيرة واحدة في هذا الصدد؛ سواء كان العمل له أو لغيره؛ وما ذلك إلا تقديراً لكل عمل علمي، ونصيحة لمن قد لا يعرف قيمته، حتى يقدره حق قدره.

فكأنه يقول للقارئ ـ عند تلك البحوث المتميزة ـ: انتبه هذا جوهر ولا تظنه حجراً.. وليس في هذا عجب، وإنما إرشاد ودلالة على الخير.

ثم إن المتتبع لهذه الكلمات يجدها صادقة، يؤكدها واقع البحث الذي قرنت به، مما يؤكد ما سبق قوله.



الفصل الثاني

عبادته

أما عبادة ابن القيم فنترك الكلام عنها إلى تلاميذه ومعاصريه، ينقلون لنا مشاهداتهم التي رأوها:

قال صاحبه الإمام ابن كثير:

«ولا أعرف في هذا العالم ـ في زماننا ـ أكثر عبادة منه، وكانت له طريقة في الصلاة يطيلها جداً، ويمد ركوعها وسجودها، ويلومه كثير من أصحابه في بعض الأحيان، فلا يرجع ولا ينزع عن ذلك، رحمه الله».

وقال: «وكان كثير الابتهال»[1].

وقال تلميذه ابن رجب:

«وكان ـ رحمه الله ـ ذا عبادة وتهجُّد، وطول صلاة إلى الغاية القصوى، وتأله ولهج بالذكر، وشغف بالمحبة والإنابة

---

(١) البداية والنهاية (١٤/ ٢٣٤).

والاستغفار، والافتقار إلى الله، والانكسار له، والإطراح بين يديه على عتبة عبوديته، لم أشاهد مثله في ذلك».

وتحدث عن عبادته أثناء سجنه فقال: «وكان في مدة حبسه مشتغلاً بتلاوة القرآن بالتدبر والتفكر».

وقال متحدِّثاً عن حجِّه: «وحج مرات كثيرة، وجاور بمكة، وكان أهل مكة يذكرون عنه من شدة العبادة وكثرة الطواف أمراً يتعجب منه..»[1].

وقال ابن حجر:

«وكان إذا صلى الصبح جلس مكانه يذكر الله تعالى حتى يتعالى النهار، ويقول: هذه غدوتي؛ لو لم أقعدها سقطت قواي»[2].

إن هذه النقول كفيلة بإعطاء تصور واضح عن عبادته ـ رحمه الله ـ، وهي نتيجة لعلمه.. وهل يراد العلم إلا للعمل به؟!.



(١) ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٤٤٨).
(٢) الدرر الكامنة (٤/ ٢١).

الفصل الثالث

مذهبه الفقهي

إن معظم كتب التراجم تصفُ الإمام ابن القيم بـ (الحنبلي)[1]، وذلك أنه نشأ في مدارس هذا المذهب، ونهل العلم منها، يضاف إلى ذلك أن أسرته التي ولد فيها تتمذهب به أيضاً، ولهذا المعنى تبوَّأ والده أعلى منصب في المدرسة الجوزية.

ولكن ابن القيم بعد أن شبَّ واتصل بشيخ الإسلام ابن تيمية، حصل تحول في حياته العلمية، لا بمعنى أنه ترك المذهب، وإنما أصبح يُعنى بالدليل الذي هو الكتاب والسنة، فأصبح يدور مع الدليل حتى ولو كان ذلك مخالفاً لمذهبه.

وهي خطوة متقدِّمة منه سار فيها على طريق شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية، في وقت كان أهل كل مذهب يتعصَّبون لمذهبهم بعيداً عن إعمال الفكر أو النظر إلى الدليل.. والمتقدم

---

(١) هذا ما جاء في: الوافي بالوفيات، للصفدي؛ والدرر الكامنة، لابن حجر؛ وشذرات الذهب، لابن العماد... وغيرها.

منهم هو الذي ينظر في أدلة المذهب ويفاضل بينها ، وعندها يصبح مجتهداً مقيَّداً بالمذهب.

ولكن ابن القيم ـ كشيخه ـ تجاوز هذا المقام، وأصبح نظره إلى الدليل حيثما كان، بل أصبح يقدم لكتبه بنصيحة القارئ أن يتبنى هذا المسلك، وأن يقبل الحق حيث كان، بغض النظر عن قائله.

وفي مثل هذا جاء قوله في «مدارج السالكين»:

«فيا أيها القارئ له، لك غنمه وعلى مؤلفه غرمه، لك ثمرته وعليه تبعته، فما وجدت فيه من صواب وحق فاقبله، ولا تلتفت إلى قائله، بل انظر إلى ما قال، لا إلى من قال، وقد ذمَّ الله تعالى من يردُّ الحق إذا جاء به من يبغضه، ويقبله إذا قاله مَنْ يحبه، قال بعض الصحابة: اقبل الحق ممن قاله وإن كان بغيضاً، ورد الباطل على من قاله وإن كان حبيباً..»[1].

وهكذا يدرب ابن القيم قارئ كتبه على هذه الطريقة في قصد الحق..

وإذا كان الحق الذي يدعمه الدليل هو المقصود، فعلى العالم

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٥٢٢).

أن يدور معه حيث دار، وفي هذا الصدد يقدم النصيحة للمفتي فيقول:

«ليحذر المفتي ـ الذي يخاف مقامه بين يدي الله سبحانه ـ أن يفتي السائل بمذهبه الذي يقلده، وهو يعلم أن مذهب غيره في تلك المسألة أرجح من مذهبه وأصح دليلاً. فتحمله الرياسة على أن يقتحم الفتوى بما يغلب على ظنه أن الصواب في خلافه، فيكون خائناً لله ورسوله وللسائل، وغاشّاً له، والله لا يهدي كيد الخائنين، وحرم الجنة على من لقيه وهو غاش للإسلام وأهله، والدين النصيحة، والغش مضاد للدين، كمضادة الكذب للصدق، والباطل للحق»[1].

وإذا كانت تلك نصيحته للقارئ..

وهذه نصيحته للمفتي..

فإنه يتحدث بعد ذلك عن مسلكه في هذا الميدان فيقول:

«وكثيراً ما تَرِدُ المسألة، نعتقد فيها خلاف المذهب، فلا يسعنا أن نفتي بخلاف ما نعتقده، فنحكي المذهب الراجح ونرجحه، ونقول: هذا هو الصواب، وهو أولى أن يؤخذ به، وبالله التوفيق»[2].

---

(١) إعلام الموقعين (٤/ ١٧٧)، دار الجيل ـ بيروت.

(٢) إعلام الموقعين (٤/ ١٧٧).

وهكذا أصبح مدار ابن القيم مع الدليل، مع احترامه للمذاهب وتقديره لأصحابها، وبهذا أصبح ـ مع علمه الواسع ـ في دائرة الاجتهاد..

وهذا ما جعل صاحب الشذرات يقول في ترجمته: «الفقيه الحنبلي بل المجتهد المطلق..»[1].

وقال الشوكاني في ترجمته: «شمس الدين ابن قيم الجوزية الحنبلي، العلامة الكبير، المجتهد المطلق، المصنف المشهور..»[2].

وقال الشوكاني أيضاً في وصف أسلوبه: «وإذا استوعب الكلام في بحث وطوَّل ذيوله أتى بما لم يأت به غيره، وساق ما ينشرح له صدر الراغبين في أخذ مذاهبهم عن الدليل».

وفي «منادمة الأطلال» قال: «وترجمه العدوي فقال: هو المجتهد المطلق، المفسر، المتفنن في علوم عديدة»[3].

تلك هي أقوال العلماء بشأن مذهبه.

ـ فبعضهم يعدُّه حنبليّاً لا يخرج به عن دائرة المذهب.

ـ وبعضهم يعده مجتهداً في المذهب.

---

(١) شذرات الذهب، لابن العماد (٦/ ١٦٨).
(٢) البدر الطالع (٢/ ١٤٣).
(٣) منادمة الأطلال، لابن بدران (١/ ٢٤٢).

ـ وبعضهم يرتقي به إلى درجة المجتهد المطلق.

والذي يبدو لي ـ والله أعلم ـ أن قوله السابق يحدد مكانته، فقد قال: «وكثيراً ما ترد المسألة، نعتقد فيها خلاف المذهب، فلا يسعنا أن نفتي بخلاف ما نعتقده. .».

فهو ينظر في المذهب؛ فإن كان الدليل معه أخذ به، وعندما يكون الدليل مع غيره فإنه مع الدليل، فالأولوية للمذهب ما دام الدليل معه.





الباب الثالث

علم الإمام ابن القيم



الفصل الأول

أقوال العلماء في علمه

تعد شهادات العلماء مؤشراً على مكانة العالم، وبخاصة إذا كانوا ممن عاصروه وهم على درجة من العلم، أو ممن جاؤوا بعده واطلعوا على تراثه.

وما قيل بشأن الإمام ابن القيم كثير كثير، أذكر بعضه:

قال ابن كثير:

«سمع الحديث، واشتغل بالعلم، وبرع في علوم متعددة، لا سيما علم التفسير والحديث والأصلين. . ولازم شيخ الإسلام ابن تيمية فأخذ عنه علماً جمّاً، مع ما سلف له من الاشتغال، فصار فريداً في بابه في فنون كثيرة، مع كثرة الطلب ليلاً ونهاراً»[1].

---

(١) البداية والنهاية (١٤/ ٢٣٤).

وقال ابن رجب:

«الفقيه الأصولي، المفسر النحوي العارف، تفقه في المذهب، وبرع وأفتى، ولازم الشيخ تقي الدين وأخذ عنه، وتفنن في علوم الإسلام، وكان عارفاً بالتفسير لا يجارى فيه، وبأصول الدين، وإليه المنتهى فيهما، والحديث ومعانيه وفقهه، ودقائق الاستنباط منه، لا يلحق في ذلك، وبالفقه وأصوله، وبالعربية، وله فيها اليد الطولى، وتعلم الكلام والنحو وغير ذلك، وكان عالماً بعلم السلوك وكلام أهل التصوف وإشاراتهم ودقائقهم، له في كل فن من هذه الفنون اليد الطولى».

وقال: «ولا رأيت أوسع منه علماً، ولا أعرف بمعاني القرآن والسنة وحقائق الإيمان منه، وليس هو بالمعصوم، ولكن لم أرَ في معناه مثله»[١].

وقال الصفدي:

«اشتغل كثيراً: ناظر واجتهد، وأكب على الطلب.. وصار من الأئمة الكبار في علم التفسير والحديث والأصول، فقهاً وكلاماً، والفروع والعربية»[٢].

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٤٤٨).

(٢) الوافي بالوفيات (٢/ ١٩٦).

وقال ابن حجر:

«كان جريء الجنان، واسع العلم، عارفاً بالخلاف، ومذاهب السلف»[1].

وقال السيوطي:

«صنف وناظر واجتهد، وصار من الأئمة الكبار في التفسير والحديث والفروع والأصلين والعربية»[2].

وقال برهان الدين الزرعي:

«ما تحت أديم السماء أوسع منه علماً»[3].

وقال ابن العماد:

«المفسر النحوي الأصولي المتكلم»[4].

* * *

تلك بعض الأقوال وغيرها كثير، وهي في الجملة لا تخرج

---

(١) الدرر الكامنة (٤/ ٢١).

(٢) بغية الوعاة (١/ ٦٢).

(٣) شذرات الذهب (٦/ ١٦٩).

(٤) المصدر السابق (٦/ ١٦٨).

عما جاء في هذه الشهادات التي تتفق على أن الإمام ابن القيم كان مرجعاً في كل العلوم المعروفة في زمنه، فهو عالم فريد في معناه. . كما جاءت شهادة الذين عايشوه وعرفوه عن قرب.



الفصل الثاني

مؤلفات ابن القيم

ذكر مترجمو الإمام ابن القيم الكتب التي ألَّفها، وزاد بعضهم على بعض في تعدادها، وقام الشيخ بكر أبو زيد[١] ـ جزاه الله خيراً ـ بجهد مشكور؛ حيث جمعها وحذف المكرر وأضاف ما تحصل له من أسماء كتب ذكرها المؤلف في كتبه ولم يذكرها أصحاب التراجم؛ فبلغ مجموع هذه الكتب (٩٨) كتاباً، بعضها مطبوع، وبعضها لم يطبع، ولعل السبب في ذلك هو عدم العثور على مخطوطاته.

ويحسن بنا أن نذكر أسماء الكتب المطبوعة وغير المطبوعة، حتى تكون الصورة واضحة عن غزارة الإنتاج، وتنوع الموضوعات التي تناولها بالتأليف.

---

(١) في كتابه: ابن القيم (حياته، آثاره، موارده)، الناشر: دار العاصمة، ص (٢٠٠ـ٣٠٩).

الكتب المطبوعة:

١ ـ اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية.

٢ ـ أحكام أهل الذمة (في مجلدين).

٣ ـ إعلام الموقعين عن رب العالمين (في أربعة مجلدات).

٤ ـ أسماء مؤلفات ابن تيمية.

٥ ـ إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (في مجلدين).

٦ ـ إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان.

٧ ـ بدائع الفوائد (في مجلدين).

٨ ـ التبيان في أقسام القرآن.

٩ ـ تحفة المودود في أحكام المولود.

١٠ ـ تهذيب مختصر سنن أبي داود.

١١ ـ جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام.

١٢ ـ حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح.

١٣ ـ الداء والدواء، والمسمى (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي).

١٤ ـ الرسالة التبوكية.

١٥ ـ روضة المحبين ونزهة المشتاقين.

١٦ ـ الروح.

١٧ ـ زاد المعاد في هدي خير العباد (خمسة مجلدات).

١٨ ـ شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (مجلدان).

١٩ ـ الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة.

٢٠ ـ طريق الهجرتين وباب السعادتين.

٢١ ـ الطرق الحكمية في السياسة الشرعية.

٢٢ ـ عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين.

٢٣ ـ الفروسية.

٢٤ ـ الفوائد.

٢٥ ـ الكافية الشافية في الانتصار للفرق الناجية (القصيدة النونية).

٢٦ ـ الكلام على مسألة السماع.

٢٧ ـ الكلم الطيب والعمل الصالح (الوابل الصيب من الكلم الطيب).

٢٨ ـ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (ثلاثة مجلدات).

٢٩ ـ مفتاح دار السعادة ومنشور ألوية العلم والإرادة (ثلاثة مجلدات).

٣٠ ـ المنار المنيف في الصحيح والضعيف.

٣١ ـ هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى.

٣٢ ـ كتاب الصلاة وحكم تاركها.

الكتب التي لم تطبع:

١ ـ الاجتهاد والتقليد.

٢ ـ أصول التفسير.

٣ ـ الإعلام باتساع طرق الأحكام.

٤ ـ اقتضاء الذكر بحصول الخير ودفع الشر.

٥ ـ الأمالي المكية.

٦ ـ أمثال القرآن.

٧ ـ الإيجاز.

٨ ـ بطلان الكيمياء من أربعين وجهاً.

٩ ـ بيان الاستدلال على بطلان اشتراط محلل السباق والنضال.

١٠ ـ التحبير لما يحل ويحرم من لباس الحرير.

١١ ـ التحفة المكية.

١٢ ـ تحفة النازلين بجوار رب العالمين.

١٣ ـ تدبير الرئاسة في القواعد الحكمية بالذكاء والقريحة.

١٤ ـ التعليق على الأحكام.

١٥ ـ تفضيل مكة على المدينة.

١٦ ـ الجامع بين السنن والآثار.

١٧ ـ جواب عابدي الصلبان وأن ما هم عليه دين الشيطان.

١٨ ـ الجواب الشافي لمن سأل عن ثمرة الدعاء إذا كان ما قد قدر واقع.

١٩ ـ الحامل هي تحيض أم لا؟.

٢٠ ـ الحاوي.

٢١ ـ حرمة السماع.

٢٢ ـ حكم إغمام هلال رمضان.

٢٣ ـ حكم تفضيل بعض الأولاد على بعض في العطية.

٢٤ ـ دواء القلوب .

٢٥ ـ ربيع الأبرار في الصلاة على النبي المختار .

٢٦ ـ الرسالة الحلبية في الطريقة المحمدية (نظم) .

٢٧ ـ الرسالة الشافية في أحكام المعوذتين .

٢٨ ـ رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه .

٢٩ ـ رفع التنزيل .

٣٠ ـ رفع اليدين في الصلاة .

٣١ ـ الروح والنفس .

٣٢ ـ زاد المسافرين إلى منازل السعداء في هدي خاتم الأنبياء .

٣٣ ـ البدعة والسنة .

٣٤ ـ أسماء الكتاب العزيز .

٣٥ ـ شرح الأسماء الحسنى .

٣٦ ـ الصبر والسكن .

٣٧ ـ الصراط المستقيم في أحكام أهل الجحيم .

٣٨ ـ الطاعون .

٣٩ ـ طب القلوب.

٤٠ ـ طريقة البصائر إلى حديقة السرائر في نظم الكبائر.

٤١ ـ طلاق الحائض.

٤٢ ـ عقد محكم الأحباء بين الكلم الطيب والعمل الصالح المرفوع إلى رب السماء.

٤٣ ـ الفتاوى.

٤٤ ـ الفتح القدسي.

٤٥ ـ الفتح المكي.

٤٦ ـ الفتوحات القدسية.

٤٧ ـ الفرق بين الخلة والمحبة ومناظرة الخليل لقومه.

٤٨ ـ الفروسية الشرعية.

٤٩ ـ فضل العلم وأهله.

٥٠ ـ فوائد في الكلام على حديث الغمامة وحديث الغزالة والضب وغيره.

٥١ ـ قرة عيون المحبين وروضة قلوب العارفين.

٥٢ ـ الكافية الشافية في النحو.

٥٣ ـ الكبائر.

٥٤ ـ كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء .

٥٥ ـ اللمحة في الرد على ابن طلحة .

٥٦ ـ المسائل الطرابلسية .

٥٧ ـ معاني الأدوات والحروف .

٥٨ ـ مقتضى السياسة في شرح نكت الحماسة .

٥٩ ـ المورد الصافي والظل الوافي .

٦٠ ـ مولد النبي ﷺ .

٦١ ـ المهدي .

٦٢ ـ المهذب .

٦٣ ـ نقد المنقول والمحك المميز بين المقبول والمردود .

٦٤ ـ نكاح المحرم .

٦٥ ـ نور المؤمن وحياته .

٦٦ ـ واضح السنن .

وعندما ننظر في هذه الأسماء نرى أن بعضها قد تناول المؤلف موضوعاتها واستوفاها في كتبه الموضوعة بين أيدينا ، والمثال على ذلك الكتب ذوات الأرقام : (١ ، ٣ ، ٦ ، ٩ ، ١٣ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٨ ، ٤١ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٤) .

ونرى أن بعضها تكرر تحت عناوين متعددة (كالأمالي المكية، والتحفة المكية، والفتح المكي) فربما كانت هذه كتاباً واحداً، و(الفتح القدسي، والفتوحات القدسية).

ونرى بعضها عبارة عن رسائل صغيرة، مثل (التحبير لما يحل ويحرم من لباس الحرير) و(نكاح المحرم).

وقد ذكر الشيخ بكر أبو زيد أن لبعض هذه الكتب مخطوطات موجودة، وبيَّن مكان حفظها، ولكنها لم تطبع.

وبعد: فإن هذا العدد الكبير من الكتب مطبوعة ومخطوطة ليدل دلالة واضحة على مكانة المؤلف ـ رحمه الله ـ، وسعة معلوماته وتنوعها.

الثناء على كتبه:

لاقت كتب الإمام ابن القيم قبولاً كبيراً في أيامه.. كما هو الشأن في أيامنا، وذلك لتنوع موضوعاتها، وعمق المعالجة، والجديد الذي يضيفه الشيخ على الموضوع الذي يتناوله بالبحث.

قال ابن حجر: «وكل تصانيفه مرغوب فيها بين الطوائف»[1].

---

(١) الدرر الكامنة (٤/ ٢١).

وقال ابن ناصر الدين الدمشقي: «له التصانيف الأنيقة، والتآليف التي في علوم الشريعة والحقيقة»[1].

❑ ❑ ❑

---

(١) الرد الوافر (١/ ٦٨).

الفصل الثالث

العلوم التي تناولها بالبحث

بعد أن عرفنا مكانة الإمام العلمية، وتحدثنا عن مؤلفاته، يحسن بنا أن نتعرَّف على العلوم التي تناولها بالبحث.

وقد رأينا في الفصل الأول من هذا الباب كم هي متعددة تلك الفنون التي برع فيها وألَّفَ وصنف، وسأحاول أن أتكلم عن بعض هذه العلوم بشكل مختصر بحسب علمي المتواضع، فليس من السهل على مثلي أن يعطي صورة كاملة عما كان يتمتَّع به هذا الإمام من معرفة وعلم.



أولاً ـ التفسير

لقد أثنى العلماء على علمه بالتفسير . . حتى قال تلميذه ابن رجب : وكان عالماً بالتفسير لا يجارى فيه .

وابن القيم لم يؤلِّف كتاباً في التفسير، وما فسره من آيات الذكر الحكيم جاء في كتبه المتعددة، فتارة يقتضيه البحث تفسير آية، وتارة بعض آية، وتارة عدة آيات، فجاء التفسير عرضاً ولم يقصد إليه، اللهم إلا تفسير «المعوذتين» حيث قصد إلى ذلك، فوضع لهما عنواناً واضحاً «تفسير المعوذتين»، وتناول شرحهما بشكل مفصل . . وختم ذلك بقوله :

«فهذا ما مَنَّ الله به من الكلام على بعض أسرار هاتين السورتين، وله الحمد والمنة، وعسى الله أن يساعد بتفسير على هذا النمط، فما ذلك على الله بعزيز، والحمد لله ربِّ العالمين»[1] .

---

(١) جاء تفسير هاتين السورتين في كتاب «بدائع الفوائد» (٢/ ١٩٨ ـ ٢٧٦) .

وقال مثل ذلك في آخر تفسيره لسورة «الكافرون» التي لم يقصد إلى تفسيرها، وإنما جاء الكلام عنها خلال حديثه عن ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ وكان مما قال:

«فهذا ما فتح الله العظيم به.. وعسى الله المانُّ بفضله، الواسع العطاء؛ الذي عطاؤه على غير قياس المخلوقين: أن يعين على تعليق تفسير على هذا النمط وهذا الأسلوب، وقد كتبت على مواضع متفرقة من القرآن بحسب ما يسنح من هذا النمط وقت مقامي بمكة وبالبيت المقدس، والله المرجو إتمام نعمته»[1].

على أن ما شرحه الإمام من الآيات شيء كثير، وقد قدره الشيخ بكر أبو زيد بخمسة مجلدات فقال:

«وكتابته على مواضع متفرقة من القرآن، هي من خلال كتبه تقع في نحو خمسة مجلدات فيما يظهر حسب التتبع»[2].

وخلاصة القول: أن «المعوذتين» هما ما فسره الإمام قاصداً إلى ذلك، ويمكن أن نلحق بهما سورة «الفاتحة» التي استفتح

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٤١).

(٢) ابن قيم الجوزية، بكر أبو زيد، ص (٢٣٢)، وسوف يكون الحديث عن هذا الموضوع في الفصل القادم.

بشرحها كتابه «مدارج السالكين»، والتي استغرقت ما يقرب من عشرين ومائة صفحة.

* * *

وإذا كانت المساحة المخصصة لهذا الموضوع لا تسمح بنقل نماذج من تفسير هذه السور، فلا أقل من شرح الطريقة التي اتبعها في ذلك.

أما سورة الفاتحة: فقد بدأ شرحها بمقدمة يبين فيها ما أسماه «المطالب العالية»، فقال: «اعلم أن هذه السورة اشتملت على أمهات المطالب العالية أتم اشتمال، وتضمنتها أكمل تضمن».

ثم ذكر هذه المطالب؛ فإذا هي:

١ ـ التعريف بالمعبود بثلاثة أسماء.

٢ ـ إثبات المعاد وجزاء العباد بأعمالهم.

٣ ـ إثبات النبوّات.

٤ ـ ذكر الصراط المستقيم.

وهكذا كان شرح السورة في هذه المقدمة من خلال هذه المطالب.

ثم أتبع المقدمة بعدة فصول هذه عناوينها:

ـ التوحيد في سورة الفاتحة.

ـ اشتمال الفاتحة على شفاءين: شفاء القلوب، وشفاء الأبدان.

ـ العبادة والاستعانة في سورة الفاتحة.

ـ التحقق بـ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾.

ـ مراتب ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ علماً وعملاً.

ـ مراتب الهداية في ﴿ ٱهْدِنَا ﴾.

بهذا الاستيفاء الضافي كان شرح هذه السورة المباركة.

وأما المعوذتان: فقد بدأ بشرح الأمور المشتركة بين السورتين، كذكر ما جاء في فضل السورتين، ومعنى «الاستعاذة»، ولماذا ﴿ قُلْ أَعُوذُ ﴾ وليس ﴿ أَعُوذُ ﴾؟..

ثم تحدث عن المستعاذ به، وهو الله تعالى.

ثم عن المستعاذ منه، وهو الشرور.

وبعد أن انتهى من الحديث عن هذه الأمور المشتركة بين السورتين بدأ شرح سورة «الفلق» آية آية.

ففي شرحه ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ بين أن الشر لا يدخل في صفاته تعالى، ومعنى (**والشر ليس إليك**)، وتحدَّث عن العموم في الآية.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ بيَّن معنى

﴿غَاسِقٍ﴾ و﴿وَقَبَ﴾، وذكر سبب الاستعاذة من الليل، وسر الاستعاذة برب الفلق.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ تحدَّث عن معنى ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾، وعن قضية سحر النبي ﷺ من قبل اليهود، وناقش المنكرين لذلك، ورد على من أنكر تأثير السحر..

وفي قوله: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ تحدَّث عن تأثير الحسد، وأصله، واقتران الحسد والسحر، والحاسد من الجن والإنس، واستعانة الحاسد والساحر بالشيطان، ومراتب الحسد، وحسد الغبطة، وأكبر أدوية الحسد، وذكر عشرة أمور يُدفع بها شر الحاسد، وختم الآية بذكر أصناف الناس باعتبار إقرارهم بتأثير الحسد.

ثم فسر سورة «الناس»، فذكر الأمور الآتية:

- فائدة الإضافات الثلاث ﴿بِرَبِّ﴾، ﴿مَلِكِ﴾، ﴿إِلَٰهِ﴾ إلى ﴿ٱلنَّاسِ﴾.

- فائدة تكرار ﴿ٱلنَّاسِ﴾ وترتيب هذه الإضافات، واشتمالها على قواعد الإيمان.

- بيان شر المستعاذ منه في السورتين.

ـ بيان معنى ﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾؛ وهل هي وصف أم مصدر؟ ومعنى ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾.

ـ بيان أن الصدر مكان الوسوسة.

ـ الاستعاذة من ﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾ لا من شره فقط.

ـ بيان نماذج من شرور الشيطان، ومراتب هذه الشرور؛ ومن هذه الشرور الاشتغال بالمباحات وضياع الأوقات، والشغل بالعمل المفضول عما هو أفضل منه.

ـ بيان لماذا (الصدور) وليس (القلوب)؟.

ـ الموسوس نوعان: إنس وجن.

ثم ختم تفسير السورتين بقاعدة نافعة فيما يعتصم به العبد من الشيطان، فذكر الأمور التالية، وشرح كلاً منها على انفراد:

ـ الاستعاذة بالله من الشيطان.

ـ قراءة هاتين السورتين.

ـ قراءة آية الكرسي.

ـ قراءة خاتمة سورة البقرة.

ـ قراءة أول سورة (حم) غافر.

ـ قول (لا إله إلا الله . .) مائة مرة.

- كثرة ذكر الله تعالى.

- الوضوء والصلاة.

- الإمساك عن فضول النظر والكلام والطعام ومخالطة الناس.

* * *

بهذا التفصيل المستقصي تناول المصنف هاتين السورتين، وهي طريقة لم يسلكها المفسرون، فهو لم يترك سؤالاً مما يحتمل أن يدور في ذهن القارئ إلا وأجاب عليه، وماذا عسى بعد هذا التفصيل الذي استغرق ثمانين صفحة أن يكون لدى القارئ مما يُستوضَح عنه؟!..

لذلك رأينا المؤلف يتمنَّى أن يمنَّ الله عليه بالوقت الذي يفسر فيه القرآن على هذا النمط.

ولما يسر الله له تفسير سورة «الكافرون» على هذا النمط حمد الله، وكان مما قال:

«فهذا ما فتح الله العظيم به من هذه الكلمات اليسيرة، والنبذة المثيرة إلى عظمة هذه السورة وجلالتها ومقصودها وبديع نظمها، من غير استعانة بتفسير، ولا تتبع لهذه الكلمات في مظانّ توجد فيه، بل هي استجلاء مما علمه الله وألهمه بفضله وكرمه.

والله يعلم أني لو وجدتها في كتاب **لأضفتها إلى قائلها وبالغت في استحسانها . .** »[1] .

❑ ❑ ❑

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٤١) .

ثانياً ـ السنة

كان الإمام ابن القيم عالماً بالحديث ومعانيه وفقهه، ودقائق الاستنباط منه لا يُلحق في ذلك، كما قال تلميذه ابن رجب.

وعندما ننظر في تراثه، نجد له خمسة كتب في السنة، اثنان في قائمة المطبوع، وثلاثة في قائمة المخطوط.

١ ـ أما الكتاب الأول من المطبوع فهو «تهذيب مختصر سنن أبي داود»:

وهو مطبوع مع «مختصر المنذري» وشرحه «معالم السنن» للخطابي في ثمانية مجلدات، في مطبعة «أنصار السنة المحمدية» بتحقيق أحمد محمد شاكر، ومحمد حامد الفقي.

وقد شرح المؤلف في مقدمة الكتاب الغرض منه، فقال:

«ولما كان كتاب السنن لأبي داود من الإسلام بالموضع الذي خصَّه الله به، بحيث صار حكماً بين أهل الإسلام.. وكان العلامة عبد العظيم المنذري قد أحسن في اختصاره وتهذيبه.. فأحسن

حتى لم يكد يدع للإحسان موضعاً، جعلت كتابه من أفضل الزاد، واتخذته ذخيرة ليوم المعاد، فهذبته نحو ما هذب هو به الأصل، وزدت عليه من الكلام على علل سكت عنها ولم يكملها، والتعرض إلى تصحيح أحاديث لم يصححها، والكلام على متون مشكلة لم يفتح مقفلها، وزيادة أحاديث صالحة في الباب لم يشر إليها، وبسطت الكلام على مواضع جليلة لعل الناظر المجتهد لا يجدها في كتاب سواه..».

أقول: والكتاب يظهر مكانة المؤلف في علم الحديث سنداً ومتناً، وتصحيحاً وتضعيفاً، والكلام على علل الحديث وغيرها.

٢ ـ أما الكتاب الثاني فهو: «المنار المنيف في الصحيح والضعيف»:

وموضوع الكتاب واضح من اسمه، وهو في الأصل جواب على سؤال عن أحاديث، طُلب منه بيان وضعها من حيث الصحة والضعف.

ومما جاء فيه: «من العلامات التي تعرف بها الأحاديث الموضوعة، مخالفة الحديث لصريح القرآن كحديث مقدار الدنيا..»[١].

---

(١) ابن قيم الجوزية، لبكر أبو زيد، ص (٣٠٤).

٣ ـ وجاء الكتاب الثالث في قائمة المخطوطات باسم «نقد المنقول والمحك المميز بين المقبول والمردود»:

ويقول الشيخ بكر أبو زيد: هو كتاب «المنار المنيف»؛ طبع باسم «نقد المنقول أو المنار في الصحيح والضعيف»[١].

٤ ـ والكتاب الرابع، هو في قائمة المخطوطات باسم «الجامع بين السنن والآثار»، وليس بين أيدينا عن هذا الكتاب إلا اسمه الذي ذكره المؤلف في كتابه «بدائع الفوائد».

٥ ـ والكتاب الخامس، كسابقه ليس بين أيدينا إلا اسمه وهو: «واضح السنن».

* * *

هذا ما يتعلق بكتبه في هذا الباب، أما علمه الواسع بالسنة فإنما يعلمه الذين قرؤوا كتبه، فمدار أدلته على القرآن والسنة، ولذلك فهو يستشهد بالأحاديث مبيناً درجتها، ومناقشاً في رجالها، والمكان لا يتسع لسوق الأمثلة عن ذلك فهي كثيرة، ولكني أكتفي بمثال واحد.

جاء في السنن عند أبي داود والترمذي: عن علقمة بن وائل، عن أبيه: أن امرأة خرجت على عهد النبي ﷺ تريد الصلاة،

---

(١) المرجع السابق نفسه.

فتلقاها رجل فتجللها، فقضى حاجته منها، فصاحت وانطلق، فمر عليها رجل فقالت: إن ذاك فعل بي كذا وكذا، ومرت عصابة من المهاجرين فقالت: إن ذلك الرجل فعل بي كذا وكذا، فانطلقوا فأخذوا الرجل الذي ظنت أنه وقع عليها، فأتوها به فقالت: نعم، هو هذا، فأتوا به النبي ﷺ فلما أمر به، قام صاحبها الذي وقع عليها، فقال: يا رسول الله، أنا صاحبها، فقال لها: (**اذهبي فقد غفر الله لك**)، وقال للرجل قولاً حسناً، وقال للرجل الذي وقع عليها: (ارجموه)، فقال: (**لقد تاب توبة لو تابها أهل المدينة لقبل منهم**)[1].

استشهد الإمام ابن القيم بهذا الحديث في كتابه «الطرق الحكمية»، فذكر رواية النسائي وفيها: «فاجتمع ثلاثة عند رسول الله ﷺ ـ الذي وقع عليها، والذي أغاثها، والمرأة ـ فقال: (**أما أنت فقد غُفر لك**)، وقال للذي أغاثها قولاً حسناً، فقال عمر رضي الله عنه: ارجم الذي اعترف بالزنى، فأبى رسول الله ﷺ وقال: (**لا، لأنه قد تاب**)».

ثم قال: رواه الإمام أحمد في مسنده عن محمد بن عبد الله بن الزبير. حدثنا إسرائيل، عن سماك، عن علقمة، عن وائل، عن

---

(١) رواه أبو داود (٤٣٧٩)، والترمذي (١٤٥٤).

أبيه. فذكره، وفيه: «فقالوا: يا رسول الله، ارجمه، فقال: **(لقد تاب توبة لو تابها أهل المدينة لقبل الله منهم)**».

ثم قال: وقال أبو داود: «باب في صاحب الحد يجيء فيقر» وذكره..

ثم قال: وقال الترمذي: «باب ما جاء في المرأة إذا استُكرِهت على الزنى» فذكره. ولم يذكر أنه جعل لها مهراً، قال الترمذي: هذا حديث غريب، ليس إسناده بمتصل. وقد روي هذا الحديث من غير هذا الوجه، وسمعت محمداً - يعني البخاري - يقول: عبد الجبار بن وائل بن حُجْر لم يسمع من أبيه ولا أدركه، يقال: إنه ولد بعد موت أبيه بأشهر.

ثم قال ابن القيم: والعمل على هذا عند أصحاب النبي ﷺ وغيرهم: أن ليس على المستكْرَه حد، ثم ساق حديث علقمة بن وائل عن أبيه من طريق محمد بن يحيى النيسابوري عن الفريابي عن سماك عنه، ولفظه.. وذكر الرواية الأولى. قال الترمذي: حديث حسن غريب.

وفي نسخة صحيحة: وعلقمة بن وائل بن حجر سمع من أبيه، وهو أكبر من عبد الجبار بن وائل، وعبد الجبار لم يسمع من أبيه.

قلت ـ أي ابن القيم ـ: هذا الحديث إسناده على شرط مسلم، ولعله تركه لهذا الاضطراب الذي وقع في متنه، والحديث يدور على «سماك»، وقد اختلفت الرواية في رجم المعترف، فقال أسباط بن نصر عن سماك: «فأبى أن يرجمه»، ورواية أحمد وأبي داود ظاهرة في ذلك، ورواية الترمذي عن محمد بن يحيى صريحة في أنه رجمه.

وهذا الاضطراب: إمّا من سماك ـ وهو الظاهر ـ، وإما ممن هو دونه.

والأشبه: أنه لم يرجمه، كما رواه أحمد والنسائي وأبو داود، ولم يذكروا غير ذلك، ورواته حفظوا: «أن رسول الله ﷺ سئل رجمه فأبى، وقال: (لا)».

والذي قال: «إنه أمر برجمه» إما أن يكون جرى على المعتاد، وإما أن يكون اشتبه عليه أمره برجم الذي جاؤوا به أولاً، فوهم، وقال: إنه أمر برجم المعترف.

وأيضاً: فالذين رجمهم رسول الله ﷺ في الزنى مضبوطون معدودون، وقصصهم محفوظة معروفة، وهم خمسة نفر: الغامدية، وماعز، وصاحبة العسيف، واليهوديان.

والظاهر: أن راوي الرجم في هذه القصة استبعد أن يكون قد

اعترف بالزنى بين يدي رسول الله ﷺ ولم يرجمه، وعلى أن من هديه رجم الزاني فقال: وأمر برجمه.

فإن قيل: فحديث عبد الجبار بن وائل عن أبيه: الظاهر أنه في هذه القصة، وقد ذكر أنه أقام الحد على الذي أصابها.

قيل: لا يدل لفظ الحديث على أن القصة واحدة، وإن دلَّ، فقد قال البخاري: لم يسمعه حجاج من عبد الجبار، ولا سمعه عبد الجبار من أبيه، حكاه البيهقي عنه.

على أن في قول البخاري: «إن عبد الجبار ولد بعد موت أبيه بأشهر» نظراً، فإن مسلماً روى في صحيحه عن عبد الجبار قال: «كنت غلاماً لا أعقل صلاة أبي . . .» الحديث.

وليس في ترك رجمه مع الاعتراف، ما يخالف أصول الشرع، فإنه قد تاب بنص النبي ﷺ، ومن تاب من حد قبل القدرة عليه سقط عنه في أصح القولين، وقد أجمع عليه الناس في المحارب، وهو تنبيه على من هو دونه، وقد قال النبي ﷺ للصحابة لما فرَّ ماعز من بين أيديهم: (**هلا تركتموه يتوب، فيتوب الله عليه**).

فإن قيل: فكيف تصنعون بأمره برجم المتهم الذي ظهرت براءته، ولم يقر، ولم تقم عليه بينة، بل بمجرد إقرار المرأة عليه؟.

قيل: هذا ـ لعمر الله ـ هو الذي يحتاج إلى جواب شافٍ، فإن الرجل لم يقر، بل قال: أنا الذي أغثتها.

فيقال ـ والله أعلم ـ: إن هذا مثل إقامة الحد باللوث الظاهر القوي، فإنه أُدرك وهو يشتد هارباً بين أيدي القوم، واعترف أنه كان عند المرأة، وادعى أنه كان مغيثاً لها، وقالت المرأة: هو هذا، وهذا لوثٌ ظاهر.

وقد أقام الصحابة حد الزنى والخمر باللوث الذي هو نظير هذا أو قريب منه، وهو الحمل، والرائحة.

وجوَّز النبي ﷺ لأولياء القتيل أن يقسموا على عين القاتل ـ وإن لم يروه ـ للوث، ولم يدفعه إليهم، فلما انكشف الأمر بخلاف ذلك تعين الرجوع إليه. كما لو شهد عليه أربعة: أنه زنى بامرأة، لم يحكم برجمه إذا ظهر أنها عذراء أو ظهر كذبهم، فإن الحد يدرأ عنه، ولو حكم به[1].

أقول: فانظر إلى هذه المقارنة بين روايات الحديث، والكلام عن أسانيدها ثم الوصول إلى فقه الحديث، والجواب على الإشكال المطروح حوله!.

---

(١) الطرق الحكمية، ص (٩٤ـ٩٧)، عني به صالح الشامي، نشره المكتب الإسلامي.

إنه مثال واحد، اكتفيتُ به حتى يتناسب مع المساحة المتاحة لهذا الموضوع[1].

* * *

ومما يدل على اطلاعه الواسع على السنة ما جاء في قوله عن أحاديث الأحكام وتقدير عددها؛ حيث قال:

«وأصول الأحكام التي تدور عليها، نحو خمسمائة حديث، وفرشها وتفاصيلها نحو أربعة آلاف حديث»[2].

ومثل هذه الإحصائية لا يقدر عليها إلا من خبر السنة والأحاديث التي تدور عليها من خلال تعامل مستمر، وكيف لا يقدر على ذلك من جعل السنة دليله وحجته والمرجع الذي يؤول إليه، وكتبه مليئة بالاستشهاد بها والاستدلال؟!..

يقول هذا يوم كانت كتب الحديث مخطوطة بالأيدي ولم تكن مرقَّمة.. وكان التعامل معها من خلال تلقِّيها على العلماء حديثاً حديثاً.

وهذا لا يعني أن ابن القيم لم يتعامل إلا مع هذا الصنف من

---

(١) وانظر ـ إن شئت ـ تخريجه لحديث (**يحمل هذا العلم**) في «مفتاح دار السعادة»، الناشر دار عثمان (١/ ٤٩٦ ـ ٥٠٠).

(٢) إعلام الموقعين (٢/ ٢٥٧).

الأحاديث التي تتعلَّق بالأحكام، فكتبه مليئة بأحاديث الرقائق والأخلاق والسلوك؛ الأمر الذي يعرفه من له أدنى صلة بكتبه.

وإنما جاءت هذه الإحصائية في سياق حضِّ العلماء على الرجوع إلى السنة في الاستدلال، وهو يُسَهِّل عليهم الأمر ويبين لهم المساحة التي تشغلها هذه الأحاديث.

* * *

وعلى الرغم من دقة ابن القيم في نظره في الأسانيد؛ فإنه في بعض الأحيان قد يستشهد بالأحاديث الضعيفة ويستدل بها.. ومن ذلك ما جاء في كتاب «إغاثة اللهفان» عند حديثه عن الأدلة على تحريم الغناء واللهو والمعازف[1]، فقد ذكر طائفة من الأحاديث كلها ضعيفة بشهادة النقاد والمحدثين، باستثناء الحديث المعلَّق في البخاري.. وكذلك في كتاب «مفتاح دار السعادة».

وليس هذا فحسب، بل وجدناه في كتاب «الجواب الكافي» يستشهد بقصص لا تصح، ومن ذلك ما جاء عند حديثه عن «العشق العفيف»؛ حيث قال:

«وهذا سيد الأولين والآخرين ورسول رب العالمين ﷺ نظر إلى زينب بنت جحش رضي الله عنها فقال: (سبحان مقلب القلوب)، وكانت تحت زيد بن حارثة مولاه! فلما همَّ بطلاقها قال

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٣٨٢)، دار الكتاب العربي.

له: (اتق الله وأمسك عليك زوجك). . » إلى آخر القصة، ثم قال:

«وهذا داود نبي الله عليه السلام كان تحته تسع وتسعون امرأة، ثم أحب تلك المرأة فتزوجها وكمَّل بها المائة»[1].

فذكر روايتين: الأولى تتعلق بسيدنا محمد ﷺ، والثانية تتعلق بداود عليه السلام.

أما الرواية الأولى: فقد قال ابن كثير: ذكر ابن أبي حاتم وابن جرير ها هنا آثاراً. . أحببنا أن نضرب عنها صفحاً لعدم صحتها فلا نوردها.

وجاء في تفسير «صفوة التفاسير» قوله: يتشبَّث بعض أعداء الإسلام بروايات ضعيفة واهية ـ للطعن في الرسول الكريم ﷺ ـ وُجدَتْ في بعض كتب التفسير، وهي أن رسول الله ﷺ رأى زينب، وهي متزوجة بزيد بن حارثة، وأحبَّها ووقعت في قلبه فقال: (سبحان مقلب القلوب) فسمعتها زينب فأخبرت بها زيداً، فأراد أن يطلقها، فقال له الرسول ﷺ: (أمسك عليك زوجك). . وهذه روايات باطلة لم يصح فيها شيء، كما قال العلامة أبو بكر بن العربي رحمه الله . .[2].

---

(١) الجواب الكافي، طبعة دار القلم، بعناية صالح أحمد الشامي، ص (٣١٨ ـ ٣١٩).

(٢) انظر إن رغبت مناقشة هذه القصة في كتاب «من معين السيرة»، لصالح أحمد الشامي، ص (٣٣٠ ـ ٣٣٤).

ولا أودُّ الإطالة بنقل النصوص؛ فهي قصة باطلة يكفي في بطلانها أن الحجاب لم يكن نزل الأمر به، وأن الرسول ﷺ هو الذي زوجها لزيد. .

وأما قصة داود عليه السلام فهي من الإسرائيليات الباطلة، وقد أضرب ابن كثير عن ذكرها وقال: إنها لا تصح، وذلك عند الآية (٢١) من سورة صٓ.

ولعل ذكر هاتين القصتين حدث سهواً. . ولو راجع ابن القيم ـ رحمه الله ـ هذا الكتاب لشطب عليهما، فمثله لا يفوته ما فيهما من الطعن بأنبياء الله تعالى.

* * *

وخلاصة القول: إن ابن القيم كان على اطلاع واسع بالسنة متناً وسنداً قلَّ نظيره، ولكن الكمال لا يكون إلا لله وحده سبحانه وتعالى.



ثالثاً ـ أصول الدين

وصف ابن القيم بأنه كان عالماً بأصول الدين، كما قال ابن رجب، وبأنه كان عالماً بـ «الأصلين» كما عند ابن كثير والسيوطي.

والمقصود بالأصلين: أصول الدين، وأصول الفقه.

وأصول الدين تعني أمور الاعتقاد ممَّا يتعلق بالألوهية والنبوات والإيمان بالقدر وغير ذلك مما هو معروف بشأن هذا العلم.

ولم يؤلِّف الإمام كتاباً تقليدياً يتناول هذا الموضوع، ولكن كتابه «شفاء العليل» يتناول بحث «القدر»، وهو جزء من هذا المبحث، وهناك كتاب مخطوط عنوانه «شرح أسماء الله الحسنى» له صلة بالموضوع.

يضاف إلى ذلك كتاب «اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية».

فإنه تناول مسألة رئيسة من مسائل الاعتقاد، وهي «علو الله تعالى وأنه فوق كل شيء».

والكتاب كله حول هذه المسألة؛ حشد فيه المصنف الآيات الكريمة وأقوال الأنبياء والأحاديث الشريفة، وأقوال الصحابة والتابعين والأئمة الأربعة وغيرهم.. تأييداً وتأكيداً.

ومما جاء فيه قوله:

«قال شيخ الإسلام: وهذا كتاب الله من أوله إلى آخره، وسنة رسوله ﷺ وعامة كلام الصحابة والتابعين، وكلام سائر الأئمة، مملوء بما هو نص أو ظاهر في أن الله سبحانه وتعالى فوق كل شيء، وأنه فوق العرش، فوق السموات...»(١).

وإذا لم يكن بين أيدينا كتاب، فإن ابن القيم تناول عناصر هذا الموضوع في كتبه المتعددة، وبخاصة الكتب المحسوبة على علم التصوف، فالصلة بين العلمين كبيرة وبخاصة عند ابن القيم.

وأرى أنه من المستحسن ذكر بعض النصوص التي عالج فيها الإمام بعض جوانب هذا الموضوع لعلها تلقي الضوء على طريقته التي انتهجها..

* * *

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى:

«الربُّ تعالى يدعو عباده في القرآن إلى معرفته من طريقين:

---

(١) كتاب الفوائد، الفصل (٦).

أحدها: النظر في مفعولاته.

والثاني: التفكر في آياته وتدبرها.

فتلك آياته المشهودة، وهذه آياته المسموعة المعقولة:

فالنوع الأول: كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وهو كثير في القرآن.

والثاني: كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء: ٨٢]، وقوله: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩] وهو كثير أيضاً»[١].

وقال رحمه الله تعالى:

«معرفة الله سبحانه نوعان:

الأول: معرفة إقرار، وهي التي اشترك فيها الناس، البر والفاجر، والمطيع والعاصي.

والثاني: معرفة توجب الحياء منه، والمحبة له، وتعلق القلب

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية، ص (٥١).

به، والشوق إلى لقائه، وخشيته، والإنابة إليه، والأنس به، والفرار من الخلق إليه.

ولهذه المعرفة بابان واسعان:

الباب الأول: التفكُّر والتأمل في آيات القرآن كلها، والفهم عن الله ورسوله ﷺ.

والباب الثاني: التفكُّر في آياته المشهودة، وتأمل حكمته فيها، وقدرته ولطفه، وإحسانه وعدله، وقيامه بالقسط على خلقه.

وجماع ذلك: الفقه في معاني أسمائه الحسنى، وجلالها وكمالها، وتفرده بذلك، وتعلقها بالخلق والأمر:

فيكون فقيهاً في أوامره ونواهيه.

فقيهاً في قضائه وقدره.

فقيهاً في أسمائه وصفاته.

و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤]»[١].

* * *

---

(١) كتاب الفوائد، الفصل (٩٦).

وقال رحمه الله تعالى:

«أَعلمُ الناس معرفة لله، من عرفه من كلامه.

فإنه يعرف ربّاً قد اجتمعت له صفات الكمال، ونعوت الجلال، منزه عن المثال، بريء من النقائص والعيوب.

له كل اسم حسن، وكل وصف كمال، فعّال لما يريد، فوق كل شيء، ومع كل شيء، وقادر على كل شيء، ومقيم لكل شيء.

أكبر من كل شيء، وأجمل من كل شيء.

أرحم الراحمين، وأقدر القادرين، وأحكم الحاكمين.

فالقرآن أنزل لتعريف عباده به، وبصراطه الموصل إليه»[1].

* * *

وقال رحمه الله تعالى:

«هو الله ذو الجلال والإكرام، الملك القدوس السلام، الذي قدَّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف عام، فقدر أرزاقهم وآجالهم، وكتب آثارهم وأعمالهم، وقسم بينهم معايشهم وأموالهم، وكان عرشه على الماء قبل خلق

---

(١) كتاب الفوائد، الفصل (١٠٥).

الليالي والأيام، فأبرم القضية، وقدر البرية، وقال للقلم: اكتب، فجرى بما هو كائن في هذا العالم على تعاقب السنين والأعوام.

ثم خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ثم استوى على العرش المجيد بذاته، منفرداً بتدبير خلقه بالسعادة والشقاوة، والعطاء والمنع، والإحياء والإماتة، والخفض والرفع، والإيجاد والإفناء، والنقض والإبرام، يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن.

وسع كل شيء رحمة وعلماً، وأوسع كل مخلوق فضلاً وجوداً وحلماً، وقهر على كل شيء عزة وحكماً، فعنت الوجوه لجلال وجهه، وعجزت العقول عن معرفة كنهه، وقامت البراهين على استحالة مثله وشبهه.

فهو الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء.

فهو الحي القيوم الذي لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه نور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

فهو أقرب شهيد، وأدنى حفيظ، وأعظم رقيب.

فالقلوب له مفضية، والسر عنده علانية، والمستور لديه مكشوف، وكل أحد إليه فقير ملهوف على الدوام.

هو الله وحده لا شريك له، ولا كفؤ له، ولا سمي له، ولا صاحبة له، ولا ولد له، بل هو الأحد الصمد، الذي تفرَّد بإلٰهيته، وتوحَّد بربوبيته، وتعالى عن مشابهة خليقته»[1].

* * *

تلك نماذج مما كتبه في هذا الموضوع:

تحدث في الأول: عن طريق المعرفة وسبيل الاستدلال.

في الثاني: عن نوعي المعرفة لله تعالى.

وفي الثالث: عن معرفته سبحانه من كلامه.

وفي الرابع: عن معرفته من صفاته سبحانه وتعالى.

* * *

وهو ـ مع ذلك ـ يضع القواعد التي يقوم عليها هذا العلم الشريف فيقول:

«وملاك النجاة والسعادة والفوز بتحقيق التوحيدين اللذين عليهما مدار كتاب الله تعالى، وبتحقيقهما بعث الله سبحانه

---

(١) مقدمة كتاب شفاء العليل.

وتعالى رسوله ﷺ، وإليهما دعت الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم من أولهم إلى آخرهم:

أحدهما: التوحيد العلمي الخبري الاعتقادي، المتضمِّن إثبات صفات الكمال لله تعالى، وتنزيهه فيها عن التشبيه، وتنزيهه عن صفات النقص.

والتوحيد الثاني: عبادته وحده لا شريك له، وتجريد محبته والإخلاص له، وخوفه ورجاؤه، والتوكل عليه، والرضا به ربّاً وإلٰهاً ووليّاً، وأن لا يجعل له عدلاً في شيء من الأشياء.

وقد جمع الله سبحانه وتعالى هذين النوعين من التوحيد في سورتي الإخلاص، وهما:

- سورة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ المتضمنة للتوحيد العملي الإرادي.

- وسورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ المتضمنة للتوحيد العلمي الخبري.

ولا يتم أحد التوحيدين إلا بالآخر.

والتوحيد العلمي الخبري له ضدان: التعطيل، والتشبيه والتمثيل.

فمن نفى صفات الرب تعالى وعطَّلها، كذَّب تَعْطيلُه توحيدَه.

ومن شبَّهه بخلقه ومثَّلَه بهم، كذَّب تشبيهُهُ وتمثيلُهُ توحيدَه.

والتوحيد الإرادي العملي له ضدان أيضاً: الإعراض عن محبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه.

والإشراك به في ذلك، واتخاذ أوليائه شفعاء من دونه.

وقد جمع سبحانه وتعالى بين التوحيدين في غير موضع من القرآن...»[1].

* * *

تلك العناصر الرئيسة في هذا الموضوع، حاولت وضع نماذج منها أمام القارئ ليتعرف على الطريقة التي عالج فيها الإمام هذا الموضوع.

ولعل الله سبحانه ييسر لهذا العلم ـ علم أصول الدين ـ من يجمع مادته من كتب الإمام وينسق بينها، ويحسن طريقة عرضها.. فيقدم للمسلمين كنزاً ثميناً، بهذه اللغة الواضحة، بعيداً عن المصطلحات ومعميات القول.



(١) اجتماع الجيوش الإسلامية، ص (٤٩ ـ ٥٠)، الناشر دار البيان.

رابعاً ـ أصول الفقه

يتفق مترجمو الإمام على وصفه بـ «الأصولي»، وعندما نستعرض قائمة كتبه، نجد له كتابين في هذا الموضوع؛ أحدهما مطبوع وهو «إعلام الموقعين»، والثاني مخطوط وهو «الاجتهاد والتقليد».

وكتاب «إعلام الموقعين» يعدُّ أحد أهم كتابين وضعهما الإمام، والثاني منهما هو كتاب «زاد المعاد».

وهذا الكتاب جمع فيه المؤلف كل الموضوعات التي تعد من مفردات أصول الفقه، وقد أطال في بيانها والاستدلال لها.

على أن المؤلف لم يكتفِ بهذا الكتاب في عرض الموضوعات الأصولية، بل نراه يعرض لهذه الموضوعات في كتبه الأخرى، وإن نظرة سريعة في كتاب «التقريب لفقه ابن قيم الجوزية» للشيخ بكر أبو زيد، في باب «مباحث أصول الفقه وقواعده والقواعد الفقهية» تطلعنا على أنه ما من كتاب من كتب ابن القيم خلا من ذكر شيء من ذلك.

ولعل مرجع ذلك، هو أن الشيخ يعتمد الدليل على كل ما يسوقه، والقواعد الأصولية والفقهية تقوم مقام الدليل، إذ هي لم تصبح قاعدة إلا بعد اجتماع الأدلة عليها. ولذلك انتشرت في جميع كتبه.. وقد لا يكتفي بالقواعد بل يسوق بعض المباحث كاملة.

هذا وسوف يكون الحديث عن هذا الكتاب تفصيلاً في الباب الخامس.

* * *

وينبغي أن نلحق بهذا العنوان كتاب «الطرق الحكمية» وهو مطبوع، وكتاب «الإعلام باتساع طرق الأحكام» وهو في قائمة المخطوطات.

فكتاب «الطرق الحكمية» يتناول فرعاً من فروع الأصول، وهو ما يتعلَّق بوسائل الإثبات، وهو ما يعرف في زمننا باسم «أصول المحاكمات ووسائل الإثبات».

وهو كتاب قيم فريد في بابه، سوف يكون الحديث عنه تفصيلاً في الباب الخامس.



خامساً ـ الفقه

على الرغم من وصف ابن القيم بـ (الفقيه)، وهذا أمر لا مرية فيه، فإنا لا نجد له كتاباً في الفقه بالمعنى التقليدي، وإنما توزعت بحوثه الفقهية على كتبه. .

وما من شك في أنه اطلع على كتب ابن قدامة: «المغني» و«الكافي» وغيرهما، ولكنه لم يرغب بهذا النمط من التأليف، واعتقد أن مرجع ذلك إلى:

١ ـ أنه وجد في المكتبة الإسلامية من هذا النمط من التأليف ما فيه الكفاية.

٢ ـ أنه اتخذ طريقه في أن يدور مع الدليل حيث دار، وليست الأدلة دائماً حليفة الفقه الحنبلي.

٣ ـ أنه لو ألَّف كتاباً على طريقته متبعاً الدليل، فلمن يؤلفه؟ في وقت كانت فيه المذهبية على أشدها، ومن سوف يستفيد منه يومئذ؟ إذ لن تكون للكتاب صفة ينتسب بها إلى ما تعارف عليه الناس يومئذ من مذاهب.

ولذلك آثر أن تكون مباحثه الفقهية ضمن مباحثه الأخرى تأتي في سياقها مع أدلتها . .

ومما يؤيد هذا الذي ذهبتُ إليه أن فقه العبادات الذي جاء في كتابه «زاد المعاد» لم يكن على طريقة الفقهاء، وإنما اختطَّ له طريقة جديدة، وهي وصفه لفعل النبي ﷺ في كل عمل من أعمال العبادات، ولذلك كانت عناوين فصوله «هديه ﷺ في كذا» . .

وقد بُذِلتْ جهود للدلالة على هذا الفقه أو جمعه سوف يكون الحديث عنها في الفصل القادم.



سادساً ـ السيرة النبوية

يُحْسَبُ كتاب «زاد المعاد في هدي خير العباد» في عداد كتب السيرة النبوية، وهو أحد أهم كتابين وضعهما الإمام ابن القيم كما سبق الحديث عن ذلك.

وقد أثنى عليه العلماء ثناء عاطراً، ومنهم الشيخ أبو الحسن الندوي الذي قال:

«وأعتقد أنه ليس هناك كتاب جامع ألف للعمل والإصلاح بعد كتاب «إحياء العلوم» للغزالي، بل قد يفوقه من ناحية التحقيق والإسناد والتطبيق بين الكتاب والسنة ـ يعني كتاب زاد المعاد»[(١)].

وللإمام ابن القيم اهتمام خاص بالسيرة باعتبارها وسيلة التعريف بالرسول ﷺ الذي أُمر المسلمون أن يجعلوه أسوة لهم، كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

---

(١) رجال الفكر والدعوة (٢/ ٢٦٧).

وحتى يتأسَّى المسلم به ﷺ لا بد له من معرفة سيرته ـ بمفهومها العام ـ بحيث يعرف طريقته في عباداته وتصرفاته وأحواله اليومية وتعامله في بيته . .

ومن أجل هذا المعنى وضع الإمام هذا الكتاب وقال في مقدمته :

«وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهدي النبي ﷺ، فيجب على كل من نصح نفسه، وأحب نجاتها وسعادتها، أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين به، ويدخل في عداد أتباعه وشيعته وحزبه .

والناس في هذا بين مستقل ومستكثر ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم»[١] .

فالحد الأدنى من المعرفة هو أن يعرف المسلم من هديه ما يخرج به عن الجاهلين به، حتى يتاح له أن يكون في عداد أتباعه . .

وابن القيم لا يكتفي بهذه الدرجة من المعرفة، بل يدعو إلى ما هو أعلى منها فيقول :

«فإذا صدق في ذلك ـ أي صدق العبد بجمع خواطره وحديث نفسه على إرادة ربه ـ رزق محبة الرسول ﷺ، واستولت روحانيته

---

(١) زاد المعاد (١/ ٦٩) .

على قلبه، فجعله إمامه ومعلمه، وأستاذه وشيخه وقدوته، كما جعله الله نبيه ورسوله وهادياً إليه.

فيطالع سيرته ومبادئ أمره، وكيفية نزول الوحي عليه، ويعرف صفاته وأخلاقه، وآدابه في حركاته وسكونه، ويقظته ومنامه، وعبادته، ومعاشرته لأهله وأصحابه، حتى يصير كأنه معه من بعض أصحابه»[1].

هكذا هي الغاية.. حتى يصير كأنه مع النبي ﷺ من بعض أصحابه.

ولا يصير كذلك إلا إذا تعرف على الأمور التي ذكرها.. وحددها في الفقرة السابقة.

وهذا يعني أن السيرة التي يقصدها ابن القيم ليست فقط هي السيرة التقليدية التي تعنى بذكر الحوادث حسب السنين، وإنما يضاف إليها السنة النبوية التي تعنى بذكر شمائله وأخلاقه..

وسوف يكون حديثنا تفصيلاً عن كتاب «زاد المعاد» في الفصل الثاني من الباب الخامس.

❑ ❑ ❑

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٢٦٨).

سابعاً ـ التصوف

قال تلميذه ابن رجب في ترجمته له: «. . وكان عالماً بعلم السلوك، وكلام أهل التصوف وإشاراتهم ودقائقهم، له في كل فن من هذه الفنون اليد الطولى».

وقال: «وكان في مدة حبسه مشتغلاً بتلاوة القرآن بالتدبر والتفكر، ففتح عليه من ذلك خير كثير، وحصل له جانب عظيم من الأذواق والمواجيد الصحيحة، وتسلط بسبب ذلك على الكلام في علوم أهل المعارف والدخول في غوامضهم، وتصانيفه ممتلئة بذلك».

وقد سبق الحديث عن عبادته. . وكيف كانت.

وأما كتبه في هذا الفن، ففي المطبوع كتابان هما: «مدارج السالكين» و«طريق الهجرتين»، ونقرأ في قائمة الكتب التي لم تطبع ثلاثة كتب أخرى؛ هي: «تحفة النازلين بجوار رب العالمين» و«طب القلوب» و«دواء القلوب».

ويضاف إلى ذلك عشرات الأماكن في كتبه الأخرى التي تحدَّث فيها تحت هذا العنوان.

وفي بيان مختصر عن الكتابين أقول:

ـ **أما كتاب «مدارج السالكين»** فقد شرح فيه كتاب الشيخ أبي إسماعيل الهروي ـ المتوفى قبله بما يزيد عن قرنين من الزمان ـ والمسمى «منازل السائرين»، ويغلب على الظن أنه فعل ذلك لبيان بعض الأخطاء التي وردت في الكتاب، والكتاب يتحدث عن «منازل السائرين» واحدة بعد الأخرى..

ـ **وأما كتاب «طريق الهجرتين»** فواضح من مقدمته أن الغاية منه بيان المسلك القويم الذي عليه من تذكُّرُ رؤيتهم بالله تعالى ـ فإذا رُؤوا ذكرَ الله ـ وإذا أحب الواحد منهم أحب لله، وإذا أبغض أبغض لله، وإذا أعطى فللَّه، وإذا منع فللَّه، وللواحد منهم في كل وقت هجرتان:

١ ـ هجرة إلى الله بالطلب والعبودية والتوكل والإنابة والتسليم.

٢ ـ وهجرة إلى رسوله في حركاته وسكناته الظاهرة والباطنة بحيث تكون مواقفه للشرع.

وسوف يكون الحديث عن هذا الموضوع بشيء من التفصيل في الباب الخامس.

❑ ❑ ❑

ثامناً ـ السنن الإلهية

إن قضية النظر والتفكير التي دعا إليها القرآن الكريم أضحت غائبة عن حياة كثير من المسلمين، وهي من مفاخر هذا الدين، التي امتاز بها على جميع الأديان والعقائد.

وإذا كانت بعض الأديان تطلب من أتباعها تغييب عقولهم، حتى يَسْلَمَ لهم إيمانهم، فإن الإسلام يحثُّ على النظر والفكر، حتى تستقر العقيدة في القلب سليمة صحيحة.

وقد رأينا في فقرة سابقة من هذا الفصل عند الحديث عن «أصول الدين» أن ابن القيم قال:

«الرب تعالى يدعو عباده في القرآن إلى معرفته من طريقين:

أحدهما: النظر في مفعولاته.

والثاني: التفكر في آياته وتدبرها.

فتلك آياته المشهودة، وهذه آياته المسموعة المعقولة».

وهكذا كان النظر والتفكير هما الطريق إلى معرفة الله تعالى.

والآيات الواردة في هذا الموضوع كثيرة كثيرة لسنا بحاجة إلى التذكير بها. .

* * *

وقد لفت هذا الموضوع نظر الإمام ابن القيم، فأولاه عنايته فدعا:

- إلى النظر إلى هذه السنن من حيث هي سنن إلٰهية.

- ثم النظر إليها باعتبارها دالة على الله تعالى.

- ثم النظر إليها من حيث هي نعمة على العبد أن يقدرها ويستخدمها في حقها.

ولفت النظر في فصول مطولة إلى مشاهد في هذا الكون يتفكر فيها المرء بعد النظر الفاحص إليها، ثم ينفذ من هذا المنظر المشاهد بالحس إلى ما وراءه بالنظر القلبي والعقلي فيدرك وجود الرب وقدرته وعظمته.

هذه البحوث التي اهتدى ابن القيم إلى عرضها جاءت في كتاب «مفتاح دار السعادة»، وجاء بعضها في كتاب «شفاء العليل»، وبعضها في كتاب «التبيان في أقسام القرآن».

إن التفكير فريضة إسلامية ـ كما قال العقاد ـ وإن النظر

المؤدي إلى التفكير فريضة أيضاً؛ قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس: ١٠١].

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم يقومون بأداء هذه الفريضة، فقد سئلت أم ذر عن عبادته فقالت: كان نهاره أجمع في ناحية البيت يتفكَّر.

وقال الحسن البصري: تفكر ساعة خير من عبادة ليلة.

* * *

إن ابن القيم عندما أبرز هذا الموضوع وأولاه عنايته، فقد أحيا سنة من السنن.. سنة النظر في آياته تعالى في الآفاق وفي الأنفس.

وقد جاء بعض هذا الموضوع في كتاب «شفاء العليل»، ثم رأيته في كتاب «مفتاح دار السعادة» بتوسع..

وليس في الكتابين ما يدل على وجوده فيهما حتى يقصد القارئ إليهما، فرأيت أن أجمع مادة هذا الموضوع وأخرجها في كتاب يدل عنوانه عليه.

وبعد جمع المادة، تبين أن القضايا التي جعلها ابن القيم محلاًّ للنظر هي:

١ ـ عالم الإنسان.

٢ ـ عالم الكون.

٣ ـ عالم الحيوان.

٤ ـ عالم النبات.

٥ ـ الشريعة من حيث النظر في حكمتها وجمالها.

فجعلتُ الكتاب خمسة أبواب تبعاً لذلك، ثم قسم الباب إلى فصول وحذفت الموضوعات المكررة، نتيجة جمع الموضوع من كتابين..

وظهر الكتاب تحت عنوان «قل انظروا».

ويحسن بنا أن نذكر مثالاً يبين أسلوب ابن القيم في معالجة هذا الموضوع وليكن من الباب الأول:

جاء تحت عنوان (اليدان):

«وكذلك خلقه تعالى لليدين اللتين هما آلة العبد وسلاحه ورأس مال معاشه، فطوَّلهما بحيث يصلان إلى ما شاء من بدنه، وعرَّض الكف ليتمكن به من القبض والبسط، وقسم فيه الأصابع الخمس، وقسم كل أصبع بثلاث أنامل، والإبهام باثنتين، ووضع الأصابع الأربعة في جانب، والإبهام في جانب، لتدور الإبهام على الجميع، فجاءت على أحسن وضع صلحت به للقبض والبسط ومباشرة الأعمال، ولو اجتمع الأولون والآخرون على أن

يستنبطوا بدقيق أفكارهم وضعاً آخر للأصابع سوى ما وضعت عليه لم يجدوا إليه سبيلاً.

فتبارك من لو شاء لسواها وجعلها طبقاً واحداً كالصفيحة، فلم يتمكن العبد بذلك من مصالحه وأنواع تصرفاته، ودقيق الصنائع والخط وغير ذلك. فإن بَسَطَ أصابعه كانت طبقاً يضع عليه ما يريد، وإن ضمها وقبضها كانت دبُّوساً وآلة للضرب، وإن جعلها بين الضم والبسط كانت مغرفة له، يتناول بها ويمسك فيها ما يتناوله.

وركب الأظفار على رؤوسها زينة لها وعماداً ووقاية، وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا ينالُها جسم الأصابع، وجعلها سلاحاً لغيره من الحيوان والطير، وآلة لمعاشه، وليحكَّ الإنسان بها بدنه عند الحاجة.

فالظفر الذي هو أقل الأعضاء وأحقرها، لو عدمه الإنسان ثم ظهرت به حكة لاشتدت حاجته إليه، ولم يقم مقامه شيء في حك بدنه، ثم هدى اليد إلى موضع الحك حتى تمتد إليه ولو في النوم والغفلة من غير حاجة إلى طلب، ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك إلا بعد تعب ومشقة».



تاسعاً ـ اللغة والنحو

نقل كل من ابن حجر والشوكاني عن الأسنوي قوله:

«كان ـ ابن القيم ـ أجمع من رأيناه للعلوم مع الاتساع فيها، خصوصاً العقلية واللغوية؛ لا يشار فيها إلا إليه..».

ودلائل ذلك البحوث والتحقيقات التي لا يخلو منها كتاب من كتبه، وأقرب مرجع في هذا الباب كتابه «بدائع الفوائد» الذي كثرت فيه البحوث اللغوية والنحوية مما لا نجده في كتاب آخر، ومع ذلك فهو حافل بالعلوم الأخرى التي عني بها الإمام رحمه الله تعالى.

ولم ينل هذا الكتاب من العناية ما هو جدير بها من المحققين.. ومن دور النشر!!



الفصل الرابع

جمع تفسير ابن القيم وفقهه

رأينا في الفصل السابق أن ابن القيم ليس له كتاب في التفسير، وأن ابن القيم الفقيه ليس له كتاب في الفقه، فرأى بعض العلماء أن يأخذوا على عاتقهم هذه المهمة، ومن خلال جهودهم أصبح لابن القيم كتاب في التفسير وآخر في الفقه.

أولاً ـ جمع التفسير:

أما في جمع التفسير: فقد ظهر فيه ثلاثة كتب:

١ ـ التفسير القيم للإمام ابن القيم:

قام بجمع هذا التفسير الشيخ محمد أويس الندوي، فجمع ما وقف عليه في مجلد، وكان ذلك بتشجيع من العلامة سليمان الندوي، والعلامة عبد العليِّ الحسني.

وهو عمل مشكور ولكنه لم يستوفِ.

٢ ـ بدائع التفسير:

وقد قام بجمعه الشيخ يسري السيد محمد، وجاءت طبعته الأولى في خمسة مجلدات، ولما أراد الناشر[١] إعادة طبعه رغب إليَّ في مراجعته. فقبلت طلبه باعتباره جزءاً من المشروع الذي بدأته في تقريب تراث ابن القيم. وأستطيع تلخيص عملي بالأمور الآتية:

١ ـ تحرير النصوص ممَّا لابسها، والاقتصار على النص المفسر.

٢ ـ بما أن الجمع حصل من كتب متعددة فقد تكرر تفسير بعض الآيات أكثر من مرة، بل بلغ بعض الأحيان التكرار أربع مرات، فكان لا بد من الاقتصار على النص الأوفى.

٣ ـ لم يراعَ في بعض السور ترتيب الآيات، فرتبتُها.

٤ ـ تمَّ توحيد طريقة العرض للنصوص، ولم تكن كذلك في الطبعة الأولى.

٥ ـ استدراك أكثر من مائة نص. . وأمور أخرى.

وقد أصبح الكتاب بعد هذه المراجعة في ثلاثة مجلدات.

---

(١) الناشر لهذا الكتاب دار ابن الجوزي، الدمام.

٣ ـ الضوء المنير على التفسير:

وقد جمعه الشيخ حمد علي الحمد المحمد الصالحي من كتب الإمام ابن القيم، وقد جاء في ستة مجلدات؛ وهو في طريقته لا يختلف كثيراً عن الطبعة الأولى لبدائع التفسير، ولم يحظ بالعناية في الإخراج كالطبعة الأولى لبدائع التفسير.

ثانياً ـ جمع الفقه:

وأما جمع الفقه فقد ظهر بشأنه عملان:

١ ـ التقريب لفقه ابن قيم الجوزية:

وقد قام بهذا العمل الجليل الشيخ بكر أبو زيد، وغايته الدلالة على أماكن البحوث الفقهية في كتبه المطبوعة بحيث إذا أراد الباحث مسألة؛ فإنه يرجع إلى هذا التقريب ليجد اسم الكتاب الذي هي فيه، مع ذكر المجلد والصفحة، وعندما تكون المسألة في عدة كتب فيجد الدلالة عليها في جميع هذه الكتب.

وقد التزم المؤلف ترتيب كتاب «زاد المستقنع» من حيث ترتيب الكتب والأبواب حتى يسهل على الباحث الوصول إلى مبتغاه بسرعة.

وقد وضع قائمة بأسماء الكتب والطبعات التي اعتمدها في هذا التقريب، وبيان عدد صفحات الكتاب.

ولم يكتفِ بفهرس المباحث الفقهية، بل أضاف إلى ذلك بيان مراجع مسائل أصول الفقه وقواعده، والقواعد الفقهية، وكذلك مباحث الفروق، فجاء الكتاب وافياً بغرضه.

على أنه من معوقات الاستفادة من هذا التقريب، أنه لا بد للباحث أن تكون عنده كل هذه الكتب، وبالطبعات نفسها التي اعتمدها المؤلف، وهو أمر قد لا يتوفَّر لكثير من الناس.

٢ ـ جامع الفقه:

وقد قام بجمعه الشيخ يسري السيد محمد ـ صاحب بدائع التفسير ـ وجاء في سبعة مجلدات، وهو جهد طيب مشكور، ولكنه جاء على الطريقة نفسها التي جاءت في بدائع التفسير، حيث أدخل فيه ما ليس من الفقه بالمعنى المصطلح عليه.

وكمثال على ذلك، أسوق ما جاء تحت عنوان: باب المياه:

«مادة الحياة، وسيد الشراب، وأحد أركان العالم، بل ركنه الأصلي، فإن السموات خُلقت من بخاره، والأرض من زبده، وقد جعل الله منه كل شيء حي.

وهو بارد رطب، يقمع الحرارة، ويحفظ على البدن رطوبته، ويرد عليه ما تحلل منه، ويرقق الغذاء، وينفذه في العروق.

وتعتبر جودة الماء من عشرة طرق. . . » وذكرها، ثم قال:

«وإذا اعتبرت هذه الأوصاف، لم تجدها إلا في الأنهار الأربعة: النيل والفرات، وسيحون وجيحون، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **(سيحان وجيحان والنيل والفرات، كل من أنهار الجنة)**.

وتعتبر خفة الماء من ثلاثة أوجه. . . » وذكرها. . ثم تحدث عن الماء البارد وفائدته، وعن الماء الذي ينبع من المعادن، وعن الماء الفاتر في كلام طويل جدّاً، ثم قال:

«ولا يصح في الماء المسخن بالشمس حديث ولا أثر، ولا كرهه أحد من قدماء الأطباء ولا عابوه، والشديد السخونة يذيب شحم الكلى»[1].

هذا ما جاء في باب المياه، رأيت أن ألخصه، بياناً لبعض ما جاء في الكتاب مما لا صلة له بـ «الفقه» من قريب أو بعيد، اللهم إلا استثنينا الجملة التي وردت في آخر النص؛ وهي: «ولا يصح في الماء المسخن بالشمس حديث ولا أثر».

وفي «فضل الصدقة» تحدث بعد الأحاديث الواردة في ذلك

---

(١) جامع الفقه (١/ ٦٥).

عن الفرق بين الشح والبخل، ثم عن حد السخاء، ثم عن نوعي السخاء في صفحات . . ممّا لا علاقة له بالفقه[1].

وأعتقد أن الشيخ يسري لم يستفد من جهود الشيخ بكر أبو زيد، ولو كان استفاد لجاء كتابه رصيناً مقتصراً على المادة الفقهية، ولجاء في أربعة مجلدات كحد أقصى. ومع ذلك فالكتاب يفي بالغرض مع شيء من الصبر للبحث عن المسألة المنشودة.



---

(١) جامع الفقه (٣/ ١٠).

الفصل الخامس

من كلمات ابن القيم

في هذا الفصل نضع بين يدي القارئ بعض كلمات الإمام ابن القيم، وفيها تظهر بلاغته وحكمته:

الانتفاع بالقرآن

قال ابن القيم: إذا أردت الانتفاع بالقرآن، فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله.

الصلاة المقبولة

وقال: الصلاة المقبولة، والعمل المقبول، أن يصلي العبد صلاة تليق بربه عز وجل، فإذا كانت صلاته تصلح لربه تبارك وتعالى، وتليق به، كانت مقبولة.

موقفان

وقال: للعبد بين يدي الله موقفان: موقف بين يديه في الصلاة، وموقف بين يديه يوم القيامة.

فمن قام بحق الموقف الأول، هوَّن عليه الموقف الآخر، ومن استهان بهذا الموقف، ولم يوفِّه حقه، شدد عليه ذلك الموقف.

مُعرِض

وقال: المعرض عن التوحيد، مشرك شاء أم أبى.

والمعرض عن السنة، مبتدع ضال شاء أم أبى.

والمعرض عن محبة الله وذكره، عبدُ الصور شاء أم أبى.

أصول الخطايا

وقال: أصول الخطايا كلها ثلاثة:

- الكبر: وهو الذي أصار إبليس إلى ما أصاره.
- والحرص: وهو الذي أخرج آدم من الجنة.
- والحسد: وهو الذي جرَّأ أحد ابني آدم على أخيه.

فمن وقي شر هذه الثلاثة، فقد وقي الشر، فالكفر من الكبر، والمعاصي من الحرص، والبغي والظلم من الحسد.

قُطَّاع طرق

وقال: علماء السوء جلسوا على باب الجنة، يدعون إليها الناس بأقوالهم، ويدعونهم إلى النار بأفعالهم.

فكلما قالت أقوالهم للناس: هلموا، قالت أفعالهم: لا تسمعوا منهم، فلو كان ما دعوا إليه حقّاً كانوا أول المستجيبين له.

فهم في الصورة أدلاء، وفي الحقيقة قُطَّاع طرق.

طالب ومطلوب

وقال: سافرتَ في طلب الدنيا، وهي عنك زائلة، وقعدت عن السفر إلى الآخرة، وهي إليك راحلة.

احذر الجانب الآخر

وقال: إذا كان الله ورسوله ﷺ في جانب، فاحذر أن تكون في الجانب الآخر، فإن ذلك يفضي إلى المشاقّة والمحادّة، وهذا أصلها ومنه اشتقاقها.

سؤالان

وقال: لا تزول قدما العبد بين يدي الله، حتى يسأل عن مسألتين:

- ماذا كنتم تعبدون؟.

- وماذا أجبتم المرسلين؟.

فجواب الأولى بتحقيق «لا إلٰه إلا الله» معرفة وإقراراً وعملاً.

وجواب الثانية بتحقيق «أن محمداً رسول الله» معرفة وإقراراً وانقياداً وطاعة[1].



(١) هذه المختارات من كلامه، من كتاب «مواعظ الإمام ابن قيم الجوزية»، جمعها صالح أحمد الشامي، نشره المكتب الإسلامي.

الفصل السادس

تأثر ابن القيم بابن حزم والغزالي

كان الإمام ابن القيم واسع الاطلاع، وإنتاجه العلمي دليل على ذلك؛ فهو نتاج ذلك الاطلاع، ويؤكد ذلك ما قام به الشيخ بكر أبو زيد من جمع أسماء الكتب التي ذكرها في مؤلفاته المطبوعة، والتي بلغ تعدادها (٥٦٩)، وهي التي قرأها ورجع إليها، وكانت جزءاً من مكتبته التي اتفق المترجمون له على أنها كانت كبيرة . .

وإذا كان ابن القيم يذكر كتلميذ لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ وهو الذي كان له الأثر في اتجاهه العلمي الذي انتهجه ـ؛ فإن هناك علماء آخرون كان لهم أثر كذلك، وإن لم يكن على هذا المستوى.

وإني أخصُّ بالذكر منهم عَلَمان من أعلام الإسلام، هما: الإمام ابن حزم، والإمام الغزالي رحمهما الله تعالى.

تأثره بالإمام ابن حزم:

للإمام ابن حزم كتاب في الأصول عنوانه «الإحكام في أصول الأحكام».

وللإمام ابن القيم كتاب في الموضوع نفسه عنوانه «إعلام الموقعين».

وما من شك أن قارئ كتاب ابن القيم، سيتذكر كتاب ابن حزم إن كان سبقت له معرفة به واطلاع عليه.

إن جلَّ الأبواب التي جاءت في كتاب «إعلام الموقعين» موجودة في كتاب «الإحكام»؛ ومن ذلك:

١ ـ ذكر الصحابة الذين اشتهروا بالفتوى بأسمائهم، وكذلك ذكر المفتين من التابعين.. والمفتين بالأمصار.

ويحسن أن نذكر أن ابن القيم نقل هذا بكامله عن ابن حزم كما جاء عنده.

٢ ـ أثر القصد والنية في العقود والعبادات.

٣ ـ بحث سد الذرائع.

٤ ـ بحث الاستصحاب.

٥ ـ بحث الاستحسان.

٦ ـ بحث الرأي.

٧ ـ بحث القياس.

٨ ـ بحث التقليد.

٩ ـ بحث الاجتهاد.. وغير ذلك.

إن الكتابين يشتركان في معظم بحوثهما، وليس هذا فحسب، بل إن ابن القيم يذهب في الاتجاه الذي تبنَّاه ابن حزم في غالب ما ذهب إليه، لا تقليداً له، ولكن قناعة بالدليل..

إن البحوث الرئيسة في علم الأصول متفق عليها بين الإمامين وإن كان السبق للإمام ابن حزم من حيث الزمن.

فالموقف من قضايا: الرأي، والقياس، والتقليد، والاجتهاد، وأثر القصد... وغير ذلك؛ موقف واحد لا يخالف فيه ابن القيم ابنَ حزم، بل يسير على خطاه، معتمداً على الدليل.

إن آثار ابن حزم بادية على ابن القيم في اختيار هذه الموضوعات، وفي طريقة مناقشتها، وفي مبحث «القياس» خاصة.. نجد الأدلة وطريقة العرض متشابهة إلى حدٍّ كبير بين الإمامين.

ما من شك في أن ابن القيم أفاد من ابن حزم، ومن كتابه

«الإحكام». . رحمهما الله تعالى، وجزاهما خيراً على ما قدَّماه للإسلام والمسلمين.

تأثره بالإمام الغزالي:

كانت المقارنة السابقة بين كتابين في علم منضبط، له أطره وموضوعاته. . أما حديثنا في هذه الفقرة فهو عن علْم قوامه السلوك، يعتمد على «الحال» و«الذوق» و«المواجيد»؛ تَمثَّل في رجلين، كل منهما عَلَم من أعلام المسلمين، وكل منهما له في هذا الميدان وجود وحضور. . فأنّى لمسكين مثلي أن يتكلم في هذا الميدان، وهو لم يلجْ بابه وإنما رأس ماله ما سمع أو قرأ. . لولا أن الكلام سيعتمد على ما سطره كل منهما في هذا الشأن. .

إنه علم «السلوك» أو «التصوف» أو سمِّه ما شئت.

والإمام الغزالي علم من أعلامه، إن لم يكن علمه، فإذا ذكر التصوف ذكر إلى جانبه الغزالي، وكتابه «الأحياء» هو الأول في هذا الباب.

وما من شك في أن ابن القيم وقف على هذا الكتاب وقرأه، فهو من موارده التي ذكرها في كتبه. . وما من شك في أن تأثره به كان بيِّناً.

ولعلي أسجل هذا التأثر بنقاط تشابه بها موقف الإمامين، أو

التقى فيها المتأخِّر مع المتقدم، أو توافقا عليها، كما يقال، جاء الحافر على الحافر. . المهم أنها نقاط لقاء.

١ ـ كل من الإمامين رأى في التصوف الطريق المختصر الذي يؤدي إلى حقيقة التوحيد[1].

٢ ـ وفي حديثهما عن ضرورة التزوُّد بالعلم لسالك الطريق، يتفقان: بأن من أراد سلوك هذا الطريق، ينبغي أن تكون له قدم راسخة في هذا الميدان، وليس مجرد معلومات أولية.

قال الغزالي: «ومقصود مثل هذا الكتاب ـ الإحياء ـ أن ينتفع به الأقوياء والفحول، ولكنّا نجتهد في تفهيم الضعفاء بضرب الأمثلة ليقرب ذلك من أفهامهم»[2].

وقال ابن القيم: «طريق آمن أكثر السالكين في غفلة عنه، ولكن يستدعي رسوخاً في العلم ومعرفة تامة به»[3].

وإذا كان الأمر كذلك فالجهل عائق دون هذا الطريق، وهل كتب الإمام الغزالي «الإحياء» إلا ليكون نقطة البداية لسالك

---

(١) سيأتي بيان ذلك عند ابن القيم في باب «الإصلاح» عند الحديث عن التصوف.
(٢) إحياء علوم الدين (٣/ ٦).
(٣) طريق الهجرتين، (ص٢١٥)، الطبعة السلفية بالقاهرة.

الطريق.. وهو بعض ما قصده ابن القيم من كتابه «مدارج السالكين».. لتصحيح بعض أخطاء الهروي.

٣ ـ أكَّد الغزالي على ربط هذا العلم بالكتاب والسنة، وساق في ذلك أقوال الجنيد وغيره، وكذلك فعل ابن القيم.

٤ ـ ونصح الغزالي المريدَ بالبعد عن التقليد.. وكذلك فعل ابن القيم.

٥ ـ رأى الغزالي أن بعض المعاني لا قدرة للعبارة والكلمات على شرحها، وقد انتقد على ذلك.. وجاء ابن القيم ليؤكد تجربة الغزالي في مواطن كثيرة، فكثيراً ما كان يتوقف ليقول:

«..فأمر يضيق نطاق التعبير عن حقيقته، ويكلُّ اللسان عن وصفه، وتصطلم الإشارة إليه، وتجفو العبارة عنه»[١].

«لا يناله الوصف، ولا يدخل تحت الشرح»[٢].

٦ ـ ويرى الغزالي أن التصوف قد انمحق، وذلك بسبب قلة المؤهَّلين لسلوكه، فيقول: «والأمور الدينية كلها فسدت وضعفت، إلا التصوف فإنه قد انمحق بالكلية وبطل..»[٣].

---

(١) طريق الهجرتين، ص (٢١).

(٢) المرجع السابق، ص (٤٦).

(٣) إحياء علوم الدين (٢/ ٢٥٠).

وقال ابن القيم في هذا المعنى: «والسالكون على هذا الدرب أفراد من العالم..»[1]، ويعلل سبب ذلك بأنه طريق يتنافى مع غلظ الطبع، فيقول: «ومن غلظ حجابه، وكثف طبعه؛ فهو عن فهم هذا بمعزل»[2].

٧ ـ ويحارب الغزالي تلك الشطحات التي تعلن الكفر، ويرى أن قتل قائلها أفضل في دين الله من إحياء عشرة[3]، بينما يرى ابن القيم أنه يُعْذَر لسكره وعدم تمييزه في تلك الحال[4].

* * *

هذه نقاط عامة وخطوط عريضة.. ويحسن بنا أن نذكر بعض الأمثلة التفصيلية:

المثال الأول: تحدث الإمام الغزالي في الكتاب الأول من ربع المهلكات عن عجائب القلب؛ ومن جملة ذلك: «بيان مداخل الشيطان إلى القلب» حيث فصل هذه المداخل واستوفاها[5].

---

(١) طريق الهجرتين، ص (٢١٥).
(٢) المرجع السابق، ص (٢٠٨).
(٣) إحياء علوم الدين (١/ ٣٦).
(٤) طريق الهجرتين، ص (٢٣).
(٥) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٢)، دار المعرفة.

ونجد أن ابن القيم، على كثرة حديثه في هذا الموضوع، وتعدد أماكن إيراده، لم يخرج عن الإطار الذي رسمه الغزالي.

بل إن حديثه في مجمله عن القلب متأثِّر بما كتبه في هذا الباب.

المثال الثاني: عندما تحدث ابن القيم عن الوسوسة في الصلاة، قال في آخر كلامه: «كما قال أبو حامد وغيره: الوسوسة سببها إما جهل بالشرع، وإما خبل في العقل»[1].

وهذا الكلام هو الذي افتتح به الغزالي حديثه عن الموضوع[2]، ثم كان الشرح بعد ذلك.

وأما ابن القيم فشرح الموضوع أولاً ولخصه بقول الغزالي، فالمحور واحد.

ثم إن عبارة الغزالي جاءت في فصل عنوانه: «مسائل متفرقة»؛ مما يدل على أن ابن القيم قد قرأ «الإحياء» كله حتى هذه الجزئيات.

المثال الثالث: في شأن محاسبة النفس.

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٢٢٢)، دار الكتاب العربي.
(٢) إحياء علوم الدين (١/ ١٩٠)، دار المعرفة.

فقد ضرب الغزالي مثلاً بالتجارة والشركة فيها، فجعل العقل هو التاجر، والعقل يستعين بالنفس ويشركها في عمله، ثم قال:

«وكما أن الشريك يصير خصماً منازعاً يجاذبه في الربح، فيحتاج إلى أن **يشارطه** أولاً، ويراقبه ثانياً، ويحاسبه ثالثاً، ويعاقبه أو يعاتبه رابعاً، فكذلك العقل يحتاج إلى مشارطة النفس . . ».

وبعد أن شرح ذلك قال: «ثم ليستأنف لها ـ للنفس ـ وصية في أعضائه السبعة، وهي: العين والأذن، واللسان والبطن، والفرج، واليد والرجل».

ثم ذهب يتحدَّث عن هذه الأعضاء . . [1].

وقال ابن القيم: «وقد مُثِّلت النفس مع صاحبها بالشريك في المال، فكما أنه لا يتم مقصود الشركة من الربح إلا **بالمشارطة** على ما يفعل الشريك أولاً، ثم بمطالعة ما يعمل والإشراف عليه ومراقبته ثانياً، ثم بمحاسبته ثالثاً، ثم بمنعه من الخيانة إن اطلع عليه رابعاً، وكذلك النفس يشارطها على حفظ الجوارح السبعة . .

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٣٩٤ ـ ٣٩٥).

وهـذه الجـوارح هـي: العيـن والأذن، والفـم والفـرج، واليـد والرجل...»[1].

وهكذا جاء موضوع «محاسبة النفس» عند ابن القيم مطابقاً لما جاء عند الغزالي، في الخطوات، وفي المثال، وفي الأعضاء التي تحتاج إلى الرعاية، بل وفي الألفاظ الرئيسة «كالمشارطة»..

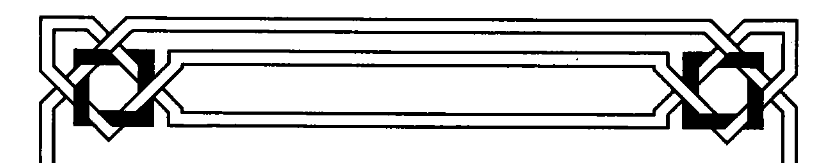
ما من شك في أن بصمات الغزالي واضحة الأثر على ابن القيم في بحوثه التي تتعلق بعلم السلوك، والأمثلة السابقة وغيرها تؤكد ذلك.

فكثير من المصطلحات والكلمات التي جاءت عند الغزالي نجدها ـ أو ما يراد منها ـ عند ابن القيم. ومثل هذا البحث يحتاج إلى دراسة خاصة، ليس هذا مكانها.



---

(١) إغاثة اللهفان (١٤٦/١).



الباب الرابع

منهج التأليف ومميزاته عند ابن القيم



الفصل الأول

أخلاقه وسجاياه

إن البيئة التي ينشأ فيها الإنسان يكون لها النصيب الأوفى في بناء شخصيته، ولقد نشأ ابن القيم في بيت علم وصلاح وتقوى، فقد كانت أسرته مثالاً لمكارم الأخلاق، وكان المكان الذي يتردد إليه منذ صغره هو المدرسة الجوزية؛ حيث كان عمل أبيه، وحيث حلقات العلم، وحلقات السلوك الفاضل، فقد كانت الأخلاق يومئذ تتلقى عمليّاً مع تلقي العلم، فالشيخ يرشد طالبه بسلوكه أولاً ، وبأقواله ثانياً؛ إلى فضائل الأخلاق ، وفي الوقت نفسه يملي عليه العلم.

وفي هذا الجو الذي كان يغمر دمشق كلها بمدارسها الكثيرة، وحلقات العلم التي تملأ المساجد نشأ ابن القيم. . فكان له أوفى نصيب من الخلق الفاضل، كما كان له أوفى نصيب من العلم، فهما صنوان ـ الخلق والعلم ـ لا يصلح أحدهما وحده دون الآخر.

وصف أخلاقه:

لعل أوفى نصٍّ في بيان أخلاقه هو ما سطره الإمام ابن كثير في ترجمته؛ حيث قال:

«وكان حسن القراءة والخلق، كثير التودد، لا يحسد أحداً، ولا يؤذيه، ولا يستعيبه، ولا يحقد على أحد.. وبالجملة: كان قليل النظير في مجموعه وأموره وأحواله، والغالب عليه الخير والأخلاق الصالحة، سامحه الله ورحمه»[1].

رحم الله ابن كثير فقد كان بليغاً في قوله، حيث جمع في هذه الكلمات القليلة كل الأخلاق الفاضلة. ولعل الذين ترجموا للإمام استغنوا بما ذكره ابن كثير؛ فلم يتعرضوا لذكر هذا الجانب من شخصية ابن القيم، أو لعلها كانت من الشهرة والوضوح بحيث لا تحتاج إلى تسجيل.

الجرأة والإعجاب بالرأي:

ونقل الشوكاني عن الذهبي قوله: «ثم تصدر للاشتغال، ونشر العلم، ولكنه معجب برأيه، جريء على الأمور».

ويعلق الشوكاني على هذا القول، فيقول:

---

(١) البداية والنهاية (١٤/ ٢٣٤).

«قلت: بل كان متقيِّداً بالأدلة الصحيحة، معجباً بالعمل بها، غير معول على الرأي، صادعاً بالحق، لا يحابي فيه أحداً، ونعمت الجرأة»[1].

أجل لقد كان ابن القيم كذلك؛ لأنه يملك الدليل على ما ذهب إليه، وهذا الذي يفسر جرأته، فالدليل هو السلاح الفعَّال في ميدان العلم، والدليل هنا هو الكتاب والسنة.. فإذا كان ابن القيم يملك هذا الدليل في مواجهة خصمه الذي دليله قال فلان وقال فلان.. فكيف لا يكون جريئاً؟! وكيف لا يكون معجباً بما ذهب إليه؟!.

وقد جاء بعض هذا الوصف عند ابن حجر في «الدرر الكامنة»؛ إذ قال: «وكان جريء الجنان».

والجرأة في الحق من الأخلاق الفاضلة، بل هي نمط من الجهاد الذي أمر به المسلمون.

التواضع:

التواضع صفة العلماء العاملين، وبخاصة أولئك الذين اتسعت دائرة معارفهم. إذ كلما اتسعت دائرة علم الإنسان، كلما كبر علمه

---

(١) البدر الطالع (٢/ ١٤٣).

بعظم جهله[1]، وهذا ما يدعوهم إلى خفض الجناح والخشية لله تعالى.

وابن القيم عالم متواضع، يدل على ذلك كلماته في مقدمات كثير من كتبه، أو في ختام هذه الكتب.

وقد ذكر الصفدي في آخر ترجمته أبياتاً له، وقال: «أنشدني من لفظه لنفسه» وذكر تلك الأبيات[2]، وقد ذكرها أيضاً ابن حجر في ترجمته له، وهي تدل على التواضع الجم، وفيها يقول:

بني أبي بكر كثير ذنوبه
فليس على من نال من عرضه إثم
بني أبي بكر جهول بنفسه
جهول بأمر الله أنى له العلم
بني أبي بكر غدا متصدِّراً
يعلّم علماً وهو ليس له علم
بني أبي بكر غدا متمنِّياً
وصال المعالي والذنوب له همّ

---

(١) انظر في بيان ذلك: «التربية الجمالية في الإسلام»، ص (١٣٨)، للمؤلف، نشره المكتب الإسلامي.
(٢) الوافي بالوفيات (٢/ ١٩٦).

وقد نتج عن هذه الطريقة التي اتبعها ابن القيم في تأليفه ـ والتي سبق عرضها ـ أمورٌ أهمها:

١ ـ غياب كثير من الموضوعات في ثنايا الكتب، حيث لا دليل عليها من عنوان أو فهرس أو مقدمة.

٢ ـ تكرار الموضوع الواحد في أكثر من كتاب.

٣ ـ تكرار الموضوع الواحد في مكانين أو أكثر من الكتاب الواحد.

٤ ـ ذكر بعض الموضوع في كتاب، وبعضه الآخر في كتاب آخر.

الأمر الذي يضيع وقت القارئ في بعض الأحيان، ويتعبه في بعضها الآخر، إذا أراد تتبع الموضوع والبحث عنه في أماكن وجوده.

وإزاء هذا الواقع، وفي وقت قامت فيه التخصُّصات في كل ميدان، كان من المستحسن أن يقدم هذا التراث على أساس موضوعي حتى يتاح للقارئ الاستفادة منه بيسر وسهولة.

ولا يتم ذلك إلا بما يمكن أن أسميه «الفرز الموضوعي»؛ حيث تجمع مادة الموضوع الواحد من الكتب التي ذكر فيها، ثم

يتم التنسيق بين المادة المجموعة بعد ذلك، وتخرج في كتاب مستقل يحمل عنوان الموضوع محل الجمع .

ومن أمثلة ذلك ما سبق عنه الحديث عن كتاب «قل انظروا» .

❑ ❑ ❑

الفصل الثاني

مميزات وخصائص مؤلفاته

ذكر الشيخ بكر أبو زيد تحت عنوان «منهجه في البحث والتأليف» عدداً من الخصائص والمميزات، وأطال في شرحها وساق الأدلة عليها، وسوف أسرد عناوينها كما جاءت عنده، ثم أتوقف بعد ذلك لبيان بعضها.. إذ بعضها الآخر ليس محلَّ نقاش، فكل من عرف ابن القيم يعرفه بها.

قال: «حصل بالتتبع جوانب مهمة في هذه الخصائص؛ منها ما يلي:

الأولى: الاعتماد على الأدلة من الكتاب والسنة.

الثانية: تقديم أقوال الصحابة رضي الله عنهم على من سواهم.

الثالثة: السعة والشمول.

الرابعة: حرية الترجيح والاختيار.

الخامسة: الاستطراد التناسبي.

السادسة: مظهر الانطباع بتفهُّم محاسن الشريعة وحكمة التشريع.

السابعة: عنايته بعلل الأحكام ووجوه الاستدلال.

الثامنة: الحيوية والمشاعر الفياضة بأحاسيس مجتمعة.

التاسعة: الجاذبية في أسلوبه وبيانه.

العاشرة: حسن الترتيب والسياق.

الحادية عشرة: ظاهرة التواضع والضراعة والابتهال.

الثانية عشرة: التكرار». اهـ.

والذي أرى أنني بحاجة إلى الوقوف عنده من هذه الخصائص هو: الثالثة، والخامسة، والعاشرة، والثانية عشرة.

* * *

أما السعة والشمول:

فهي محل اتفاق من دارسي منهج الشيخ، وسوف يكون الحديث عنها في الفصل الرابع من هذا الباب تحت عنوان «العالم الموسوعي».

وأما الاستطراد التناسبي:

فهو من خصائص أسلوبه في التأليف، وقد شارك شيخه في ذلك، وهو يعتبر ذلك من الجود والكرم في العلم الذي امتاز به شيخه شيخ الإسلام، وهو ـ في هذا ـ يسير على طريقة شيخه.

وقد أثنى الشيخ بكر على هذه الطريقة في الأسلوب، فقال:

«الاستطراد في البحوث العلمية يجعل البحث كمائدة عليها ألوان من الطعام الشهي اللذيذ، فهو أمر محبب إلى النفس تأخذ به راحة ومتنفساً، يشد بها إلى متابعة القراءة للبحث.

والاستطراد: يزيد المبحوث وضوحاً ويكشف عنه في كثير من جوانبه.

والاستطراد: يكسب القارئ معرفة الارتباط بين العلوم الإسلامية ومدى اشتباكها ببعض.

والاستطراد التناسبي ليس كل عالم يستطيعه، ولا كل مؤلف يطيقه، فهو لا يأتي إلا من أكابر الحفاظ وأوعية العلم الذين تموج قرائحهم وأذهانهم بشتى العلوم والمعارف»[1].

---

(١) التقريب لفقه ابن قيم الجوزية، ص (٨٥).

وهذا كلام جميل ولكنه ليس على إطلاقه . .

فالاستطراد يكون مقبولاً عندما لا يزيد عن صفحة واحدة ، وكلام الشيخ بكر ينطبق عليه، أما عندما يكون الاستطراد عشر صفحات . . بل عشرات الصفحات ـ كما سأوضح ذلك في فصل قادم ـ فهذا له آثاره السلبية وإن كانت له بعض المحاسن التي سبق ذكرها .

وأهم هذه الآثار : انقطاع تسلسل الموضوع ـ محل البحث ـ في ذهن القارئ، وهو أمر يعرقل استيعاب الموضوع الأصلي واستكمال تصوره .

هذا إذا عرف القارئ أنه أمام استطراد، وعرف أوله وآخره، ولكن المشكلة أن ابن القيم بأسلوبه البديع يجعل القارئ مسترسلاً معه . . الأمر الذي لا يساعده على معرفة أنه أمام استطراد . . وهنا سيضيع القارئ وبخاصة إذا كان الاستطراد طويلاً .

وأمر آخر يحسن ذكره، وهو أن هذا الأسلوب ربما كان مقبولاً أيام ابن القيم، يوم كان طالب العلم يصرف وقته كله للعلم . . أما في أيامنا هذه فليس الأمر كذلك . . وحيث وحدة الموضوع تعدُّ من أهم خصائص البحث .

وأما حسن الترتيب والسياق:

فإن كان المقصود به عرضه للمسألة الواحدة، ومناقشة أدلتها، فهذا أمر متفق عليه[1].

وأما إن كان المقصود وصف مؤلفاته، كل مؤلف على انفراد بذلك، فهو أمر فيه نظر، وسوف يكون الحديث عن هذا الجانب عندما أعرض لبعض كتبه بالتحليل.

وكيف يلتقي حسن الترتيب والسياق مع ما سبق ذكره في الفصل الأول من هذا الباب من أقوال الدكتور صبحي الصالح والشيخ بكر، نفسه، وقول المؤلف؟.

ولم يأتِ الشيخ بكر بما يؤيد قوله عندما عرض الموضوع، وإنما انصبَّ اهتمامه في الرد على من قال: إن ابن القيم أحسن ترتيباً من شيخه.

وإذا كانت مسألة «حسن الترتيب والسياق» محل بحث بشكل عام، فإن بعض كتب الإمام ذات الموضوع الواحد جاءت على غاية من الترتيب وحسن الإخراج، وفي مقدمتها كتاب «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين».

ففي هذا الكتاب، وفي مقدمته نجد المؤلف يذكر مخطط

---

(١) وانظر في ذلك ما ذكرته عن «المثال الموسوعي».

الكتاب وعدد أبوابه؛ وكلها ضمن الموضوع الذي حدده عنوان الكتاب.

ولذا فإنه يعد من أفضل كتبه من حيث موافقة الشكل للمضمون، والتزامه بالموضوع وعدم الخروج عليه، واستيعابه للأفكار المتعلقة بالبحث، فهو «موسوعي» بكل معنى الكلمة، يضاف إلى ذلك خلوه من الاستطرادات.

والذي جعل هذا الكتاب كذلك، هو وضع المؤلف لمخطط البحث مسبقاً كما جاء في المقدمة.

ومثل «عدة الصابرين» كتاب «جلاء الأفهام»؛ فإن المؤلف اتبع في تأليفه الأسلوب نفسه..

ومثله ـ أيضاً ـ كتاب «حادي الأرواح» فإن المؤلف ذكر أبوابه في المقدمة والتزم بها. ولم يخرج عن الموضوع..

وأما التكرار:

فهو أمر مشاهد، قد يتكرر الموضوع في عدد من كتبه، وقد يتكرر في الكتاب الواحد وهو أمر سببه طريقة ابن القيم في التأليف.

وهو أمر قد نبرره للشيخ رحمه الله.. أما الثناء عليه فأمر ينبغي التوقف عنده.

قال الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله في رده على منتقدي هذه القضية بقوله:

«القارئ لكتاب الله تعالى يجد أن الله سبحانه وتعالى يكرر ويعيد ذكر قصص الأولين وبعض الأحكام في الدين، لا سيما آيات التوحيد والبعث والنشور والبراهين على ذلك، لحكم بالغة وأسرار جليلة:

منها: الزيادة في العظة والاعتبار، كما في تكرار قصص الماضين.

ومنها: الزيادة في تثبيت الإيمان وتقويته كما في آيات إثبات التوحيد بأنواعه، توحيد الربوبية والإلٰهية والأسماء والصفات.

ومنها: التأكيد على إزالة ما علق بالأفهام من الأوهام من أوضار الوثنية كما في آيات توحيد العبادة.

ومنها: الزيادة في تأكيد الحكم وتثبيته وبالغ أهميته كما في آيات الصلاة والحج والزكاة والصيام وغير ذلك في أحكام الإسلام.

وبالجملة فهو مظهر من مظاهر الإعجاز والبيان في القرآن.

وهكذا يقال في السنة المطهرة.

وأما في مؤلفات السلف، فإنا نجد هذه الظاهرة تحتلُّ الصدارة

في أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى، وهو صحيح الإمام البخاري، فإن الحديث يراه الناظر فيه مكرراً في مواطن عدة يصل بعضها إلى عشرة مواطن أو أكثر.

وقد تجاذب الدارسون له ذلك بالشرح، بين القدح والمدح، وانتهى المطاف لدى المحققين من أهل العلم، على أن التكرار لم يكن عن ذهول وعفو خاطر، بل هو عن دقة في الفقه، وفقه في النفس، ومقاصد شريفة اقتضت التكرار، على ذلك استقرت كلمة العلماء في مكرراته.

ومثله في كتب السنة كثير، لكن التكرار في صحيح البخاري أظهر والله أعلم.

وهكذا نقول بالنسبة إلى ما لدى ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ من التكرار. .»[1].

هذا ما قاله الشيخ بكر رحمه الله.

وكنت أتمنَّى ألا يكون سياق الموضوع بهذا الشكل، فتشبيه سياق ابن القيم بكلام الله وبالسنة أمر فيه نظر، بدليل أن كل ما ذكره بشأن التكرار في القرآن أمر مسلَّم. وهناك حكم أخرى

---

(١) التقريب لفقه ابن قيم الجوزية، ص (١٠٠ ـ ١٠١).

كثيرة لم يذكرها أيضاً . . ولكن ليس في التكرار عند ابن القيم أي واحد منها . .

وأما الحديث عن التكرار عند الإمام البخاري؛ فمن المعلوم أن التبويب عند البخاري قائم على أساس فقهي، وعندما يكون في الحديث أكثر من حكم فإن الضرورة تقتضي تكراره للاستشهاد به، وهذا أيضاً سبب تقطيع الحديث عنده.

وإني ممن يحب ابن القيم ويجلّه، كما أني معجب به وبفكره، ولكنه ليس بالمعصوم كما قال تلميذه ابن رجب رحمهما الله تعالى.

وإني سأبين في الفصل القادم أسباب ما انتقد عليه ابن القيم من أمر التكرار وغيره.

ومع ذلك فليس هناك اتفاق على معنى التكرار، والمسألة نسبية، ولإيضاح ذلك أضرب المثال التالي:

في كتاب «التبيان في أقسام القرآن» عندما وصل المؤلف إلى الحديث عن الأقسام الواردة في سورة الذاريات، وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾ . . . ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أراد أن يصل الحديث فيما بينها، ومن جملة ما بينها قوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾.

وهنا توقف المؤلف ليشرح هذه الآية الكريمة، ويبين ما في النفس من آيات الله، فلم يترك عضواً من أعضاء الإنسان إلا وتحدَّث عنه.. وقد استغرق الحديث على شرح هذه الآية الكريمة ثلث الكتاب بكامله.

والناس هنا فريقان:

فقد رأى بعضهم أن الحديث عن آيات الله في الأنفس هنا تكرار لما ورد في أماكن أخرى من كتبه، لأنه جاء هنا استطراداً.

ورأى بعضهم الآخر أن هذا الموضوع جاء في مكانه وفي سياقه ضمن الآيات، فهو ليس تكراراً. فالسياق يقتضيه.

وهكذا تختلف وجهات النظر..

على أن هناك بعض الموضوعات التي تكررت بشكل ملفت للنظر، كموضوع «الحيل» و«الطلاق» وغيرهما.. قد لا نجد ما يبررها.



الفصل الثالث

طريقة ابن القيم في التأليف

طريقته في التأليف:

سبق الحديث عن منهج ابن القيم في التأليف، وعن مميزات تأليفه، وهو مبحث يقوم على توصيف الواقع، ثم التعليق على ذلك إيجاباً أو سلباً.

ولم أرَ من حاول بيان طريقته في التأليف، وأعتقد أنا إذا عرفنا ذلك انحلت كل الإشكالات التي أثيرت حول تأليفه من تكرار واستطراد وغير ذلك.

ولقد عشت مع كتب الإمام مدة غير قصيرة، وقرأت كثيراً منها كلمة كلمة، مما يتيح لي أن أدلي برأيي المتواضع حول هذه القضية.

* * *

جرت العادة لدى الكُتَّاب والمؤلفين والباحثين، أنهم إذا أرادوا الكتابة في موضوع ما، وضعوا «خطة للبحث» تكون دليلهم في سيرهم. .

وهذه الخطة ذات فوائد كبيرة في ضبط العمل، وتصوره بشكل كلي قبل البدء به، وقد قال الإمام الغزالي: «آخر الفكرة أول العمل».

إن من أراد أن يبني منزلاً، لا يباشر العمل إلا بعد استكمال مخططاته، وتصوره في الذهن. . ثم يكون العمل. . وكذلك التأليف والكتابة.

* * *

بعد هذه المقدمة أقول: إن ابن القيم جرى في كتبه على طريقتين في تأليفه:

الأولى: وهي التي التزم فيها الطريقة السابقة، طريقة المؤلفين عامة؛ حيث كان يعد خطة البحث كاملة، ثم يبدأ العمل.

وقد اتبع هذه الطريقة في الكتب ذات الموضوع الواحد، فقد وجدناه في كتاب «عدة الصابرين» يضع مخطط البحث في المقدمة؛ فيقول: «وقد جعلته ستة وعشرين باباً وخاتمة».

وكذلك في كتاب «حادي الأرواح»؛ حيث قال: «وهذا كتاب

اجتهدت في جمعه وترتيبه، وتفصيله وتبويبه. . وقد قسمت الكتاب سبعين باباً» وذكر الأبواب.

وهذان الكتابان يدلاًن دلالة واضحة على أن بقية كتبه لم تؤلف بهذه الطريقة، وإلا لكان ذكر ذلك، كما فعل هنا.

ويلحق بالطريقة الأولى: أن يكون الكتاب ذا موضوع واحد، ولكن المؤلف يكتفي بالإعداد الذهني الذي لا يدخل في الجزئيات ويكتفي بالخطوط العريضة.

وهذا ما فعله ابن القيم في كتابه «جلاء الأفهام»؛ حيث اكتفى في مقدمته بقوله: «هذا كتاب سميته: جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام، وهو خمسة أبواب».

فلم يذكر أسماء الأبواب ولا تقسيماتها، واكتفى بهذه الإشارة إلى أن المخطط واضح المعالم في ذاكرته.

ولقد جاء الكتاب على غاية من الترتيب وفقاً للأبواب التي أشار إليها، ولكنه ونتيجة لعدم المخطط التفصيلي، فاته بحث موضوع ذي أهمية خاصة بالنسبة لهذا الكتاب، وهو تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وكان قد وعد بذلك عندما قال: «وسنعود إلى هذه المسألة إن

شاء الله تعالى في الكلام على تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾»[1].

ولكنه لم يأت على تفسير الآية الكريمة، كما وعد، ولقد قرأت الكتاب أكثر من مرة، ولم أجد لها فيه تفسيراً.

علماً بأن هذه الآية الكريمة ينبغي أن تكون العمود الفقري للكتاب، والمحور الذي يدور حوله.

وهذا دليل على أن العمل الذهني في مثل هذا الموضوع قد لا يكون سليم النتائج.

* * *

وأما **الطريقة الثانية** التي سلكها ابن القيم في تأليفه كخط عام والتي كتب فيها الكتب الكبار، كزاد المعاد، وإعلام الموقعين وغيرهما.. فالذي أراه:

وهو ما دار في خلدي، ثم غلب على ظني، ثم أكاد أجزم به: أن ابن القيم إذا أراد أن يكتب كتاباً، انقدحت فكرته في ذهنه، فإنه يحدد الموضوع في فكره، ثم يأخذ القلم، ثم يبدأ الكتابة.. إلى أن ينتهي منه.

يساعده في ذلك: ذهن وقّاد، وعلم غزير متدفق، وذكاء

---

(١) جلاء الأفهام، طبعة دار الكلم الطيب، ص (١٢٥).

متألق، وثقافة واسعة قلَّ نظيرها.. كل ذلك ساعده على هذه الطريقة في التأليف، التي لا يتعامل بها إلا الكبار من العلماء من أمثال ابن القيم وشيخه شيخ الإسلام ابن تيمية.

وفي مثل هذه الطريقة، يُعذر المؤلف إذا تكررت لديه الأفكار، ويعذر في الاستطراد، فهو ليس لديه خطة يلتزم بها، يضبط بها التزامه بالموضوع.

إن هذا الذي ذهبت إليه قد لا يقبله كثير من الناس، ولكن الدلائل تشير إلى هذا.

١ ـ منها: أنه كثيراً ما يضع تقسيماً لمسألة، ثم يذكر بعض هذه التقسيمات ولا يذكر بعضها الآخر، وقد مرَّ معي مثل ذلك في مواطن من كتبه، وقد يكون ما تركه هو الأكثر أهمية.

٢ ـ ومنها: أنه عندما تكلَّم في كتابه «زادِ المعاد» عن السيرة النبوية لم يكن ملتزماً بالترتيب المعهود؛ فقدَّم وأخَّر، ولو كان المخطط بين يديه لما حصل هذا، وسوف أذكر ذلك تفصيلاً في الفصل القادم إن شاء الله تعالى.

٣ ـ ومنها: أن الغرض الذي يقصده المؤلف من الكتاب، إنما يشير إليه في مقدمته حتى تتضح في ذهن القارئ صورة الهدف، ولكنا في كتاب «زاد المعاد» نجد ذلك بعد أكثر من مائتي صفحة، وفي سياق الكلام.. مما قد لا ينتبه إليه القارئ.

وهو قوله: «وليس مقصودنا إلا ذكر هديه ﷺ الذي كان يفعله هو..»[1].

٤ ـ وهناك مؤيدات أخرى سيأتي ذكرها ـ إن شاء الله تعالى ـ في الباب التالي عند حديثنا عن بعض كتبه.

* * *

وإني عندما أذكر ما جاء في هذا الفصل فإنما أذكره من باب الإعجاب والإكبار، فمن كانت هذه طريقة تأليفه، لا يقدح به تلك الانتقادات التي تتعلَّق بالشكل لا بالموضوع.

ووصفي لتراثه بما سبق ذكره ـ وما سوف يأتي ـ لا يدخل في باب النقد، بل هو من توصيف الواقع، والصدق في هذا التوصيف أمر واجب، وحبُّنا لابن القيم لا يدفعنا إلى محاباته في نقل ما انتقد عليه ليكون في عداد ميزاته، وهو أمر لا يقبله ابن القيم لأنه لا يتمشَّى مع منهجه وسلوكياته.

وهنا ينبغي أن أذكر بأمر قد لا يكون غائباً عن ذهن القارئ، وهو أن المدة التي عاشها ابن القيم هي ستون عاماً، وكان اتصاله بشيخ الإسلام وله من العمر واحد وعشرون عاماً، ومن المؤكد أنه لم يتصدَّى للتأليف في بدء تعرفه على الشيخ؛ فهو لم يكن قد بنى

---

(١) زاد المعاد (١/ ٢٧٥).

شخصيته العلمية، ولنفترض أنه بدأ التأليف في الخامسة والعشرين من عمره، فهذا يعني أنه قضى في التأليف خمسة وثلاثين عاماً، وإذا كان عدد كتبه قرابة المائة، فيكون إنتاجه كل عام ثلاثة مؤلفات، علماً بأن بعض هذه المؤلفات تتكون من عدة مجلدات.

فمن كان لديه هذا الإنتاج الضخم، هل لديه من الوقت ما يسمح بوضع الخطط لبحوثه؟ وهي عملية تجميلية في غالب الأحيان. . إن وقته أثمن من ذلك، وهذا ما يّؤيد ما ذهبت إليه من طريقة تأليفه، رحمه الله تعالى.

طريقته في معالجة البحوث:

لم يسلك ابن القيم الطرق التقليدية التي سلكها العلماء من قبله في عرضه للبحوث التي قدمها.

- فنحن لا نجد له كتاباً في التفسير - على طريقة المفسرين - وقد تمنَّى أن يتاح له الكتابة في ذلك، ولو فعل لكان تفسيراً من نمط جديد على طريقة ما كتبه في المعوذتين.

- كما لم نجد له كتاباً في الحديث. . وإنما هي تعليقات. .

- ولم يكتب كتاباً في الفقه، وعندما كتب فقه العبادات، كتبه بلغة السيرة والإخبار عن فعله ﷺ.

إنه خروج على النمطية التي تعارف عليها العلماء، وأسلوب جديد في عرض المعلومات، ، كأني بابن القيم وقد رفض التقليد حتى في أسلوب تقديم العلم للناس.

فها هو تقديمه للفقه يقدمه هدياً نبويّاً في العبادات وفتاوى وأقضية للرسول ﷺ في المعاملات.. ولا نجد فيما قدمه مصطلحات: الأركان والفروض والسنن والمبطلات..

وفي السيرة قدم الخبر ليقف بعده ويضع بين أيدينا الفقه المستفاد من الحدث..

وعندما ننظر في أسلوبه بشكل عام نجده يهدف إلى ربط المسلم بالنبي ﷺ مباشرة، فالعبادات يتعلمها من فعله، والفقه استنتاج من سيرته، وفي البحوث العلمية الدليل هو الكتاب والسنة..

إن هذا الأسلوب الذي اختطَّه لنفسه جعل كتبه عصية على التصنيف المكتبي، ولذلك فكثير من كتبه يمكن تصنيفها تحت أكثر من عنوان.

طريقة الاستفادة من تراثه:

وبعد: فقد ترك ابن القيم تراثاً قلَّ نظيره، فيه من الدرر الثمينة الشيء الكثير، ولا بد من الغوص لاستخراج هذه الدرر.

وقد رأينا المحاولات التي بُذِلت في سبيل ذلك، في محاولة جمع تفسيره، ومحاولة جمع فقهه.

على أن إبراز هذا التراث العظيم وجعله في متناول الناس يحتاج إلى جهود متأنية، صابرة على البحث، تتعامل مع كل كتاب بما يتناسب معه، في سبيل إيصال ما فيه من خير إلى عامة الناس.

وقد بذلتُ جهدي في أن أكون واحداً ممن يسهم في هذا المشروع، وهو ما سوف أتحدَّث عنه في الباب القادم، وأرجو الله أن يساعدني في أن لا يكون حديثاً عن النفس، وإنما حديث عن التراث، لإعطاء فكرة واضحة عن الكتب التي يسَّر الله لي إخراجها لجعل هذا التراث في متناول الجميع، وبخاصة طلاب العلم، وألا يكون حكراً على العلماء.

وقد جاء هذا الجهد تحت عنوان «تقريب تراث الإمام ابن القيم»، وصدر منه حتى الآن خمسة عشر كتاباً.



الفصل الرابع

العالم الموسوعي

قال ابن حجر ـ في الدرر الكامنة ـ: «وكل تصانيفه مرغوب فيها بين الطوائف، وهو طويل النَّفَس فيها، يتعانى الإيضاح فيسهب».

وقال الأسنوي ـ فيما نقله ابن حجر ـ: «وكان أجمع من رأينا للعلوم مع الاتساع فيها».

وقال الشوكاني ـ في البدر الطالع ـ: «وإذا استوعب الكلام في بحث وطوَّل ذيوله؛ أتى بما لم يأتِ به غيره».

وقال الشيخ بكر أبو زيد: «إن ابن القيم إذا بحث مسألة من المسائل، أو نازلة من النوازل، استوعب الكلام فيها من جميع جوانبها بسياق الأقوال والآراء، وإبراز أدلتها، وبيان وجوه الاستدلال منها، ثم يتبعها بمناقشتها، ثم ينتهي به المطاف إلى اختيار القول الذي يدعمه الدليل السالم من العارض، مؤيداً له بما يسنده من وجوه الأدلة العقلية والنقلية».

«وهذا أسلوب موسوعي، لا يطيقه إلا من كان على شاكلته ـ رحمه الله تعالى ـ، ولهذا فإنَّا نرى كثيراً من أهل العلم يفردون الكثير من مباحثه في ثنايا كتبه في رسائل مستقلة، إيماناً منهم بما تحويه من السعة والشمول»[1].

* * *

إنها كلمات تعبر عن سعة علم هذا العالم، وعادة يوصف أمثاله بـ «الموسوعي»، وهذه الكلمة قد يوصف بها العالم، وقد يوصف بها «البحث»؛ فتقول: بحث موسوعي، بمعنى أنه استوفى كل لوازمه واستجمع أطرافه، بحيث يكون لا مزيد عليه.

والإمام ابن القيم بهذا المعنى «موسوعي»، وكثير من بحوثه «موسوعية».

* * *

العالم الموسوعي:

عندما ننظر في قائمة كتب هذا الإمام، نجد أمامنا جميع علوم عصره، وقد كتب فيها وألَّف..

والكتابة في علم إنما تكون بعد التمكُّن فيه.

---

(١) ابن قيم الجوزية، لبكر أبو زيد، ص (٩٤).

إننا ـ هنا ـ أمام العالم المفسِّر والمحدث والفقيه والأصولي.

وأمام اللغوي والنحوي والأديب والشاعر.

وأمام الإمام صاحب الأذواق والمواجيد الصحيحة وهو صاحب الكتب في التصوف والرقائق.

وقد كتب في الطب.. وتطرق إلى الكيمياء.

وكتب في الحب.. والأديان والفِرق.

وكتب في الفروسية والفراسة.

وكتب عن الروح والنفس والقلب..

وبمثل هذا يكون العالم موسوعيّاً..

* * *

البحوث الموسوعية:

إن البحوث الموسوعية التي كتبها الإمام ابن القيم قد يكون من الصعب إحصاؤها؛ فهي منتشرة في ثنايا كتبه.

بل إن بعض كتبه خصصها لكتابة موضوع واحد، من ذلك:

١ ـ كتاب **«عدة الصابرين»**: الذي تحدث فيه عن الصبر، فلم يترك فيه مزيداً لمستزيد، فتناول في حديثه الكلام عنه لغة وحقيقة، وذكر أسماء الصبر، والفرق بينه وبين التصبُّر..

وتحدث عن أقسامه ـ بأكثر من اعتبار ـ وعن درجاته، وفرق بين صبر الكرام، وصبر اللئام، وبيَّن الأسباب المعينة عليه، وأنه شاق على النفوس.

كما ذكر ما ورد فيه من الآيات والأحاديث والآثار..

وذكر أن الصبر نصف الإيمان.

وتكلَّم عن الأفضل من الصبر والشكر والأقوال في ذلك.

وبيَّن الأمور المضادة للصبر.

وختم الكتاب بالحديث عن أن الصبر والشكر من صفات الله عز وجل.

هذه بعض الموضوعات التي جاءت في هذا الكتاب، وما أعتقد أن أمراً يخطر على البال يتعلق بالصبر إلا وذكره، وهذه هي صفات البحث الموسوعي، الذي يكفيك ويغني عن غيره.

٢ ـ **كتاب «الروح»**: وهو كتاب فريد في بابه، يستوفي الحديث عن الروح، فيتحدَّث عن الموت وما بعد الموت، وكيف تكون الروح في المدة الفاصلة بين الموت والنفخ في الصور؛ حيث يقوم الناس لرب العالمين.

إنه بيان لخطة السير لقطع المسافة بين نهاية الحياة الدنيا، وبين بداية اليوم الآخر.

وهو يجيب على كل الأسئلة التي تدور في خلد الإنسان حول هذه الرحلة، وذلك في ضوء الكتاب والسنة. .

كما يتحدث عن حقيقة النفس، وعن النفس والروح، وهل الروح قديمة أو محدثة، وأيهما خلق أولاً الروح أم الجسد؟.

ويكفينا في الدلالة على استيعاب المؤلف للبحث من كل جوانبه ما ذكره في المسألة الخامسة عشرة من قوله:

«فهذا ما تلخَّص لي من جمع أقوال الناس في مصير أرواحهم بعد الموت، ولا تظفر به مجموعاً في كتاب واحد غير هذا البتة»[1].

إن المؤلف يختصر الطريق على القارئ ويريحه من عناء البحث بكلماته هذه، ويبين أن كل ما قيل فيها بين يديه؛ وهل مهمة الموسوعات إلا هذا؟!. .

* * *

أكتفي بذكر هذين المثالين مما يتعلق بالكتب.

ومن الكتب التي أفردها المصنِّف لبحث مسألة واحدة أو موضوع واحد: «اجتماع الجيوش الإسلامية»، وكتاب «الجواب

---

(١) الروح، نشره المكتب الإسلامي، ص (٩٠).

الكافي»، وكتاب «التبيان في أقسام القرآن»، وكتاب «حادي الأرواح»، وكتاب «أحكام أهل الذمة» وغيرها.

وهي بهذا المعنى كتب موسوعية لاستيفائها القول حول «الموضوع» محل البحث.

* * *

وأما المسائل والموضوعات التي بحثها الإمام بحثاً موسوعيّاً فهي كثيرة، وفي كتاب «إعلام الموقعين» عدد غير قليل منها. وفي كتبه الأخرى الكثير الكثير، وأشير إلى بعض عناوين هذه المسائل:

١ ـ بحوث «الطلاق» لو جمعت من كتبه ونسقت، لكانت مرجعاً لكل باحث لا مزيد عليه.

٢ ـ مبحث «التحسين والتقبيح العقليين» الذي جاء في كثير من كتبه؛ ومنها «مفتاح دار السعادة» و«شفاء العليل» و«مدارج السالكين»، لو جمع ونسق لكان مرجعاً في موضوعه.

٣ ـ شرحَ كتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه في القضاء الذي جاء بـ (٤٨٥) صفحة من كتاب «إعلام الموقعين».

٤ ـ موضوع «الحيل» الذي جاء في (٣٥٠) صفحة في «إعلام الموقعين»، وفي كتاب «إغاثة اللهفان» بأكثر من (٦٠) صفحة،

وفي كتبة الأخرى.. وما نعتقد أنه يمكن أن يضاف شيء إلى ما ذكره ابن القيم.

٥ ـ موضوع «الجنة التي أُهبط منها آدم» جاء في «حادي الأرواح» في أكثر من أربعين صفحة، وجاء في كتاب «مفتاح دار السعادة» في سبعين صفحة.. وقال في آخره بعد أن ذكر حجج الفريقين:

«فهذا موقف نظر الفريقين، ونهاية إقدام الطائفتين، فمن كان عنده فضل علم في هذه المسألة فَلْيَجُدْ به، فهذا وقت الحاجة إليه، ومن علم منتهى خطوته، ومقدار بضاعته، فليكل الأمر إلى عالمه، ولا يرضى لنفسه بالتنقيص والإزراء عليه، وليكن من أهل التأوُّل الذين هم نظارة الحرب إذا لم يكن من أهل الكر والفر والطعن والضرب، فقد تلاقت الفحول، وتطاعنت الأقران، وضاق بهم المجال في حلبة هذا الميدان»[١].

وفي هذا الكلام ما فيه من الدلالة أنه استوفى الموضوع ولم يبق فيه مقال لمتكلم، وهذه طبيعة البحوث الموسوعية.

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٧٤).

ومن المواطن التي استقصى فيها :

ـ ذكر مواطن الصلاة على النبي ﷺ في «جلاء الأفهام» حيث بلغت (٤٣) .

ـ وذكر ثمرات ذلك وبلغت (٣٢) .

ـ وفي «الوابل الصيب» تحدَّث عن فوائد الذكر وخصائصه فبلغت (٧٣) .

تلك إشارات سريعة تدل على علمه ـ رحمه الله تعالى ـ.

ويحسن بنا أن نذكر مثالاً على ذلك: مسألة من المسائل التي تناولها بالبحث بهذه الطريقة :

مثال على طريقة ابن القيم الموسوعية في البحث:

قال ابن القيم :

«إن المطلِّقَ في زمن النبي ﷺ، وزمن خليفته أبي بكر، وصَدْراً من خلافة عمر، كان إذا جمع الطلقات الثلاث بفم واحد جُعِلَتْ واحدة .

كما ثبت في الصحيح عن ابن عباس، فروى مسلم في صحيحه عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس : «كان الطلاق الثلاث على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر، طلاق الثلاث واحدة. فقال عمر بن الخطاب: إن الناس قد

استعجلوا في أمر كانت لهم فيه أناة، فلو أمضيناه عليهم.. فأمضاه عليهم».

وفي صحيحه أيضاً عن طاوس: «أن أبا الصهباء قال لابن عباس: ألم تعلم أن الثلاث كانت تجعل واحدة على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وثلاثاً من إمارة عمر؟ فقال ابن عباس: نعم»...

وإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يخفَ عليه أن هذا هو السنة، وأنه توسعة من الله لعباده، إذ جعل الطلاق مرة بعد مرة، وما كان مرة بعد مرة لم يملك المكلف إيقاع مراته كلها جملة واحدة.

كاللعان: فإنه لو قال: «أشهد بالله أربع شهادات إني لمن الصادقين» كان مرة واحدة.

ولو حلف في القسامة وقال: «أقسم بالله خمسين يميناً أن هذا قاتله» كان ذلك يميناً واحداً.

ولو قال المقرُّ بالزنى: «أنا أقرُّ أربع مرات أني زنيت» كان مرة واحدة.

وقال النبي ﷺ: (**من قال في يومه: سبحان الله وبحمده مائة مرة حطت عنه خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر**) فلو قال:

«سبحان الله وبحمده مائة مرة» لم يحصل له هذا الثواب، حتى يقولها مرة بعد مرة. .

وهكذا قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ [النور: ٥٨].

فهذا المعقول من اللغة والعرف في الأحاديث المذكورة، وهذه النصوص المذكورة وقوله تعالى: ﴿ٱلطَّلَـٰقُ مَرَّتَانِ﴾ [البقرة: ٢٢٩] كلها من باب واحد ومشكاة واحدة.

والأحاديث المذكورة تفسر المراد من قوله تعالى: ﴿ٱلطَّلَـٰقُ مَرَّتَانِ﴾، كما أن حديث اللعان تفسير لقوله تعالى: ﴿فَشَهَـٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَـٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ﴾.

فهذا كتاب الله، وهذه سنة رسول الله ﷺ، وهذه لغة العرب، وهذا عرف التخاطب، وهذا خليفة رسول الله ﷺ والصحابة كلهم معه في عصره، وثلاث سنين من عصر عمر على هذا المذهب. .

ولهذا ادعى بعض أهل العلم: أن هذا إجماع قديم، ولم تجمع الأمة ـ ولله الحمد ـ على خلافه.

بل لم يزل فيهم من يفتي به قرناً بعد قرن، وإلى يومنا هذا، فأفتى به حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس، وأفتى بالثلاث أيضاً، أفتى بهذا وهذا.

وأفتى بأنها واحدة الزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف.

وعن علي وابن مسعود روايتان.

وأما التابعون: فأفتى به عكرمة، وطاوس. وأما تابعو التابعين: فأفتى به محمد بن إسحاق، وخلاس بن عمرو، والحارث العكلي، وأما أتباع تابعي التابعين فأفتى به داود بن علي وأكثر أصحابه..

* * *

والمقصود أن هذا القول قد دل عليه الكتاب والسنة والقياس والإجماع القديم، ولم يأتِ بعده إجماع يبطله.

ولكن رأى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه: أن الناس قد استهانوا بأمر الطلاق، وكثر منهم إيقاعه جملة واحدة، فرأى أن المصلحة عقوبتهم بإمضائه عليهم، ليعلموا أن أحدهم إذا أوقعه جملة بانت منه امرأته، وحرمت عليه، حتى تنكح زوجاً غيره، نكاح رغبة يراد للدوام، لا نكاح تحليل، فإنه كان أشد الناس فيه، فإذا علموا ذلك كفّوا عن الطلاق المحرَّم.

فرأى عمر أن هذا مصلحة لهم في زمانه، ورأى أن ما كانوا عليه في عهد النبي ﷺ، وعهد الصديق، وصدراً من خلافته كان

الأليق بهم، لأنهم لم يتتابعوا فيه، وكانوا يتقون الله في الطلاق، وقد جعل الله لكل من اتقاه مخرجاً.

فلما تركوا تقوى الله، وتلاعبوا بكتاب الله، وطلقوا على غير ما شرعه الله، ألزمهم بما التزموه عقوبة لهم، فإن الله إنما شرع الطلاق مرة بعد مرة، ولم يشرعه كله مرة واحدة، فمن جمع الثلاث في مرة واحدة فقد تعدّى حدود الله، وظلم نفسه، ولعب بكتاب الله، فهو حقيق أن يعاقب، ويُلزم بما التزمه، ولا يُقر على رخصة الله وسعته، وقد صعَّبها على نفسه ولم يتق الله، ولم يطلِّق كما أمره الله وشَرَعه له، بل استعجل فيما جعل الله له الأناة فيه رحمة منه وإحساناً، ولبَّسَ على نفسه، واختار الأغلظ والأشد.

وعلمَ الصحابةُ رضي الله عنهم حسنَ سياسة عمر، وتأديبه لرعيته في ذلك فوافقوه على ما ألزم به، وصرحوا لمن استفتاهم بذلك.

فقال عبد الله بن مسعود: من أتى الأمر على وجهه فقد بيّن له، ومن لبَّس على نفسه جعلنا عليه لبسه، والله لا تلبسون على أنفسكم ونتحمله منكم، هو كما تقولون.

فلو كان وقوع الثلاث ثلاثاً في كتاب الله وسنة رسوله، لكان المطلق قد أتى الأمر على وجهه، ولما كان قد لبَّس على نفسه،

ولما قال النبي ﷺ لمن فعل ذلك: **(تلعبُ بكتاب الله وأنا بين أظهركم؟!)**.

فالصحابة رضي الله عنهم، ومقدمهم عمر بن الخطاب لما رأوا الناس استهانوا بأمر الطلاق وأرسلوا ما بأيديهم منه ولبَّسوا على أنفسهم.. ألزموهم بما التزموه.

ولا ريب أن من فعل هذا حقيق بالعقوبة بأن ينفذ عليه ما أنفذه على نفسه.

ولهذا قال ابن عباس لمن طلق مائة: عصيت ربك وبانت منك امرأتك، إنك لم تتق الله فيجعل لك مخرجاً.

.. وجاء أئمة الإسلام، فمضوا على آثار الصحابة سالكين مسلكهم.

* * *

إذا عرفت هذا، فهذه المسألة مما تغيرت الفتوى بها بحسب الأزمنة، لما رأته الصحابة من المصلحة، لأنهم رأوا مفسدةَ تتابع الناس في إيقاع الثلاث لا تندفع إلا بإمضائها عليهم، فرأوا مصلحة الإمضاء أقوى من مفسدة الوقوع.

ولم يكن باب «التحليل» الذي لعنَ رسول الله ﷺ فاعله

مفتوحاً بوجه ما، بل كانوا أشد خلق الله في المنع منه، وتوعد عمر فاعله بالرجم، وكانوا عالمين بالطلاق المأذون فيه وغيره.

وأما في هذه الأزمان التي قد شكَتْ الفروج فيها إلى ربها من مفسدة التحليل، وقبح ما يرتكبه المحللون، مما هو رمد بل عمى في عين الدين، وشجى في حلوق المؤمنين، من قبائح تُشَمِّتُ أعداءَ الدين به، وتمنع كثيراً ممن يريد الدخول فيه بسببه.. قد قلبت من الدين رسمه، وغيرت منه اسمه..

ففي مسند أحمد وسنن النسائي وجامع الترمذي، عن ابن مسعود قال: (لعن رسول الله ﷺ المحلل والمحلل له).

* * *

وليس المقصود بيان تحريم هذا العقد وبطلانه وذكر مفاسده وشره، فإنه يستدعي سفراً ضخماً نختصر فيه الكلام.

وإنما المقصود أن هذا شأن التحليل عند الله ورسوله وأصحاب رسوله، فألزمهم عمر بالطلاق الثلاث إذا جمعوها ليكفوا عنه إذا علموا أن المرأة تحرم به، وأنه لا سبيل إلى عودها بالتحليل.

فلما تغير الزمان، وبعد العهد بالسنَّةِ وآثارِ القوم، وقامتْ سوق التحليل ونفقت في الناس:

فالواجب أن يرد الأمر إلى ما كان عليه في زمن النبي ﷺ وخليفته من الإفتاء بما يعطل سوق التحليل أو يقللها ويخفف شرها.

وإذا عرض على من وفقه الله وبصَّره بالهدى، وفقهه في دينه، مسألة (كون الثلاث واحدة) و(مسـألة التحليل) ووازن بينهما؛ تبين له التفاوت، وعلم أيَّ المسألتين أولى بالدين وأصلح للمسلمين.

* * *

وعلى هذا فيمتنع في هذه الأزمنة معاقبة الناس بما عاقبهم به عمر من وجهين:

أحدهما: أن أكثرهم لا يعلم أن جمع الثلاث حرام، لا سيما وكثير من الفقهاء لا يرى تحريمه، فكيف يعاقب من لم يرتكب محرماً عند نفسه.

الثاني: إن عقوبتهم بذلك تفتح عليهم باب التحليل الذي كان مسدوداً على عهد الصحابة، والعقوبة إذا تضمنت مفسدة أكثر من الفعل المعاقب عليه كان تركها أحب إلى الله ورسوله..

ولا يستريب أحد في أن الرجوع إلى ما كان عليه الصحابة في

عهد النبي ﷺ وأبي بكر الصديق وصدر من خلافة عمر أولى من الرجوع إلى التحليل والله الموفق»[1].

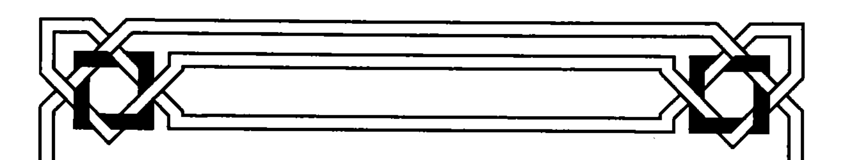
* * *

أقول: ما نقلته هو أقل من ربع ما جاء في الأصل، ولكنه يؤدي المعنى.. وبهذه الطريقة من العرض للمسألة الواضح والمستفيض.. وضع المصنف بين أيدينا كل ما يلابس المسألة، بحيث لا يحتاج إلى الرجوع إلى مرجع آخر.



(١) إعلام الموقعين (٣/ ٣٠ ـ ٥٠).





الباب الخامس

تقريب

تراث الإمام ابن القيم



تمهيد

١ ـ الباعث على العمل:

كان ذلك عام (١٤١١ هـ) عندما دخلت غرفة المدرسين في المعهد العلمي الثانوي حيث أعمل، فوجدت على الطاولة التي يجلس عليها المدرسون كتاب «طريق الهجرتين» في وسطها. . ومر أسبوع كامل ولم يتغير مكان الكتاب. .

فدفعني الفضول إلى السؤال عن صاحبه. . فكان الجواب من مدرس النحو الذي كان يدرس يومها شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك. . : أنا صاحبه.

قلت: إنه منذ أسبوع في هذا المكان؟ قال: لا حاجة لي به.

قلت: أتأذن لي أن أستعيره. . ؟.

وأخذت الكتاب، ولم أكن قد قرأته من قبل وإن كنت على صلة بعنوانه، فقرأته في أيام قلائل، وأعدته إلى صاحبه وقلت له: اقرأه ففيه خير كثير، وأعطيته إياه، وكنت ألاحقه في السؤال يومياً كم قرأ منه؟.

وكان يتهرب من السؤال في غالب الأحيان. . وبعد عشرين يوماً جاء به وناولني إياه، وكرر عبارته الأولى: لا حاجة لي فيه، ثم قال: قرأت صفحات قليلة من أوله ولكني بعد ذلك لم أفهم شيئاً فتركته.

وأخذت الكتاب منه واخترت من بين المدرسين مدرس مادة «التوحيد» وهي مادة تعج بالمصطلحات والتعريفات. . فقصدته وقلت له: هل قرأت هذا الكتاب؟ قال: لا، فرجوته أن يقرأه. . فوعد خيراً. .

وكنت أتابعه كما تابعت المدرس الأول. . وبعد شهر تقريباً جاءني بالكتاب وتكررت الصورة مرة أخرى، واعتذر بأنه بعد الصفحات الأولى لم يعد يسعفه الفهم. .

وأخذت الكتاب وعدت إلى البيت، وأنا أتساءل في نفسي: إذا كان هؤلاء لم يفهموا مثل هذا الكتاب، وهم يمثِّلون الشريحة المثقفة في الأمة فليس فوقهم إلا مدرسو الجامعات. . فمن يفهم هذا الكتاب؟ وبالتالي: فلمن كتب ابن القيم هذا الكتاب.

وللجواب على هذين السؤالين كان علَيَّ أن أقرأ الكتاب قراءة متأنية أكثر من مرة، بغية التعرف على العوائق التي تحول دون الفهم. .

وكان كتاب «تقريب طريق الهجرتين»، ثم «مشروع تقريب تراث الإمام ابن القيم».

٢ ـ غاية التقريب وأنواعه:

إن غاية «مشروع التقريب» هي إيصال كتب الإمام ابن القيم إلى القارئ بحيث تكون سهلة الفهم قريبة المتناول إلى فكره، واضحة المعالم، بحيث يخرج القارئ بعد قراءة الكتاب بتصور كامل عن الموضوع، عارفاً أقسامه وتفرعاته..

ولم يكن من الممكن استعمال طريقة واحدة للوصول إلى هذه الغاية، فلكل كتاب موضوعه وخصوصيته، وإنما تحدد الطريقة بعد دراسة الكتاب دراسة متأنية تلمُّ بموضوعه وطريقة البحث التي سلكها المؤلف في معالجته، ومعرفة كلياته وجزئياته..

وبشكل عام فقد تحصَّل لدي من خلال العمل عدة طرق؛ هي:

١ ـ معالجة ذاتية للكتاب الواحد بمفرده، وإلقاء الضوء على الموضوع الذي تناوله.

٢ ـ طريقة تقسيم الكتاب عندما تتعدد موضوعاته، وإفراد كل منها بكتاب (الفرز الموضوعي).

٣ ـ جمع «الموضوع الواحد» من الكتب التي ورد فيها.

٤ ـ تهذيب الكتاب.

وسيكون الحديث عن كلٍّ من هذه الطرق في فصل مستقل يتناول الحديث عن الكتب التي تم التعامل معها بتلك الطريقة.

٣ ـ فائدة عرض هذا الموضوع:

هناك أكثر من فائدة في عرض هذا الموضوع ضمن هذه الترجمة وأخص بالذكر ثنتين:

الأولى: يقف القارئ أمام استعراض لِكَمٍّ من ثقافة ابن القيم لا بأس به من خلال الكتب التي ستكون محل البحث.. وذلك مقصد من مقاصد ترجمة الإمام.

الثانية: أنه سيكون أمام دراسة تحليلية لهذه الكتب، في شكلها كما هي بين الأيدي وكما وضعها المؤلف، ثم يتعرف على الطريقة التي تمت المعالجة بها، وكيف أصبحت بعد ذلك.

إن القارئ سيكون أمام معرفة شبه كاملة بالكتب التي سيتناولها البحث وهي (١٢) كتاباً، أصبحت بعد التقريب (١٥) كتاباً.



الفصل الأول

تقريب كتاب بعينه

إن هذا النوع من التقريب يعتمد المحافظة على نص المؤلف الموجود ضمن الكتاب، ولا يزيد عليه ولا ينقص منه، والعمل فيه إنما هو تدخلٌ من حيث ترتيب الشكل مع عدم الإخلال بقصد المؤلف. وقد صدر بهذه الطريقة حتى الآن ستة كتب هي:

أولاً ـ طريق الهجرتين:

أ ـ وصف الكتاب:

قلت: إن هذا الكتاب هو الذي أوحى بفكرة المشروع..

وقبل أن أبدأ بالحديث عن وصفه أحب أن أتكلم عن كيفية تحديد «هوية الكتاب» أي كتاب، وإنما يتم ذلك بقراءة مقدمته أو النظر في فهرسه.

والذين عُنوا بكتاب «طريق الهجرتين» وضعوا له الفهارس بحسب ما بين أيديهم من موضوعات، فجاءت محيرة في

تنوعها. . فلم يستطع المحقق أو المشرف تحديد هوية الكتاب، وانظر معي إلى ما جاء في مقدمة هذا الكتاب في طبعة «دار ابن القيم» في صدد التعريف بموضوعه؛ حيث جاء فيها:

«نستطيع القول أن كتاب ابن القيم هذا، موسوعة علمية، قد أحاط فيه بالكثير من المسائل والمعارف والعلوم. .» ثم ذهبت تعدد ما جاء فيه من المسائل دون تحديد لموضوع الكتاب[1].

هذا مع العلم أن هوية الكتاب كانت واضحة في موضوع الكتاب ويكفي أنه شرح معنى الهجرتين وما قصد بهما. ولا أريد الإطالة بنقل بعضها.

ومع ذلك فإنه معذور إذ ترتيب الموضوعات وعدم تناسق العناوين محيِّر؟.

وأعود إلى وصف الكتاب: إني عندما درست الكتاب وجدته حافلاً بالإسهاب والاستطراد.

أما الإسهاب فذلك ناتج عن غزارة العلم وسعة الاطلاع، وهو يلبي استكمال الموضوع من جميع جوانبه، وأما الاستطراد فإنما يكون لمناسبة في الكلام اقتضت ذكره.

---

(١) مقدمة الطبعة التي نشرتها «دار ابن القيم»، ط ١، عام ١٤٠٩ هـ.

ولكن بعض الاستطرادات في هذا الكتاب، كانت عبارة عن بحوث كاملة لها عناصرها ومقوماتها، ومع ذلك فهي جملة بين معترضتين ضمن البحث.

وفي الكتاب فصول كثيرة، ولكن البدء بفصل، لا يعني بدء بحث جديد، بل ربما كان شرحاً لفكرة وردت في الفصل السابق استطراداً. .

وأسلوب ابن القيم الرائع جعل الكتاب شديد التماسك، لا يتميز فيه إلا بحثان: **الأول**: بحث الفقر؛ وهو الوارد في أول الكتاب، **والثاني**: طبقات المكلفين، وهو البحث الأخير من الكتاب، وقد أشار إليهما المصنف في مقدمته.

فقارئ الكتاب، كثيراً ما يصعب عليه التفريق بين الفكرة التي هي من البحث الأصلي وبين فكرة استطرادية وردت بعد ذلك، وذلك راجع ـ كما قلت ـ إلى أسلوب ابن القيم، فما تكاد تشعر بذلك الفارق أو تلك النقلة، إلا إذا أشعرك بها، أو كنت من أمسك قلماً، وتتبع نقاط البحث، ففرق بين الأصل وغيره.

وقد ساعد على عدم التفريق هذا، طول الاستطرادات وتتابعها بعض الأحيان، فقد يكون الاستطراد صفحات. . وقد يقول المؤلف بعض الأحيان: ولنرجع إلى المقصود. . فيعلمك بذلك.

وإذا كان هذا القول بعد عدة استطرادات.. فلا تدري إلى أيها تعود؟!..

وخلاصة القول: إن الاستطرادات هي العامل العائق الذي يحول دون فهم الكتاب.

ب ـ تقريب الكتاب:

بعد الدراسة تبين لي أن الاستطرادات الواردة في الكتاب ترجع إلى ثلاثة أنواع:

١ ـ استطرادات قصيرة: غايتها شرح كلمة أو فكرة أو ذكر نظير المسألة.

٢ ـ استطرادات طويلة: هي عبارة عن موضوعات كاملة، وهي موضوعات رئيسة، قد يحيل المصنف عليها أثناء الكتاب.

٣ ـ استطرادات طويلة: هي عبارة عن شروح أو مسائل اختلفت فيها الآراء.

وبناء على ذلك، فقد قسمت الكتاب إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: وضعت فيه الاستطرادات ذات الموضوع، والتي يحيل عليها المصنف وهي موضوعات لها الصدارة في هذا البحث ـ وإن أتى بها المصنف استطراداً ـ وقد جاءت في خمسة فصول.

القسم الثاني: وفيه أصل الكتاب، وهو مقسم إلى عدة أبواب، وتحت كل باب عدد من الفصول، وكل فصل - بدوره - تندرج تحته عناوين فرعية.

القسم الثالث: وضعت فيه الاستطرادات الطويلة التي هي شروح.

أما الاستطرادات القصيرة، فقد أبقيتها في مكانها من الكتاب، ولكني نقلتها إلى الحاشية، وهو مكانها المناسب.

وقد بينت في القسمين الأول والثالث، مكان كل فصل فيهما في أصل الكتاب، حتى يرجع إليه من رغب في ذلك.

وقمت بما ينبغي بشأن الأحاديث من حيث التخريج، وترجمة لبعض الأعلام..

جـ - من فوائد هذا التقريب:

لئن كانت الغاية الأولى، هي تقريب الكتاب إلى الأفهام، فإن هذا العمل قد أظهر فوائد أخرى قد لا تقل - بعض الأحيان - عن الفائدة التي كانت هي الغاية، ومن ذلك:

١ - تَبَيَّنَ أن الكتاب - بأقسامه الثلاثة - يبحث موضوعاً واحداً، هو موضوع «التربية والسلوك»، أو الموضوعات التي يعالجها

ويهتم بها «أرباب السلوك» على حد تعبير المؤلف. وقد كانت الفكرة السائدة عن ابن القيم أنه لا يلتزم موضوعاً ما في كتبه.

٢ ـ أصبح لكل موضوع هيكله ومقوماته، وقد تقاربت العناصر من بعضها، الأمر الذي يساعد على الفهم والضبط.

٣ ـ ظهور بحوث مهمة إلى السطح، كانت وراء حجاب، والمثال على ذلك فصول القسم الأول، والتي قد تكون البحوث الأكثر أهمية في الكتاب.

وإن نظرة واحدة في فهرس الكتاب بعد تقريبه كافية في إعطاء تصور عام عن الكتاب. الأمر الذي لم يكن ممكناً قبل ذلك.

ثانياً ـ الوابل الصيب:

أ ـ وصف الكتاب:

موضوع هذا الكتاب: هو ذكر الله تعالى، والدعاء من الذكر.

وجاء الكتاب خلواً من المقدمة والفهرس.

وجاء الكتاب متتابعاً، غير مقسم إلى أبواب، وليس له من العناوين إلا كلمة «فصل» التي هي الفاصل بين السطور المتتابعة، وكلمة «فصل» جاءت مجردة عن عنوان متمم يشير إلى الموضوع.

وجاء الذين عنوا بالكتاب طباعةً وتحقيقاً ـ جزاهم الله خيراً ـ فوضعوا له فهرساً تناول بيان موضوعات الثلث الأخير من

الكتاب، وظل ثلثاه الأولان مسكوتاً عنهما ـ إلا من كلمات معدودة على الأصابع لا تعني شيئاً ـ على الرغم مما فيهما من جواهر ونفائس.

والكتاب ذو موضوع واحد، ولهذا جاء شديد التماسك قوي الترابط، حتى ليصعب على القارئ تحديد الفواصل فيه، إذا استثنينا القسم الأخير منه.

ب ـ تقريب الكتاب:

١ ـ بعد دراسة الكتاب، استطعت أن أقسمه إلى أربعة أقسام، كل منها يعالج جانباً من الموضوع، وكل قسم يعدُّ تمهيداً للذي يليه، وهذا ما جعل الموضوع شديد التماسك، وهكذا جاء الكتاب في أربعة أبواب:

فالباب الأول: يعدُّ مدخلاً للبحث، وموضوعه العام: سعادة العبد، وقد انضوى تحته خمسة فصول.

وفي الباب الثاني: شرح المصنف فيه حديث الحارث الأشعري، وتم تقسيمه إلى فقرات تعالج كل واحدة منها فقرة من فقرات الحديث.

وفي الباب الثالث: تحدث المصنف عن فوائد الذكر، وفيه أربعة فصول: وفي الفصل الأول تحدث عن (٧٣) فائدة للذكر.

وفي الباب الرابع: كان بيان الأذكار مفصلة بحسب الأوقات أو الأحوال وقد بينها المصنف في خمسة وسبعين فصلاً.

تلك هي خارطة الكتاب في خطوطها العريضة، أما التفصيل فهو في فهرس الكتاب؛ حيث هو لوحة مشرقة يضفي عليها «الذكر» بهاءه.

٢ - تبين من الفقرة السابقة أني لم أتدخَّل في ترتيب الكتاب، وإنما اكتشفت فواصله، وبناء على ذلك تم التبويب.. ثم التقسيم إلى فصول[1].

٣ - حققت نص الكتاب، كما هو مبين في مقدمته.

٤ - يضاف إلى ذلك وضع عناوين رئيسة وفرعية. وكذلك العناية بإخراج الكتاب كما هو ظاهر بين الأيدي.

ثالثاً - الطرق الحكمية:

بعد ظهور كتاب «تقريب طريق الهجرتين» طلب مني بعض طلاب العلم أن أخرج كتاب «الطرق الحكمية» بالطريقة نفسها.

وقد حاولت تلبية طلبهم، ولكني لم أستطع يومئذ اكتشاف مخطط للبحث يستوعب ما في الكتاب من عناصر.

---

(١) إن عدم تدخلي في ترتيب الكتاب، واكتشافي لفواصله، ربما استفاد منه بعض الذين طبعوا الكتاب بعد ذلك. فنقلوا تلك العناوين.

ثم بعد ظهور عدة كتب من مشروع التقريب، عُدتُ لبذل الجهد مرة أخرى، فيسَّر الله ذلك بفضله.

أ ـ وصف الكتاب:

موضوع الكتاب هو مهمة القاضي والوالي وما يلزمهما من معرفة السياسة الشرعية، وما يلزم القاضي من معرفة وسائل الإثبات.

أما الكتاب من حيث الشكل: فإنه يتألَّف من مقدمة وأربعين ومائة فصل، ومعظم هذه الفصول لا عنوان لها، وبعضها قوامه عدة أسطر، وبعضها يتكون من عشرات الصفحات.

وابتداء الفصل لا يعني بدء طرح فكرة جديدة، فربما كان الفصل متمماً لما قبله، وكثير من الفصول يجمع الواحد منها أكثر من موضوع.

إن القارئ لهذا الكتاب يعيش متعة الأسلوب المشوق، والأفكار الممتعة والقصص الرائعة الواردة في الحديث عن الفراسة، ولكنه إذا سأل نفسه عما استقرَّ في ذهنه كان السؤال محيراً.. ربما القليل.

إن وصف عرض الكتاب للمادة التي وردت فيه أمر في غاية

الصعوبة لتكرر المبحث الواحد عدة مرات في أماكن متباعدة أحياناً، ومن أمثلة ذلك:

الحديث عن الفراسة جاء في الفصول: (٩، ١٠، ١٧ ـ ٢٢).

الحكم بالشاهد واليمين جاء في الفصول: (٢٣، ٢٥، ٥٧، ٥٩).

وموضوع التقرير في الفصول: (٤٠، ٤١، ١١٢ ـ ١١٦).

وهكذا...

وفي المقابل نجد الفصل الواحد يجمع أكثر من موضوع.

تلك صورة مجملة عن الكتاب تبيِّن تشتت الموضوعات فيه.

ب ـ تقريب الكتاب:

لن أتحدث عن الجهد المبذول، ولكني أقول: إنه بعد دراسة الكتاب تبين لي أنه يعالج موضوعين هما: القضاء والحسبة، فتم تقسيم الكتاب تبعاً لذلك إلى مقصدين، يسبقهما مدخل يشتمل على فصلين:

يتحدث **الأول** عن أنواع الولايات ودائرة اختصاصها، ومن جملتها القضاء والحسبة.

ويتحدث **الثاني** عن السياسة الشرعية التي هي الفقه العام الذي يساعد القاضي والوالي على جعل الناس أقرب إلى الصلاح.

أما المقصدان فقد قسما إلى أبواب، وقسم الباب إلى فصول، والفصل إلى فقرات.

ولا أريد الإطالة في الشرح، وأكتفي بذكر الأبواب فإنها تعطي التصوُّر عن شكل الكتاب وتفصيلاته الرئيسة.

فالمقصد الأول: القضاء، فيه ثلاثة أبواب هي:

- الأول: في الفراسة.
- الثاني: في طرق الأحكام.
- الثالث: في التقاضي.

وأما المقصد الثاني: الحسبة، ففيه بابان:

- الأول: ولاية الحسبة.
- الثاني: في العقوبات.

وتحت كل من هذه الأبواب فصول، تكثر تارة، وتقل أخرى بحسب طبيعة البحث، وأقدر الناس على تقدير قيمة التوصل إلى هذا التقسيم، هم الذين عرفوه في الطبعات السابقة، ثم أتيح لهم رؤيته بعد التقريب.

ولقد أضفت بين يدي المقصدين، وكذلك بعض الأبواب وبعض الفصول، تمهيداً يساعد القارئ على تفهم البحث، أو

إلقاء الضوء على الأفكار المتميزة فيه، وجاء بحرف مغاير لحرف الكتاب كما إنه وضع بين حاصرتين، بياناً على أنه ليس من كلام المؤلف.

فجاء الكتاب ـ بحمد الله تعالى وتوفيقه ـ بنياناً جميلاً متناسقاً، كل لبنة في مكانها المناسب، لبنات أعدها الإمام ابن القيم، ورسم مخططها وارتفع ببنيانها كاتب هذه الأحرف.

٤ ـ كتاب الروح:

أ ـ وصف الكتاب:

موضوع الكتاب: هو الحديث عن الموت، وما بعده، وكيف تكون الروح في المدة الفاصلة بين الموت وبين النفخ في الصور؛ حيث يقوم الناس لرب العالمين.

إنه الإجابة على التساؤلات التي تعتمل في كل نفس.

يقول مؤلفه: «ولا تظفر به مجموعاً في كتاب واحد غير هذا البتة».

أما وصفه؛ فإني أجمله في الأمور التالية:

١ ـ خلا الكتاب من المقدمة، وما وجد في بعض النسخ من مقدمة فهي من وضع العلامة البقاعي.

٢ ـ جاء الكتاب في (٢١) مسألة، بحيث يبدأ المؤلف في كل مسألة بطرح السؤال. . ثم يجيب عليه.

٣ ـ إن المسائل ـ على الرغم من ترقيم المؤلف لها ـ لم يكن ترتيبه لها وفق أولويات البحث الموضوعي. وبعض المسائل التي ناقش فيها موضوعاً واحداً جاءت متباعدة. .

وخلاصة القول: إن الترتيب معدوم في هذا الكتاب.

ب ـ تقريب الكتاب:

بعد دراسة الكتاب تبين لي أن الكتاب قد عالج الموضوعات الرئيسة التالية:

ـ موضوع حياة الروح في البرزخ.

ـ موضوع سؤال القبر.

ـ موضوع عذاب القبر.

ـ موضوع الروح والنفس.

وبناء على ذلك قسمت الكتاب إلى أربعة أبواب مرتبة كما جاءت هنا، وجمعت المسائل التي تتعلق بكل موضوع على حدة.

ثم رتبت هذه المسائل حسب أولويتها ضمن كل موضوع.

وبهذا أصبح الكتاب مرتباً حسب الأولوية في موضوعاته، وكذلك المسائل ضمن كل موضوع حسب أولويتها.

وأصبحت كل مسألة في مكانها المناسب، تتبع ما قبلها، وتمهِّد لما بعدها.

وهناك باب خامس جاء في آخر الكتاب تحت عنوان «الفروق الشرعية»، وهو موضوع لا صلة له بموضوع الكتاب، وإنما جاء استطراداً في المسألة الحادية والعشرين، ولعل المصنف خاف أن يفوته عندما توارد لذهنه، وكان كتاب الروح بين يديه فألحقه به، وقال فيه: «ولا تستطل هذا الفصل؛ فلعله من أنفع فصول الكتاب، والحاجة إليه شديدة».

وقد أشرت على غلاف الكتاب إلى ذلك حتى يستفيد القارئ له العلم بوجود هذا البحث فيه.

وأما ما جاء من استطرادات في المسائل، فقد وضعتها في الحاشية عند المكان الذي جاءت فيه.

خامساً ـ الجواب الكافي:

أ ـ وصف الكتاب:

سبب تأليف هذا الكتاب، سؤال وجّه إلى الشيخ من رجل

ابتلي بذنب وهو يطلب الحيلة في دفعه، ولهذا سمي الكتاب أيضاً «الداء والدواء».

وقد جاء الكتاب في مقدمة ومائة وعشرة فصول، وهي فصول متتابعة لا تحمل أي عنوان.

وبعض هذه الفصول يتحدث عن فكرة واحدة، وبعضها يتحدث عن أكثر من فكرة، وقد تتعاون عدة فصول لتعرض موضوعاً واحداً.

وهذا ما يفسِّر لنا فشل الفهارس التي وضعها المعتنون بهذا الكتاب في إعطاء فكرة واضحة عن موضوعاته، وذلك لأنهم فهرسوا تلك الفصول، فاحتل كثير من الأفكار الفرعية مكانه فيه، وغاب كثير من الأفكار الرئيسة عنه.. فحار القارئ في تحديد ملامح الكتاب.

هذا من حيث الشكل، أما من حيث المضمون، فقد انطلق المصنف على سجيته مغترفاً من علمه الغزير، ما رأى أنه يلبي حاجة السائل.

ـ بدأ بتقرير مفاده أن المعصية مرض، وأن الشفاء يكون بالقرآن، أو بالدعاء، أو بالعلم.

- ثم تحدَّث عن غرور كثير من الناس بالاعتماد على عفو الله تعالى . .

- ثم تحدَّث عن آثار الذنوب ، ثم عن عقوباتها . .

- ثم تحدث عن الذنوب بشكل عام . . وخلال ذلك تحدَّث عن منافذ المعاصي إلى النفس .

- ثم تحدَّث عن العشق ، وأتبعه بالحديث عن حب الله تعالى ، ثم تتابعت الفصول بعد ذلك تتحدث عن العشق تارة ، وعن حب الله تعالى تارة أخرى ، وكان الحديث عن العشق ختام الكتاب .

ب ـ تقريب الكتاب :

إن الهدف الرئيس من التقريب ، هو وضع القارئ أمام تصوُّر كلي للموضوع . . بحيث يخرج القارئ بصورة واضحة المعالم عن البحث .

لهذا كان من الضروري ترتيب الموضوعات بحسب أولويتها :

- فقد جاء الحديث عن آثار المعاصي قبل الحديث عن المعاصي نفسها .

- وجاء الحديث عن عقوباتها قبل الحديث عنها .

- وجاء الحديث عن منافذ المعاصي إلى النفس استطراداً عند

الحديث عن الزنى، وحقه أن يكون في مقدمات الحديث عن الذنوب.

ـ وتداخل الحديث عن العشق مع الحديث عن حب الله تعالى.

فكان لا بد من إعادة رسم الخارطة وترتيب هذه الموضوعات، وقد تم ذلك ـ بحمد الله تعالى ـ فجاء الكتاب في سبعة أبواب، وبعض الأبواب جاء تحتها عدد من الفصول.

وبهذا يكون تقريب هذا الكتاب قد تم من حيث الشكل، ومن حيث الموضوع.

سادساً ـ إعلام الموقعين:

يعدّ هذا الكتاب من أجلّ ما قدمه الإمام ابن القيم للمكتبة الإسلامية ـ على كثرة ما قدم ـ، لا يقارنه إلا كتابه «زاد المعاد»، ولو لم يكن له غيرهما لكفاه.

أ ـ وصف الكتاب:

موضوع هذا الكتاب: هو أصول الفقه بشكل عام.

وجاء في طبعة دار البيان قول محققه: «لم يخصص المؤلف لمحتوى كتابه أبواباً واسعة تشمل فصولاً متعددة، بل جعله كله

فصولاً متناثرة هنا وهناك، لا يجمع بينها سوى الفكرة الواحدة والموضوع الواحد فحسب».

ثم قال: «وأهم الموضوعات التي بسط فيها الإمام القول: الربا، المحلل، سد الذرائع، الحيل، القول بالرأي والقياس، التأويل، الشروط التي يجب أن تكون في المفتي.. كما عرض لمسألة الطلاق الثلاث، وكثير من المسائل الفقهية الهامة».

وقد جاء فهرس هذه الطبعة فيما يزيد على (٩٠٠) مادة.

وكذلك فهرس طبعة دار الجيل جاء قريباً من هذا.

هذا تصور واحد من محققي الكتاب.. فهما لم يجدا فيه موضوعات رئيسة.

وأعود لوصف الكتاب فأقول:

بدأ المؤلف حديثه ـ بعد المقدمة ـ عن مكانة المفتي والقاضي، مذكِّراً بأسماء الصحابة والتابعين الذين تولَّوا ذلك.

وتحدث بعد ذلك عن شروط الفتوى وتحريم الإفتاء بالرأي، وهذا ما دعاه إلى عرض موضوع الرأي.

وكمثال على الرأي المحمود ذكر كتاب عمر إلى أبي موسى في القضاء.

ثم شرح هذا الكتاب، فلما وصل إلى قوله: «ثم قايس

الأمور» وقف وقفة طويلة استغرقت (٤٤٠) صفحة؛ تحدث فيها عن القياس. . ثم أتم شرح الكتاب.

وتحدث بعد ذلك عن تحريم الإفتاء بغير علم، وعن التقليد. .

ثم تحدث عن سد الذرائع، ومنها انتقل إلى موضوع «الحيل» الذي استغرق (٤٠٠) صفحة.

ثم عقد فصلاً ذكر فيه «فوائد تتعلق بالفتوى»، ثم ختم الكتاب بفتاوى سيد المرسلين ﷺ.

تلك هي المحطات الرئيسة في الكتاب، لم أعرج فيها على ذكر الاستطرادات لكثرتها.

ب ـ تقريب الكتاب:

إن الكتاب بشكله الذي وضعه فيه مؤلفه، يجعل الفائدة المرجوة منه محصورة في العلماء الذين أوتوا الصبر على البحث.

ومن أجل جعله في متناول طلاب العلم كانت فكرة التقريب، ولن أطيل في وصف الجهد المبذول في سبيل ذلك. . وقد يسَّر الله تقسيم الكتاب إلى تسعة مقاصد رئيسة؛ هي:

الأول: الفتوى.

الثاني: القضاء.

الثالث: بحوث في السنة المطهرة.

الرابع: أثر القصد والنية في العقود.

الخامس: بحوث في الأصول.

السادس: الرأي.

السابع: القياس.

الثامن: التقليد.

التاسع: إبطال الحيل.

وهذه المقاصد قسمت بدورها إلى أبواب وفصول..

كما تم ترتيب فتاواه ﷺ وفقاً لموضوعاتها..

وبهذا أصبح القارئ أمام موضوعات محددة المعالم، فالمقصد يعالج الموضوع الرئيس، ثم تأتي الأبواب والفصول ليستقل كل منها ببحث فرع أو مسألة من مسائل المقصد، وهكذا أضحى الكتاب منهجيّاً واضح المعالم يسهل التعامل معه ممن أراد ذلك.

❑ ❑ ❑

الفصل الثاني

التقريب بالفرز الموضوعي

بعض كتب الإمام ابن القيم حملت في طياتها أكثر من موضوع، وقد تناول التقريب واحداً منها؛ هو:

(زاد المعاد في هدي خير العباد)

أ ـ وصف الكتاب:

وصفَ الكتابَ الشيخُ العلامة أبو الحسن الندوي وصفاً مطولاً، يغني عن كلام غيره في هذا الموضوع، وسوف أقتصر على ذكر بعض وصفه، بما يلبي الحاجة، قال:

«وأما كتابه «زاد المعاد»، فإنه أكثر جمعاً لخصائص مؤلفاته، ويحتوي في نفس الوقت على مواضيع مختلفة، من السيرة والسنة والفقه وعلم الكلام والتزكية والإحسان..

لقد شرح في أول الكتاب موضوع البعثة المحمدية، ومراتب

الوحي، ثم ذكر تلك المدارج التي مرت بها الدعوة الإسلامية، كما تناول الأسماء المباركة ومعانيها ودقائقها ببحث لطيف . .

وبهذه المناسبة جمع كل ما يتصل بالسيرة وشخصية النبي ﷺ من التفصيل حتى تكونت ذخيرة قيمة للأخلاق والشمائل والعادات النبوية .

ثم إنه تناول عبادات النبي ﷺ وهيئة صلواته وسننها . واهتمَّ المؤلف ببيان حكمة العبادات والأركان والأحكام وأسرارها . .

أما الجزء المهم لهذا الكتاب الذي يشهد على علو كعب المؤلف وسعة اطلاعه واستحضاره للعلم هو باب الحج .

وقبل أن يبدأ الكلام عن الغزوات بحث عن حقيقة الجهاد ومراتبه في غاية من التحقيق والمعرفة، وذكر بدء دعوة الإسلام وأحوال مكة آنذاك والهجرة إلى المدينة، وفرضية الجهاد والغنيمة، والصلح والأمان، والجزية، والمعاملة مع أهل الكتاب وأحكام المنافقين بتفصيل كبير . .

ثم تعرَّض لذكر مغازي النبي ﷺ وبعوثه ومهماته . .

أما الجزء الثاني من الكتاب فمعظمه يختصُّ بالطب النبوي . .

ولما فرغ من بيان ذلك التفت إلى أحكام النبي ﷺ في القضايا (أقضية الرسول ﷺ) . .

ومما ينتقد في هذا الكتاب هو أنه خليط للعلوم الإسلامية كلها من السيرة، والحديث، والفقه، والتاريخ، والكلام، والنحو والصرف. . **فإن أفرز من هذا الكتاب كل موضوع على حدة تسنت الاستفادة منه. .**»[1].

ب ـ آثار السفر على الكتاب:

قال المصنف في آخر مقدمة الكتاب: «وهذه كلمات يسيرة اقتضاها الخاطر المكدود. . مع تعليقها في حال السفر لا الإقامة، والقلب بكل وادٍ منه شعبة. . والكتاب مفقود»

أراد ابن القيم أن يجعل من كتابه «زاد المعاد» معلمة يرجع إليها في شأن كل ما جاء به ﷺ، فيستغني به الفرد عن مكتبة بكاملها.

ولكن ظروف السفر ـ فيما يبدو ـ حالت دون ذلك: من حيث الشمول، ومن حيث ترتيب التصنيف.

يدلنا على الأمر الأول: أن المصنف أحال أكثر من مرة في كتابه على قسم الخصائص، ومن ذلك قوله:

«وسيأتي مزيد بيان لهذه المسألة ـ إن شاء الله تعالى ـ عند ذكر خصائص النبي ﷺ»[2].

---

(١) رجال الفكر والدعوة في الإسلام (٢/ ٢٦٧ ـ ٢٧٣).
(٢) زاد المعاد (١/ ٣٢٣).

ولا نجد في الكتاب كله بعد قراءته من أوله إلى آخره ذكراً لهذه الخصائص، مما يدل على أنه كان في نية المؤلف تناول هذا الجانب بالبحث، ولكنه لم يفعل.

ولهذه القصة دلالة أخرى، وهي أنه لم يتح له مراجعة الكتاب بعد تأليفه، ولو حصل لانتبه إلى هذا الأمر.

وكذلك لا نجد ذكراً للغسل في بحث الطهارة، ولا في غيره.

وكذلك لا نجد بحثاً عن صلاة الجماعة عند كلامه عن الصلاة..

ويدلنا على الأمر الثاني: أن المؤلف كثيراً ما استدرك أموراً، فجاءت في غير مكانها، ومن ذلك وعلى سبيل المثال:

أنه ذكر هديه في الأكل والشرب واللباس والمسكن، في منتصف الجزء الرابع، ومكانها في آخر الجزء الثاني الذي تناول فيه الحديث عن الآداب، وذكر جانباً من هديه في الأكل.

ومن ذلك: ذكره أمر استقبال القبلة في قضاء الحاجة في آخر الجزء الثاني، ومكانها في الجزء الأول في أبواب الطهارة.. وغير ذلك.

وهذا لا ينقص من قيمة الكتاب، بل يزيدنا إعجاباً بهذا الإمام الذي حرر المسائل في كتابه هذا، وهو في حالة من عدم الاستقرار.

ج ـ فرز موضوعات الكتاب:

كانت فكرة استخلاص مادة السيرة من «زاد المعاد» تراود ذهني عندما وقفت على كلمة الشيخ أبي الحسن الندوي التي سبق ذكرها قبل قليل، فتحوَّلت الفكرة إلى العمل في الكتاب كله..

وبعد قراءته لتحديد الموضوعات الرئيسة فيه تبين أنها تنضوي تحت خمسة مواضيع رئيسة؛ هي: السيرة، والهدي النبوي في العبادات، والطب النبوي، وأقضية النبي ﷺ، وما تبقى بعد ذلك فإنه يدخل تحت عنوان: الفضائل والآداب.

والكتاب جاءت طبعته في خمسة أجزاء، الجزء الرابع منه يبحث في «الطب النبوي»، وقد طبع منفرداً تحت هذا العنوان، والجزء الخامس يبحث في «أقضية الرسول ﷺ»، وقد أفرد بالطباعة تحت هذا العنوان.

وهكذا بقيت الأجزاء الثلاثة الأولى وفي ثناياها الموضوعات المشار إليها. ومنها جمعت الكتب التالية:

- سيرة خير العباد.
- الهدي النبوي في العبادات.
- الهدي النبوي في الفضائل والآداب.

وسوف نتحدث عنها وفقاً للطريقة التي سلكتها فيما سبق:

أولاً ـ سيرة خير العباد:

أ ـ وصف الكتاب:

وعندما أقول وصف الكتاب ـ في هذه الكتب الثلاثة ـ فإنما أعني وصف المادة الموجودة في «زاد المعاد»، والتي تَشَكَّل منها الكتاب فيما بعد.

أكتفي بما سبق من وصف الشيخ أبي الحسن، ولكني أوضحه ضمن نقاط محددة، حالت دون الاستفادة منه ككتاب سيرة ـ إلا باعتباره مرجعاً ـ وهي:

١ ـ الفاصل الكبير بين النسب والولادة.. وبين أحداث السيرة، إذ جاء الموضوع الأول في أول الجزء الأول، وجاء الثاني في الجزء الثالث.

٢ ـ جاء الحديث عن نتائج الغزوات قبل الغزوات.

فقد جاء الحديث عن الأسرى في أول الجزء الثالث، ومن جملتها أسرى بدر، وجاء الحديث عن هذه الغزوة بعد ذلك في مكانها.

وجاء الحديث عن الغنائم قبل الحديث عن الغزوات التي حصلت فيها الغنائم.

٣ ـ وفقاً للتقسيم الفقهي: جاء الحديث عن المعاهدات وعقود الصلح في البدء، ومن ذلك عقود اليهود ونقضها من قِبَل قينقاع والنضير وبني قريظة، وبناء على ذلك جاء الحديث عن هذه الوقائع في غير ترتيبها الزمني، فجاءت قريظة قبل الخندق وقبل المغازي كلها، وهي بعد الخندق، وكذلك ما يتعلق باليهود وعهودهم.

٤ ـ بعض الوقائع والغزوات وضعها المؤلف في ترتيبها تبعاً لبعض كتاب السيرة، ثم تبين له بعد تحقيق زمنها أنه ينبغي وضعها في مكان آخر، ومنها غزوة الغابة، وغزوة ذات الرقاع، وسرية الخبط.

٥ ـ وجاء الحديث عن رسله وكتبه إلى الملوك في أول الجزء الأول. وجاءت نصوص هذه الكتب في آخر الجزء الثالث.

٦ ـ ومن ذلك: ما حصل سهواً، ومنه وضع قصيدة حسان التي قالها بمناسبة الحديبية بعد فتح مكة.

وهذا الذي ذكرته ليس من باب النقد وإنما لبيان الواقع، ولعل السبب فيه هو تغليب الطريقة الفقهية في البحث على طريقة عرض السيرة.

ب ـ تقريب الكتاب:

ما سبق ذكره يجعل القارئ لا يخرج بتصور واضح عن السيرة النبوية الشريفة في هذا الكتاب الجليل.

فقمت بإعداد الكتاب وفقاً للترتيب الزمني، ووضعت ما حقق المؤلف زمنه من الوقائع في الزمن الذي اعتمده.

ومن الأمور التي تم إنجازها في هذا التقريب:

١ ـ قسمت الكتاب إلى فصول، ووضعت عناوين فرعية تسهل الرجوع إلى المطلوب.

٢ ـ أفردت الأحكام الفقهية والحِكَم في فصول خاصة ووضعتها في أماكنها.

٣ ـ وضعت الاستطرادات في الحاشية.

٤ ـ لم أترك من مادة السيرة شيئاً مما جاء في «زاد المعاد»، ولم أتدخل في عبارة المؤلف.

٥ ـ سميته (سيرة خير العباد)، وهو بعض عنوان الكتاب الأصل، حفاظاً على هوية الكتاب عنواناًومضموناً.

٦ ـ قسمت الكتاب إلى بابين، وضعت في الأول السيرة، وجعلت الثاني للشمائل الشريفة وما يتبعها.

وبهذا أمكن الوصول إلى كتاب في السيرة للإمام ابن القيم يظهر من خلاله تحقيقه وفقهه.

ثانياً ـ الهدي النبوي في العبادات:

أ ـ وصف الكتاب:

مما سبق ومما ذكره الشيخ أبو الحسن الندوي تبين لنا أن الأجزاء الثلاثة الأولى من «زاد المعاد» احتوت على السيرة وفقه العبادات وبحوث في الأخلاق والآداب..

وقد سبق الحديث عن فرز مادة السيرة، ونتحدث عن فقه العبادات من خلال النقاط التالية:

١ ـ هنا ـ عند ابن القيم ـ نجد أنفسنا أمام فقه يُكتَب بلغة جديدة، وأسلوب لا عهد للفقهاء به؛ فليس هناك حديث عن أركان وشروط.. ومبطلات ومكروهات، ولكن الفقه يكتب بلغة السيرة التي تروي ما كان يفعله الرسول ﷺ. ولقد أوضح هذا بقوله:

«وليس مقصودنا إلا ذكر هديه ﷺ الذي كان يفعله هو، فإنه قِبْلَة القصد، وإليه التوجه في هذا الكتاب، وعليه مدار التفتيش والطلب.

وهذا شيء، والجائز الذي لا ينكر فعله وتركه شيء.

فنحن لم نتعرَّض في هذا الكتاب لما يجوز، ولما لا يجوز، وإنما مقصودنا فيه: هدي النبي ﷺ الذي كان يختاره لنفسه، فإنه أكمل الهدي وأفضله».

٢ ـ اعتمد ابن القيم الأسلوب الوصفي لينقل لنا عبادته ﷺ، ويحسن بنا أن نذكر مثلاً على ذلك:

فالمؤلف في بحث الحج مثلاً، يبدأ بإعلانه ﷺ عن عزمه على الحج، ودعوته الناس إلى ذلك، ثم يذكر خروجه من المدينة، ثم اغتساله للإحرام، وإحرامه بالحج قارناً.. وهكذا حتى تنتهي المناسك ويعود إلى المدينة.

ويقف بعد كل عمل ليذكر آراء الفقهاء واختلافهم.. ومناقشتهم..

تلك هي الطريقة التي انتهجها المؤلف في نقل عباداته ﷺ.

ب ـ تقريب الكتاب:

لما كان من الصعب على القارئ استجماع أعمال حجه ﷺ ـ مثلاً ـ من خلال أكثر من مائتي صفحة، كان لا بد من اكتشاف طريقة تحقق ما قصد إليه المؤلف، بحيث تكون صورة أعمال الحج واضحة مجموعة إلى بعضها.. وتمَّ ذلك بحمد الله.

وفي الكتاب نوعان من القواطع تحول دون تسلسل الموضوع:

الأول: المناقشات الفقهية وتحرير المسائل.

الثاني: الاستطرادات التناسبية، وذكر النظائر.

وللتغلب على المشكلة الأولى: رأيت أن أفرد لهذه المناقشات فصولاً خاصة بها، ووضعها تحت عناوين تبين موضوعها، مع الإشارة إليها في سياق أصل الموضوع.

وأما الاستطرادات والنظائر فتم نقلها إلى الحاشية.

وبهذا أمكن جمع الموضوع وسهل على القارئ التعامل معه.

يضاف إلى ذلك في شأن هذا التقريب:

١ ـ جاءت بعض الموضوعات في مكانين من الكتاب، فتم الجمع بينها؛ كالحديث عن أكله ﷺ، كما جاءت بعض الأحكام كذلك كالحركة في الصلاة.. فتم جمع الموضوع.

٢ ـ نقل بعض الفقرات إلى المكان المناسب، ومثال ذلك: كيفية القراءة في الصلاة جاءت في صلاة الليل، ومكانها عند كيفية الصلاة.. والأمثلة كثيرة.

٣ ـ جرى تعديل ترتيب بعض الفقرات ضمن الموضوع الواحد، لمراعاة الأولويات من حيث الترتيب الزمني والذهني.. وهذا أمر لا يخلو منه بحث في الكتاب.

٤ ـ افتتح المصنف كتابه بمقدمة، أتبعها بأربعة فصول مرتبطة

بها، فظنها بعض الذين طبعوا الكتاب أنها من فصول الكتاب، ووضع لها عناوين، فجاءت أمراً محيراً للقارئ.

والواقع أن هذه المقدمة مع فصولها تبين مكانته ﷺ، واختيار الله له ليكون صاحب الرسالة الخاتمة.. ومهَّد لذلك بأن الله يختار من كل شيء أطيبه وأنفسه.

٥ ـ قسمت الكتاب إلى أبواب وفصول وفقرات.. تسهيلاً على القارئ.. وقمت بتخريج الأحاديث وغير ذلك.

ثالثاً ـ الهدي النبوي في الفضائل والآداب:

هذا هو الكتاب الثالث الذي تم جمعه من «زاد المعاد» في عملية الفرز الموضوعي.

كما رأينا، بعد أن تم استخراج مادة السيرة ثم مادة فقه العبادات من الأجزاء الثلاثة الأولى من «زاد المعاد»، جمعت ما تبقى من الأجزاء فوجدت مادته لا تخرج عن موضوع الفضائل والأخلاق، وقسمتها إلى أبواب وفصول.

وبعد: وهكذا أصبح كتاب «زاد المعاد» ـ كما هو من خمسة أجزاء ـ لكل جزء موضوعه الخاص به، الأمر الذي يسهل الانتفاع منه.. ويحقق أمنية الشيخ أبي الحسن الندوي رحمه الله تعالى.



الفصل الثالث

التقريب بجمع «الموضوع» من عدة كتب

هناك موضوعات تناولها المؤلف في أكثر من كتاب، والبحث عنها.. والوقوف عليها قد لا يكون ميسَّراً لعامة الناس، وبخاصة أن بعضها يكون في طيات الكتاب لا يدل عليه عنوان الكتاب ولا غير ذلك..

ولما لهذه الموضوعات من مكانة رأيت أن أقوم بهذا العمل بحسب ما يسمح به الوقت، فكان من ذلك الكتب التالية:

أولاً ـ فضل العلم والعلماء:

أ ـ وصف الموضوع:

في قائمة مؤلفات ابن القيم كتاب بعنوان «فضل العلم وأهله».

وقد أشار إليه المؤلف في كتابه «طريق الهجرتين»، فقال: «وقد ذكرنا مائتي دليل على فضل العلم وأهله في كتاب مفرد».

ولعل هذا الكتاب الذي أشار إليه المصنف هو «مفتاح دار السعادة»؛ فقد ذكر فيه ثلاثة وخمسين ومائة وجه في فضل العلم، وفي الوجه التاسع والعشرين بعد المائة ذكر فضل العلم على المال من أربعين وجهاً. ويذكر في شرحه الوجهين والثلاثة أثناء شرحه لبعض الوجوه. وبهذا تزيد الوجوه على المائتين.

والمؤلف في عرض هذه الوجوه والفضائل لم يكن ذا منهج، بل جاء التعداد عفوياً وكيفما تيسَّر. . وقد أشار المؤلف إلى ذلك فقال: «ونحن نذكر هنا فصولاً من هذا الباب. . وإن تضمنت بعض التكرار، وإن كانت غير مرتبة».

وجاء هذا الموضوع أيضاً في الكتب التالية:

١ ـ مدارج السالكين.

٢ ـ إعلام الموقعين.

٣ ـ الفوائد. .

ب ـ تقريب الموضوع:

تَمَّ تصنيفُ الفضائل التي جاءت في كتاب «مفتاح دار السعادة»، فوضعتُ الأفكار المتجانسة قريباً من بعضها في حيز واحد. . ثم تمَّ تحديد مكانة الأولوية لكل موضوع حتى يأخذ مكانه في ترتيب الهيكل الموضوعي.

وقد تمَّ ذلك ـ بحمده تعالى ـ وتحولت وجوه الفضائل المتتابعة التي لا تحمل أي عنوان يرشد إليها، تحولت إلى فصول ذات موضوع، تنضوي تحتها فقرات لكل عنوانها.

الأمر الذي يضع يد القارئ على الموضوع المطلوب بسهولة ويسر.

أما كتاب «مدارج السالكين» فقد تعرض إلى موضوع «العلم» عند مقارنته بالمعرفة.. وقد ألحق كل موضوع بمكانه المناسب.

وأما كتاب «إعلام الموقعين» ففيه كلام كثير عن العلم، ولكنه حديث عنه في إطار خاص.. كالرأي والقياس وأنواعه، هذا محله كتاب الأصول، ولذا لم يدخل في هذا الجمع منه سوى مقدمته التي كان منها الفصل الأول في هذا الكتاب.

وأما كتاب «الفوائد» ففيه بعض الفقرات القصيرة.. وقد ألحقت بالمكان المناسب.

وهكذا تشكَّل كتاب «فضل العلم والعلماء»، وقد بلغ عدد فصوله أربعاً وثلاثين.

ثانياً ـ طب القلوب:

وفي قائمة مؤلفات ابن القيم ـ أيضاً ـ كتاب عنوانه «طب القلوب»، ولكنه في قائمة ما لم يعثر عليه حتى الآن.

أ ـ وصف الموضوع :

لقد أشبع ابن القيم هذا الموضوع بحثاً في كتبه المتعددة، ونذكر منها: «مدارج السالكين» و«طريق الهجرتين» و«الجواب الكافي» و«إغاثة اللهفان» و«الفوائد». . . وغيرها.

وقد تحدَّث فيها عن أمراض القلوب، وعلاجها، وأدوائها، سواء أكانت ناشئة عن الشبهات أم الشهوات.

وقد وجدت في كتاب «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» ما يصلح أن يكون المادة الأساس في هذا الموضوع، علماً أن عنوان الكتاب لا يوحي بوجود مثل هذا المبحث فيه.

أما كتاب «إغاثة اللهفان» فقد قسمه مؤلفه إلى ثلاثة عشر باباً، وجعل الثالث عشر للحديث عن مصايد الشيطان، وأما بقية الأبواب فموضوعها جميعاً هو طب القلوب.

وقد تم استكمال مادة الموضوع من الكتب الأخرى التي سبق ذكرها.

ب ـ تقريب الموضوع :

إن الأبواب التي في كتاب «إغاثة اللهفان» جاءت بغير ترتيب، فلم يلاحظ في وضعها قصد يؤدي إلى هدف للمؤلف، وإنما جاء عفواً كما تيسَّر له.

يدلنا على ذلك: أن الباب الثامن تحدث عن زكاة القلب، وبعده تحدث الباب التاسع عن طهارة القلب، والطهارة مقدمة على الزكاة.

وجاء تقسيم القلوب إلى صحيح وسقيم وميت في الباب الأول، بينما جاءت علامات مرض القلب وصحته في العاشر، والمناسب أن تكون في الباب الثاني.

وهكذا..

فكان لا بد من ترتيب مادة الموضوع.. وتم ذلك.

ومما روعي إلى جانب ذلك:

- أن بعض الموضوعات قد جاءت في أكثر من باب، فتم جمعها.

- وفي المقابل جمع المؤلف في الباب الأول موضوعين: فكان من المستحسن وضع الثاني منهما في المكان المناسب.

وقد أضيف إلى مادة الكتاب التي أخذت من «إغاثة اللهفان» من الكتب الأخرى ما يتمم الموضوع. ومن ذلك:

- الفصل الثاني في الباب الثاني.

- الفصل الثاني في الباب الخامس.

ـ الفصلان الثاني والثالث من الباب السادس.

ـ الفقرة الأولى من الباب الأول.

ـ مقدمة الفصل الأول من الباب الخامس.

ـ البابان: الثاني عشر والثالث عشر.

وقد أشرتُ إلى مرجع كل ما أضفته.

وقد تمت العناية بالشكل من تقسيم الأبواب إلى فصول، والفصول إلى فقرات.

ثالثاً ـ قل انظروا:

سبق الحديث عن هذا الكتاب عند الحديث عن السنن الإلٰهية في الباب الثالث من هذا الكتاب[1].



(١) انظر: ص ١٦٣، وما بعدها.

الفصل الرابع

التقريب بالتهذيب

المقصود بتهذيب كتاب هو استخلاص مادته «الأصل» مما لابسها من استطراد وتطويل وغير ذلك مما يعيق ترابط الموضوع، بحيث يصبح الكتاب وافياً بغرضه على طريقة المستقيم الذي هو أقصر خط بين نقطتين.

وقد تمَّ تقريب الكتب التالية على هذه الطريقة:

أولاً ـ المهذب من مدارج السالكين:

وصف الكتاب:

ألف ابن القيم كتاب «مدارج السالكين» شرحاً لكتاب «منازل السائرين إلى الحق المبين» الذي ألفه شيخ الإسلام أبو إسماعيل عبد الله الهروي المتوفى سنة (٤٨١ هـ)؛ وهو واحد من شيوخ الحنابلة.

وربما كان الدافع للشرح هو الدفاع عن الشيخ وحفظاً لمكانته.

وكتاب «مدارج السالكين» بدأه المؤلف بالحديث عن سورة الفاتحة، ثم بدأ الكلام على المنازل التي ذكرها الهروي.

وطريقته في عرض المنازل: أنه يتحدث عن «المنزلة» محل البحث، فيتكلم بما يسَّره الله له، ويستوفي ما يتعلق بالموضوع، ثم ينتقل إلى ما قاله الهروي فيتناوله بالشرح جملة جملة. .

وهكذا فالقارئ للكتاب يشعر وكأنه أمام كتابين في موضوع واحد، لمؤلف واحد.

أما الأول: فهو ما كتبه المؤلف عن المنازل، وهو مدارج السالكين.

وأما الثاني: فهو شرح كتاب «منازل السالكين».

ونتج عن ذلك:

١ ـ التكرار؛ فالموضوع يعرض مرتين.

٢ ـ أصبح الكتاب ثلاثة مجلدات، وكان يكفيه مجلد واحد.

٣ ـ تشويش فكر القارئ وبخاصة عندما تكون وجهات النظر مختلفة بين الشيخين.

٤ ـ تقطيع الموضوع ـ في غالب الأحيان ـ بسبب طريقه الشرح تارة، وبسبب الاستطراد تارة أخرى.

وهذا ما جعل الكتاب صعباً على الفهم، حتى قال الأستاذ صلاح شادي: «عالجت صفحاته في شوق، ولكن صدمتني وعورة دروبه ومسالكه؛ فانصرفت عنه!».

أ ـ تقريب الكتاب:

إن الأمور السابقة دفعت إلى فكرة تهذيب الكتاب بحيث يقتصر فيه على:

١ ـ ما كتبه ابن القيم بشأن «المنازل» بعيداً عن الشرح المتعلق بكتاب الهروي.

٢ ـ الاقتصار على المادة المتعلقة بعنوان الكتاب وموضوعه بعيداً عن الاستطرادات.

وقد تم ذلك ـ بحمد الله تعالى ـ؛ حيث تم استخراج كلام الإمام من ثنايا شرحه للمنازل، وتمت تنقيته من الاستطرادات.

وبهذه الطريقة تم الابتعاد عن «المصطلحات» التي وردت في «المنازل» والتي انتقدها ابن القيم أشد النقد.

وقسمت الكتاب إلى ثلاثة أبواب:

الباب الأول، وعنوانه: الكلام على فاتحة الكتاب، وجاء في سبعة فصول.

الباب الثاني، وعنوانه: منازل إياك نعبد وإياك نستعين، وفيه موضوع الكتاب وقد مهدت له بفصلين.. تم بعدهما عرض المنازل واحدة بعد الأخرى.

الباب الثالث، تحت عنوان: مختارات، وفيه عدة موضوعات ذات صلة بموضوع الكتاب جاءت ضمن الاستطرادات، فرأيت جمعها في هذا الباب.

إن هذا العمل ليس اختصاراً للأصل، ولكنه انتقاء لمادة الكتاب المرتبطة بعنوانه، وجمع لها وترتيب.

ثانياً ـ القضاء والقدر:

أ ـ وصف الكتاب:

ألف المصنف في هذا الموضوع كتابه «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل».

والكتاب يتناول الموضوع بكل أبعاده، فهو يعرض مذهب أهل السنة في المسألة ـ الذي هو غرض الكتاب ـ ويعرض المذاهب الأخرى، ويستعرض حجج أصحابها، في غير تعصب أو تحامل، فيقبل صحيح هذه الحجج ويرفض باطلها.

وهو بهذا كتاب فقه مقارن في شأن مسألة القدر.

ب ـ تقريب الكتاب:

يهدف التقريب إلى الاقتصار على عرض مذهب أهل السنة، بعيداً عن آراء المذاهب الأخرى ومناقشتها، وبهذا تتسع دائرة الاستفادة منه، ولا يبقى قاصراً على العلماء وطلاب العلم.

ومن أجل ذلك:

١ ـ كان لا بد من جهد يبذل لاستخلاص كلام ابن القيم المتعلق بمذهب أهل السنة مما لابسه من عرض ومناقشة للمذاهب الأخرى. وقد تم ذلك.

٢ ـ أطال المؤلف في بعض المواطن كثيراً، تارة بإيراد النصوص، وتارة بإيراد الأمثلة، وبعض هذه النصوص أو الأمثلة يفي بالغرض على أكمل وجه، فاكتفيت بما يحقق الغرض.

٣ ـ في الكتاب استطرادات تناسبية غير قليلة، رأيت تركها اقتصارا على ما له صلة مباشرة بالموضوع.

٤ ـ أدخلت بعض التعديلات على ترتيب مادة الكتاب، بغية الحفاظ على سهولة التعامل مع الموضوع، ومن أمثلة ذلك أن التعريف بالقدر جاء في الباب التاسع، والمستحسن أن يكون في أول الكتاب.

٥ ـ حرصت على عدم تداخل الأفكار، فأفردت لكل فكرة فقرة.

وخلاصة القول: إن هذا الكتاب في حجمه يعادل أقل من ثلث الأصل، وقد استوفي جميع الأفكار التي عرضها المؤلف بالنسبة لمذهب أهل السنة.

ولهذا فليس الكتاب مختصراً للأصل.

ثالثاً ـ البيان في مصايد الشيطان:

أ ـ وصف الكتاب:

سبق الحديث عن كتاب «إغاثة اللهفان» عند الحديث عن كتاب «طب القلوب»، وأن الباب الثالث عشر هو الذي يمثِّل الموضوع الذي بين أيدينا.

وتحت هذا الباب فصول كثيرة بلغت كما عددتها: (١٨١) فصلاً، وهي لا تحمل عناوين، وما ذكر من ذلك فهو من وضع المحققين، وبعض الفصول جاء في أسطر، وبعضها في عشرات الصفحات.

وعلى كثرة الفصول؛ فإن المؤلف كثيراً ما يضع موضوعين في فصل، وفي المقابل قد يعالج الموضوع في فصلين متباعدين.

ب ـ تقريب الكتاب:

إن الغاية من هذا العمل، هي إخراج هذا الكتاب بحيث يضع القارئ يده على مصايد الشيطان، الواحدة بعد الأخرى، حتى يظل مرتبطاً بعنوان الكتاب ارتباطاً مباشراً.

وهو ما تم عمله وأصبح القارئ أمام تسعة عشر فصلاً، هي مجموع ما سجله الإمام من هذه المصايد.

فهو ليس اختصاراً، ولا انتقاء، وإنما هو مادة الكتاب التي وضعها المؤلف بعيداً عما ليس له علاقة بالموضوع.

ولا أريد الإطالة في تفصيل العمل الذي تمَّ فهو على شاكلة ما سبق شرحه.

والكتاب يعدل ربع الأصل، ولكنه يقدم المادة كاملة.



خاتمة التقريب

وبعد، فهذا ما يسره الله من هذا المشروع حتى كتابة هذه الأحرف.

ولقد سمعت الثناء عليه..

ولكني في المقابل أقول: ربما لم يعجب هذا العمل بعضهم، وربما قال: إن التدخل في بنية كتاب وضعه مؤلفه بالشكل الذي رآه، أمر غير مشروع.

وفي الجواب على ذلك أقول: إن النيات والقصود تحدد قيمة العمل، وما قصدته هو تقريب هذا التراث الجليل إلى الناس.. والعمل شاهد على النية، والخير أردت.

ثم إن هذا العمل كان تلبية لرغبة علماء لهم مكانتهم في الأمة كأمثال أبي الحسن الندوي.

ولقد رأينا كثيراً من العلماء يجتزئون بعض البحوث من كتب ابن القيم ويطبعونها منفردة عن أصلها رغبة في إيصال الخير إلى الناس، وما عملي إلا شبيه بعملهم من بعض الوجوه.

يضاف إلى ذلك أن هذا العمل لا يلغي الأصل، فالطبعات

للكتاب الأصل موجودة ومتوفرة بكثرة كبيرة، فوجود طبعة التقريب لا يؤثر عليها. . فمن رغب في الأصل أخذه، ومن رغب في التقريب أخذه. .

ولعل من يوجه مثل هذا النقد، لم يلتقِ بمن التقيت بهم وذكرت قصتهم مع كتاب «طريق الهجرتين».

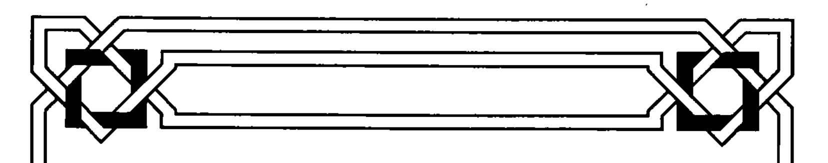
وأما التدخل في بنية الكتاب بالمعنى الذي يغير ما قصد إليه المؤلف أو يسيء إلى نصوصه، فهذا لم يحدث، وإنما هي ـ في الغالب ـ ترتيب الموضوعات بحسب الأولوية، فهو تدخل في الشكل فقط.

ولهذا وثَّقْت عملي جميعه؛ فبينت مرجع كل نص ومكانه من الأصل، حتى ولو كان فقرة صغيرة. . بحيث يستطيع القارئ الرجوع إلى الأصل بيسر وسهولة؛ وهو يستطيع حينئذ الحكم في حصول التغير وعدمه.

ومهما يكن من أمر، فإني لم أسمع نقداً، وإنما افترضته. . وصدري واسع لقبول النقد الهادف. . ومع ذلك فإن الكتب التي أنتجها هذا المشروع من حق منتجه أن يقول كما قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: لو قام بهذا العمل قائم لأثنيت عليه وبالغت في استحسانه.







الباب السادس

التعريف بالكتب الأخرى للإمام ابن القيم



التعريف بكتبه الأخرى

تعرفنا من خلال ما سبق على طائفة من كتب الإمام ابن القيم، واستكمالاً للتعرف على تراثه، رأيت أن أضيف هذا الباب، وفيه نتوقَّف عند بعض الكتب التي لم يتح لنا ـ من خلال البحث ـ التعرف عليها.

إنها وقفة قصيرة عند كل كتاب تلقي الضوء على الخطوط العريضة فيه والموضوعات الرئيسة:

أولاً ـ كتاب الصلاة:

يقع هذا الكتاب في (١٥٠) صفحة، والكتاب جاء جواباً على سؤال ورد على الشيخ بشأن حكم تارك الصلاة عمداً، وأمور أخرى تتعلق بذلك.

ولقد كان الجواب وافياً، كما هي طريقة ابن القيم في مثل هذا الأمر.

فتحدَّث عن مكانة الصلاة، ثم تكلم عن حكم تاركها ومناقشة الأقوال في ذلك.. وهذا ما دفعه إلى الحديث عن كفر الاعتقاد وكفر العمل.. وهل الصلاة شرط لصحة الإيمان؟.

ثم تحدث عن الصلاة الفائتة، هل قضاؤها على الفور أو على التراخي..؟.

وهل صلاة الجماعة فرض عين أم كفاية أم سنة؟.

وختم الكتاب بوصف صلاة النبي ﷺ وبيان هديه فيها.

ثانياً ـ روضة المحبين:

هذا الكتاب يوحي عنوانه بمضمونه، واختيار العنوان يدل على الذوق الذي يتمتع به الإمام ابن القيم، فبمجرد قراءة العنوان يذهب ذهن القارئ ليرسم تلك الروضة الوارفة الظلال.. وفي جنباتها المحبون هنا وهناك كل فريق اتخذ زاوية في هذه الروضة.. يسترجع فيها أحزانه.. أو يعيش فيها سروره وسعادته..

ولسنا بحاجة إلى التعريف بالكتاب، فقد كفانا المؤلف هذه المهمة فقال في مقدمته:

«وهذا الكتاب يصلح لسائر طبقات الناس، فإنه يصلح عوناً على الدين وعلى الدنيا، ومرقاة للذة العاجلة ولذة العقبى، وفيه ذكر أقسام المحبة وأحكامها ومتعلقاتها، وصحيحها وفاسدها، وآفاتها وغوائلها، وأسبابها وموانعها، وما يناسب ذلك من نكت تفسيرية، وأحاديث نبوية، ومسائل فقهية، وآثار سلفية، وشواهد

شعرية، ووقائع كونية، ما يكون ممتعاً لقارئه، مروِّحاً للناظر فيه، فإن شاء أوسعه جداً، وأعطاه ترغيباً وترهيباً، وإن شاء أخذ من هزله ومُلحه نصيباً.

فتارة يضحكه، وتارة يبكيه، وطوراً يبعده من أسباب اللذة الفانية، وطوراً يرغبه فيها ويدنيه، فإن شئت وجدته واعظاً ناصحاً، وإن شئت وجدته بنصيبك من اللذة والشهوة ووصل الحبيب مسامحاً..».

وإذا كنا نتحدث عن «روضة» فإن ابن القيم يقدم لنا في هذا الكتاب روضة أخرى من خلال عرضه للموضوع، فنحن في هذا الكتاب:

ـ نستمع إلى ابن القيم اللغوي عندما يتحدث عن أسماء المحبة واشتقاقها ومعانيها..

ـ ونستمع إليه أديباً عندما يتحدَّث عن العشق وسكرته، وكون اللذة تابعة للمحبة، وعندما يتحدَّث عن الجمال وميل النفوس إليه..

ـ ونستمع إليه فقيهاً، عندما يتحدَّث عن شبه من أباح النظر، ثم يجيب على ذلك.

ـ ونستمع إليه مناظراً يدير الحوار بين القلب والعين، وكل منهما يلقي باللوم على الطرف الآخر.

إنها روضة أخرى قدمها ابن القيم بأساليبه المتنوعة، فكانت باقة تطرب الأذن وتسر الخاطر.

ثالثاً ـ حادي الأرواح:

كتاب «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح» اسم يطابق مسماه، ولفظ وافق معناه كما قال مؤلفه، الذي بذل جهده في جمعه وترتيبه.

والدافع إلى تأليفه ـ كما قال ـ: هو بشارة أهل السنة، بما أعد الله لهم في الجنة، فإنهم المستحقون للبشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

والكتاب بجملته وصف للجنة في كلياتها وجزئياتها، فهو مثلاً: يذكر أبوابها وعدد هذه الأبواب، والمسافة بين كل بابين.. ويتحدَّث عن درجات الجنة بالتفصيل، وعن مفتاحها وعن أسمائها..

ويذكر أول من يقرع بابها، وأول الأمم دخولاً. وأن الفقراء يدخلون قبل الأغنياء.

ثم يتحدث عن الغرف والقصور والخيام.. وعن سوق الجنة.

وكذلك عن الطعام والثمار والأواني والخدم..

ويختم الكتاب بفصل يتحدث فيه عن المستحقين لهذه البشارة، ويذكر صفاتهم التي وردت في القرآن الكريم.

وبما أن الحديث عن الجنة، إنما هو حديث عن عالم الغيب، ولا مجال فيه للرأي؛ فإن الأحاديث الشريفة كانت عماد الموضوع، وقد كثرت كثرة ملحوظة، الأمر الذي يدلل على سعة اطلاع المؤلف على السنة.

رابعاً ـ الرسالة التبوكية:

وهي رسالة صغيرة في حدود (٤٠) صفحة، وليس فيها بيان لسبب تسميتها بذلك سوى ما جاء في أولها: قال الشيخ ابن قيم الجوزية.. في كتابه الذي سيره من تبوك ثامن المحرم ثلاث وثلاثين وسبعمائة..

ويبدو أنها رسالة نصيحة بعث بها إلى إخوانه.

والرسالة تبدأ بقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢].

ثم قال: «وقد اشتملت هذه الآية على جميع مصالح العباد في معاشهم ومعادهم، فيما بينهم بعضهم مع بعض، وفيما بينهم وبين خالقهم.

وهذا التقسيم ـ كما قال ـ قاعدة جليلة، من أمثلتها حديث البر والإثم.. ثم شرح معنى البر والإثم.

ثم ذكر فصلاً تحدَّث فيه عن الهجرة إلى الله ورسوله ﷺ، الهجرة بالجسم، والهجرة بالقلب والفرار إلى الله، والهجرة إلى الرسول ﷺ تكون باتباع سنته..

ثم تحدَّث في فصل آخر عن أن أطفال المؤمنين يلحقون بآبائهم في الجنة.

وفي فصل آخر تحدَّث عن كيفية تدبر القرآن وتفهمه..

إنها رسالة صغيرة ولكنها تحمل كل خصائص ابن القيم في تأليفه للكتب الكبيرة، فهي رسالة توجيه ونصيحة.. نوَّع فيها النصائح.. من هنا وهناك.

خامساً ـ قصيدته النونية:

وقد سماها المؤلف بـ «الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية» وهي قصيدة طويلة تقارب أبياتها ستة آلاف بيت، قافيتها «النون» ولذلك سميت النونية، ومطلعها:

حكـــمُ المحبـــة ثـــابـــت الأركـــان
مـــا للصـــدود بفســـخِ ذاك يـــدان

وفي هذه القصيدة ردَّ علىٰ الملاحدة، والمتكلمين، وبيَّن

مذهب السلف في الاستواء، وردَّ على المخالفين، كما تكلم في سائر الصفات كلامه في الاستواء، وفي آخرها وصف الجنة وصفاً شاملاً مشوقاً، كي يشمِّر لها من كان من أهلها.

وخلاصة القول: إنها قصيدة عظيمة في عقيدة أهل السنة والجماعة ونصرها.

هذا، وللإمام قصيدة أخرى «ميمية»؛ مطلعها:

إذا طلعت شمس النهار فإنها
أمارةُ تسليمي عليكم فسلِّموا

تقع في أكثر من مائتي بيت، تكلم فيها عن حب الصالحين، وفيها التشويق إلى الحج ومناسكه، وفيها ذم للدنيا وأهلها، ثم تكلم على نعيم الآخرة، ولا سيما النظر إلى وجه الله تعالى.

سادساً ـ المنار المنيف:

هذه الرسالة تقع في حدود (٣٠) صفحة، واسمها «المنار المنيف في الصحيح والضعيف»، ولها اسم آخر هو «نقد المنقول والمحك المميز بين المردود والمقبول».

وقد بين المؤلف موضوع هذه الرسالة بقوله:

«وسئلت: هل يمكن معرفة الحديث الموضوع بضابط من غير أن ينظر في سنده؟.

فقلت: هذا سؤال عظيم القدر، وإنما يعرف ذلك من تضلَّع في معرفة السنن الصحيحة، واختلطت بدمه ولحمه، وصار له فيها ملكة واختصاص شديد بمعرفة السنن والآثار، ومعرفة سيرة رسول الله ﷺ وهديه فيما يأمر به وينهى عنه، ويخبر عنه، ويدعو إليه، ويحبه ويكرهه، ويشرعه للأمة، بحيث كأنه مخالط للرسول ﷺ كواحد من أصحابه الكرام.

فمثل هذا يعرف من أحوال الرسول ﷺ وهديه وكلامه، وأقواله وأفعاله، وما يجوز أن يخبر عنه، وما لا يجوز..».

ثم ذهب يسوق الأمثلة من النصوص بياناً لما ذكره في هذا الجواب.

سابعاً ـ تحفة المودود بأحكام المولود:

هذا الكتاب جمع فيه المؤلف كل الأحكام المتعلقة بالمولود، وجعله في سبعة عشر باباً.

تحدَّث فيه عن استحباب طلب الأولاد، وكراهة تسخط البنات، واستحباب الأذان والإقامة في أذن المولود، وكذلك تحنيكه، والعقيقة عنه وحلق رأسه..

وتسميته وختانه، وجواز حمله في الصلاة، واستحباب تقبيل الأولاد.

كما تحدَّث عن حكم بول الغلام والجارية قبل أكلهما الطعام.

وتناول في حديثه أيضاً وجوب تأديب الأطفال وتربيتهم.

وختم الكتاب بباب ذكر فيه أطوار الطفل من حين كونه نطفة إلى وقت دخول الجنة أو النار.

وهكذا جاء هذا الكتاب وافياً بكل ما يرتبط بموضوعه.

ثامناً ـ هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى:

يتحدَّث المؤلف عن أسباب تصنيف هذا الكتاب فيقول:

«كان انتهى إلينا مسائل أوردها بعض الكفار الملحدين على بعض المسلمين، فلم يصادف عنده ما يشفيه، ولا وقع دواؤه على الداء الذي فيه، وظن المسلم أنه بإجابته القاصرة أصاب، فقال: هذا هو الجواب، فقال الكافر: صدق أصحابنا قولهم: إن دين الإسلام إنما قام بالسيف لا بالكتاب.

فتفرقا، وهذا ضارب، وهذا مضروب، وضاعت الحجة بين الطالب والمطلوب.

فشمر المجيب عن ساعد العزم، ونهض على ساق الجد، وقام لله قيام مستعين به مفوض إليه، متَّكل عليه في موافقة مرضاته، ولم يقل مقالة العجزة الجهال: إن الكفار إنما يعاملون

بالجلاد دون الجدال، وهذا فرار من الزحف، وإخلاد إلى العجز والضعف.

وقد أمر الله بمجادلة الكفار بعد دعوتهم، إقامة للحجة، وإزاحة للعذر، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيي عن بينة».

وهكذا أوضح المصنف السبب الدافع لتأليف هذا الكتاب، ثم قال: «وسميته: هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، وقسمته قسمين:

القسم الأول: في أجوبة المسائل.

والقسم الثاني: في تقرير نبوة محمد ﷺ بجميع أنواع الدلائل».

والذي يبدو أن نبوته ﷺ كانت محور النقاش الذي لم يحسن المسلم الحوار بشأنه، فجاء ابن القيم بكتابه ليجلي الصورة، ويضع البراهين والأدلة بين الأيدي.

تاسعاً ـ الفوائد:

هذا الكتاب يتوافق مضمونه مع اسمه، ومثل هذا الكتاب لا يدون عادة دفعة واحدة، وإنما تتجمع مادته مع الأيام، فهو حصيلة ثمينة، إذ فيه ثمرات الأفكار وخلاصة العلم..

وقد حقق هذا الكتاب الأستاذ بشير محمد عيون فقال في وصفه:

«.. في الكتاب من الفوائد المتعلقة بتفسير كتاب الله، أو شرح حديث رسول الله ﷺ، أو موعظة للنفس، أو تنبيه من هوى مهلك، أو ترغيب في طاعة منجية، فساق الآيات والأحاديث ورقائق الشعر، وبليغ القول، ما يبلغه مراده.

إنها خواطر سنحت للمؤلف أثناء حياته العلمية، ومجاهدته لنفسه لإقامتها على الجادة، فهي تجربة المؤلف وصدى لحياته، لذلك تجد الصدق في العبارة جلياً، والإخلاص بيناً.

والمؤلف في بعض الحكم والمواعظ اعتمد الرمز والإشارة، فجاء أسلوبه شفيفاً مجنحاً؛ يشبع الخيال، ويروح النفس..» اهـ.

وأضيف إلى قول المحقق أنه حوى بعض البحوث النادرة التي قد يتعب الباحث عنها فلا يجدها في كتاب، وذلك مثل حديثه عن «الجمال» الذي بدأه بالحديث عن جمال الله تعالى، ثم تحدث عن الجمال الباطن والجمال الظاهر..

وهذا الكتاب من الكتب التي لا يمل الإنسان من النظر فيه، ولقد قرأته أكثر من مرة..

عاشراً ـ الفروسية:

يقع هذا الكتاب في (١٥٠) صفحة تناول فيه المؤلف الحديث عن أنواع الرياضة البدنية من مسابقة على الأقدام، وبين الخيل والإبل، وتحدث عن الرمي، وعما تظهر به الفروسية، كما تحدث عن أنواع السلاح.

وقد أخذت مناقشة مسألة المسابقة بغير محلل ـ التي كان يفتي بها ـ حيِّزاً واسعاً من الكتاب، وهي المسألة التي استدعي من أجلها إلى مجلس قاضي القضاة في يوم من الأيام..

ويرى ابن القيم: أن الفروسية فروسيتان: فروسية العلم والبيان، وفروسية الرمي والطعن، وكان أصحاب النبي ﷺ أكمل الخلق فيهما.

حادي عشر ـ الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة:

ويقع هذا الكتاب في مجلدين، وموضوعه مطابق لعنوانه، ومحور الكتاب يدور على بيان أن «التأويل» هو سبب انحراف تلك الفرق، فتأويل الصفات يخرجها عن حقائقها، وهو أصل فساد الدين.

والكتاب مطبوع متداول.

ثاني عشر ـ أحكام أهل الذمة:

وسبب تأليف الكتاب كما في المقدمة أن ابن القيم سئل عن الجزية، وسبب وضعها. .

وعلى طريقة ابن القيم في إجاباته، فقد توسَّع في الإجابة حتى تحدَّث عن كل ما يتعلق بهم.

فتحدث عن السلام عليهم، وعن عيادة مرضاهم، وشهود جنائزهم، وكذلك تعزيتهم، وتهنئتهم.

وكذلك عن أحكام ذبائحهم، وعن معاملتهم في البيع والشراء والشركة. . وعن مناكحاتهم. . وعن حكم أطفالهم في الآخرة، إلى غير ذلك من الأحكام.

لقد استوفى المؤلف كل ما يتعلق بالموضوع، وذلك هو شأنه في كتبه ذات الموضوع الواحد، فإنه لا يترك لمتحدث بعده مقالاً. .

ثالث عشر ـ الكلام على مسألة السماع:

والمقصود بالسماع «سماع الغناء» وهو موضوع تناوله المؤلف في أكثر من كتاب، واستوفى الكلام عليه في كتاب «إغاثة اللهفان»؛ حيث أخذ مساحة من الكتاب تزيد على (٥٠) صفحة.

وإفراد المصنف هذا الموضوع بالكتابة، يدل على أن السماع كان منتشراً في عهده، فتكرار الكتابة فيه والإلحاح عليه، إصرار من المؤلف على اتخاذ الأسباب لمحاربة هذه الظاهرة.

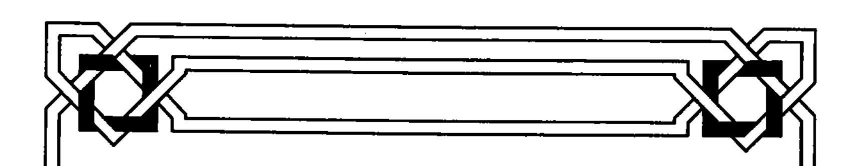
يقول الشيخ بكر أبو زيد: «ولما قرأت هذا الكتاب بعد طباعته وجدته قد اعتمد كثيراً على كتاب شيخه «الاستقامة»».

١٤ ـ إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان:

هي رسالة صغيرة تتألف من مقدمة وثلاثة فصول، ومحور الموضوع فيها حديث (**لا طلاق في إغلاق**) وقول الإمام مالك: لغو اليمين هو اليمين في الغضب، والخلاصة أن طلاق الغضبان لا يقع.

وقد تحدث في الفصل الأول عن دلالة الكتاب على ذلك، وفي الفصل الثاني: عن دلالة السنة على ذلك، وفي الفصل الثالث عن اعتبار أصول الشريعة لذلك.





الباب السابع

ابن القيم الإمام المصلح

تمهيد

بدأ شيخ الإسلام ابن تيمية حركة إصلاحية واسعة في حياته، وقد شاركه في الفترة الأخيرة منها ـ حتى وفاته ـ تلميذه ابن القيم.. الذي أصابه في سبيل ذلك بعض ما أصاب شيخه من سجن وعناء.

واستمر ابن القيم على الطريق الذي تركه عليه شيخه يجاهد بحسب استطاعته في سبيل ما آمن به ورأى أنه الحق..

والعمل على الإصلاح والدعوة إليه ـ شأنه شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ ليس له تخصص أو مجال محدد.. وإنما هو عام..

وفي هذا الباب نتحدث عن بعض مجالات الإصلاح التي عمل فيها..



الفصل الأول

إصلاح النفوس

كما رأينا كان ابن القيم إماماً لجامع مدرسة الجوزية وخطيباً في جامع خليخان، وهذان العملان يجعلانه على صلة دائمة بالناس، يعيش معهم قضاياهم وهمومهم، ويتعرَّف على الانحرافات التي تغزو مجتمعهم. . ومن هنا تبدأ مهمة العالم والمصلح.

وإذا كان ابن القيم يشترط في صفات القاضي أن يكون عالماً بأحوال الناس، فمن باب أولى أن يكون ذلك شرطاً في شخصية الخطيب الذي يوجه الأمة.

ولا أتصور أن يكون ـ ابن القيم ـ في خطبته واحداً من قراء الصحف الذين يقع على عاتقهم جانب كبير من تخلف الأمة ـ أصلحهم الله وهداهم ـ ذلك أنه الحريص على التزام

السنة، وقد كان ﷺ على منبره كأنه منذر جيش يقول: صبحكم ومساكم.. وكيف يبعث الأمة قارئ صحف كالذي يقرأ على القبور.

لقد كان خطيباً فاعلاً يعالج مشكلات الناس، ويصحح عوجهم، ويرشدهم إلى الخير..

ولعل الموضوعات التي سجَّلها في كتبه الإصلاحية كانت صدى لتلك الخطب التي كانت تنبع من الواقع.

الخط العام:

ونعتقد أن الخط العام الذي انتهجه ابن القيم في الإصلاح هو العمل على ربط الناس برسولهم ﷺ اقتداءً وتأسياً، وهو ما ألحَّ عليه في كتابه «زاد المعاد»؛ حتى إنه في العبادات قدمها وصفاً لأفعال الرسول ﷺ فيها، ولم يقدمها بلغة «الفقه» من أركان وشروط وسنن، وما ذاك إلا لربط المسلم بنبيه ﷺ مباشرة.

كما طالب الناس بمطالعة السيرة المباركة، وحثهم على ذلك، لأن سعادة العبد في الدارين معلقة بهديه ﷺ..

وجعل ابن القيم الحدَّ الأدنى لهذه المعرفة: أن يعرف المسلم من سيرته ﷺ ما يخرج به من عداد الجاهلين به، ويدخل في عداد أتباعه..

أما الهدف الذي ينبغي أن يسعى إليه كل مسلم من المعرفة: هو أن يطالع سيرته ومبادئ أمره، وكيفية نزول الوحي عليه، ويعرف صفاته وأخلاقه، وآدابه في حركاته وسكونه، ويقظته ومنامه، وعبادته، ومعاشرته لأهله وأصحابه، حتى يصير كأنه معه من بعض أصحابه..

هكذا - يريده ابن القيم - أن يكون المسلم مع نبيه ﷺ، وكأنه معه من بعض أصحابه.

ومن خلال هذا الخط العام ينطلق إلى ثلاثة محاور يرى أنها تؤدي إلى الحد الأدنى من السلامة لضمان إصلاح النفوس؛ وهي:

- الحذر من كيد الشيطان.
- الطهارة من الذنوب.
- إصلاح القلوب.

ونتحدث عن كل منها في كلمات:

الحذر من كيد الشيطان:

جاء التحذير من الشيطان في آيات كثيرة من القرآن الكريم، وسجلت بعض هذه الآيات عداوته للإنسان صراحة حتى يكون

الإنسان على حذر كامل ويقظة تامة؛ فالخطر شديد والخطب جليل. . ومن هذه الآيات:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨ ـ ١٦٩].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [يوسف: ٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

فعلى الإنسان أن يبذل جهده في سبيل الحذر منه، ولكنه لا يمكنه ذلك إلا إذا تعرَّف على مداخله التي يتسرب منها إلى نفس الإنسان، حتى يسدها عليه. .

ومن أجل ذلك دوَّن ابن القيم كتابه «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» الذي سجَّل فيه كثيراً من حيله ومصايده. . وهي متنوعة. . تغطي جميع الناس، كلاًّ بحسبه وبالطريقة التي يمكن أن تؤدي الغرض. .

ففي هذا الكتاب بين ابن القيم هذه الحيل والمصايد حتى يكون الإنسان على بينة منها، ويعرف خاتم إبليس عليها عندما تقدم إليه.

ولم يكن ابن القيم أول من انتبه إلى ذلك؛ فقد قال الإمام شقيق البلخي المتوفى سنة (١٩٤ هـ):

لو أن رجلاً أقام مائتي سنة لا يعرف هذه الأربعة أشياء لم ينجُ من النار إن شاء الله.

أحدها: معرفة الله تعالى، **والثاني**: معرفة نفسه، **والثالث**: معرفة أمر الله ونهيه، **والرابع**: معرفة عدو الله [إبليس] وعدو نفسه[1].

وجاء بعده الحارث المحاسبي المتوفى سنة (٢٤٢ هـ) ليقول الكلمة نفسها.

وجاء الغزالي فتناول هذا الموضوع في أماكن كثيرة من «إحيائه».

ورأى ابن الجوزي أن هذا الموضوع من الخطر بحيث يستحق أن يعالج في كتاب كامل، فوضع كتابه «تلبيس إبليس».

وإذاً، فالموضوع خطير، فعندما يتنبَّه له ابن القيم، ويطرحه للتداول، فإنما ينصح الأمة ويضعها على طريق صلاحها.

---

(١) تهذيب حلية الأولياء (٢/ ٤٩٧)، المكتب الإسلامي.

الطهارة من الذنوب:

إن الطهارة تسبق الصلاة، والطهارة من الآثام والمعاصي والبعد عنها أمر اتخذ الإسلام كل الوسائل بغية تحقيقه، وفي سبيل ذلك جاءت الآيات الكريمة الكثيرة والأحاديث الشريفة.. داعية إلى التقوى محذرة من المعصية..

وقد أسهم ابن القيم في بيان هذا الموضوع وشرحه شرحاً مفصلاً في كثير من كتبه، ولكنه في كتاب «الجواب الكافي» يركز وبشكل كبير على بيان الآثار التي تترتب على المعاصي.. وعندما يقف الإنسان العاقل أمام هذه الآثار لا بد أن تكون رادعاً له عن اقتراف المخالفات..

فهي تُذهب الحياء، وتضعف تعظيم الربِّ في القلب، وتخرج العبد من دائرة الإحسان، وتضر بصحة القلب، وتمحق بركة العمر، وتزيل النعم..

ولا شك بأن ابن القيم كان يرفع صوته بذلك في مجتمعه محذِّراً ومنذراً، وبخاصة في خطبة الجمعة حيث يجتمع الناس..

وتلك هي وسيلة الداعية: الكتابة.. والقول.

إصلاح القلوب:

بذل ابن القيم جهداً كبيراً في الوصول إلى هذه الغاية،

فتعددت كتبه وكثرت مقالاته، فوصف أمراض القلب وبيَّن أعراضها ووضع العلاج بين أيدي المرضى، كما دعا الأصحاء إلى اتخاذ الوقاية من هذه الأمراض.

ورأى أن الأمراض التي تصيب القلب عادة نوعان:

- أمراض الشهوات.

- وأمراض الشبهات.

أما النوع الأول فتكون الوقاية منه بالحمية، وذلك باجتناب الآثام والمعاصي وأنواع المخالفات.. وبالتوبة النصوح.

وأما النوع الثاني فتكون الوقاية منه، بالإيمان وتصحيح أمر المعتقد والتزام الطاعات.

ثم ما يزال المسلم يتقرَّب إلى الله تعالى بالطاعات حتى يصل إلى درجة الإحسان.

لقد بذل ابن القيم من وقته الشيء الكثير للدلالة على الحق والإرشاد إلى الصواب.. فكتب من أجل ذلك «مدارج السالكين» و«طريق الهجرتين» و«إغاثة اللهفان».. وغيرها..

* * *

إن الإصلاح عملية مستمرَّة لا تتوقف، وإذا كان الدعاة يبذلون

جهدهم في حياتهم من أجل ذلك، فإن مؤلفاتهم تؤدي دورها بعد مماتهم، ولقد كان لمؤلفات ابن القيم دورها الكبير على توالي الأيام بعد وفاته، فاستفاد منها الدعاة والمصلحون الذين هم وسيلة الإصلاح وآلته.



الفصل الثاني

دعوة إلى الكتاب والسنة

كانت المدارس منتشرة في دمشق بشكل واسع، تدرس علوم الإسلام من فقه وحديث وغيرهما، يرعاها الأعيان والأغنياء من ذوي الثراء.. ويقيمون عليها الأوقاف التي تفي بحاجاتها..

وكانت في غالب الأحيان تلتزم الواحدة منها بتدريس مذهب معين حسب رغبة الواقف والممول.. ويلتزم الطلاب فيها بدراسة ذلك المذهب.

كما كانت المساجد وحلقات العلم كذلك.

ومن الملفت للنظر ضبط الالتزام بالمذهبية: ما حكاه ابن القيم عن شيخ الإسلام ابن تيمية، حيث أنكر عليه بعض المقلدة تدريسه بمدرسة ابن الحنبلي مع أنه مجتهد، وهي على الحنابلة؟ والمجتهد لا يكون مقلداً لإمامه!!.

فأجابهم ابن تيمية: بأن ما يتناوله من هذه المدرسة، هو على معرفته بمذهب أحمد لا على تقليده له[1].

وهذا الخبر يشير إلى الجو العام القائم يومئذ.. من التمسك بالمذهب.

وكان من نتائج ذلك أن أصبحت أقوال كل مذهب هي المرجع لمنتسبيه، فهي الدليل، وهي السقف الذي يظلهم.. وكان هذا قد حدث بعد القرون الثلاثة الأولى. وكان أئمة المذاهب، كل منهم يقول بلسان حاله أو مقاله: إذا صحَّ الحديث، فهو مذهبي، كما قال الإمام الشافعي..

ولكن هذا لم يدم.. وانحسرت الأحاديث عن أن تكون الدليل والمرجع، وأصبح للفقه كتبه وللحديث كتبه الأخرى..

ومع مرور الزمن تتجدَّد الحوادث وتحدث المشكلات، فكان لا بد في إيجاد حلول لها، من الرجوع إلى الأصل وهو الكتاب والسنة.. وهذا ما دعا إليه شيخ الإسلام ابن تيمية.. وألحَّ عليه وطالب العلماءَ به.. وكذلك من بعده تلميذه ابن القيم، الذي يدعو إلى ذلك مبيناً الآثار السيئة التي تترتب على ترك هذا المنهج..

---

(١) التقريب لفقه ابن القيم، بكر أبو زيد.

ولنستمع إليه وهو يبين ذلك:

«لما أعرض الناس عن تحكيم الكتاب والسنة والمحاكمة إليهما، واعتقدوا عدم الاكتفاء بهما، وعدلوا إلى الآراء، والقياس وأقوال الشيوخ، عرض لهم من ذلك فساد في فطرتهم، وظلمة في قلوبهم، وكدر في أفهامهم، ومحق في عقولهم.

فجاءتهم دولة أخرى..

قامت فيها البدع مقام السنن، والنفس مقام العقل، والهوى مقام الرشد، والضلال مقام الهدى...

فصارت الغلبة لهذه الأمور، وأهلها هم المشار إليهم.

وكانت قبل ذلك لأضدادها، وكان أهلها هم المشار إليهم.

فإذا رأيت دولة هذه الأمور قد أقبلت، وراياتها قد نصبت، وجيوشها قد ركبت، فبطن الأرض ـ والله ـ خير من ظهرها..

اقشعرَّتْ الأرض، وأظلمت السماء، وظهر الفساد في البر والبحر من ظلم الفجرة.

وذهبت البركات، وقَلَّتِ الخيرات.. وتكدَّرت الحياة من فسق الظلمة.

وشكا الكرام الكاتبون إلى ربهم من كثرة الفواحش، وغلبة المنكرات والقبائح.

هذا ـ والله ـ منذر بسيل عذاب . . ومؤذن بليل بلاء قد ادلهمَّ ظلامه . . »[1].

هكذا صور ابن القيم الآثار المترتبة على الابتعاد عن الكتاب والسنة . .

* * *

ولكن لمن يوجِّه هذه الدعوة في العودة إلى الكتاب والسنة؟ ، لا شك بأنها لجميع الناس، ولكن الأحق بها هم العلماء، فهم المصلحون في الأمة والموجهون لها . .

ولكن حالهم التي سبق وصفها كانت تعرقل استجابتهم، فهم محكومون بمذاهبهم ولا يرون في أنفسهم أهلية لتجاوز حدود ما نشؤوا عليه . .

ولكن ابن القيم لم يتوانَ عن الاستمرار في دعوته إلى ذلك، قولاً وكتابة . .

ولئن لم يجد في زمنه ما يسره من ذلك، فإن الله تعالى نفع بدعوته هذه من جاء بعدهم على مرِّ الأيام حتى وقتنا الحاضر .

❑ ❑ ❑



(١) الفوائد، ص (٨٨ ـ ٨٩).

الفصل الثالث

إصلاح التصوُّف

كانت طرق التصوف ـ وما زالت ـ تشغل ساحة لا بأس بها من المجتمع الإسلامي، وقد تسرب إلى بعضها انحرافات خرجت بهم عن الطريق المستقيم، وهذه الانحرافات ليست على مستوى واحد، فبعضها أمره يسير. . وبعضها أمره خطير يؤدي إلى خلل في الاعتقاد. .

والعالم المصلح عندما يعلن العداوة لهم، فإنما يغلق الباب بينه وبينهم، الأمر الذي يحول دون وصول نصحه لهم. .

ولعل ابن القيم انتبه إلى هذا الشأن، وقدر المقارنة بين المصلحة المترتِّبة على إظهار العداوة لهم، والمصلحة التي يكون فيها إظهار اللين لهم للوصول إلى قلوبهم، وبالتالي إمكانية التأثير فيهم والوصول إلى إصلاحهم. . فرأى تقديم الثانية.

ابن القيم ليس عدوّاً للتصوف:

على أن الواقع يقول: بأن ابن القيم لم يكن عدوّاً للتصوف، بل محبّاً للصادقين منهم.. وانظر إلى قوله عندما يتحدث عن السائرين إلى الله:

«وأما السائرون إليه:

ـ فظالمهم قطع مراحل عمره في غفلاته..

ـ وأما الأبرار المقتصدون، فقطعوا مراحل بإقامة أمر الله..

ـ وأما السابقون المقربون، فنستغفر الله الذي لا إلٰه إلا هو ـ أولاً ـ من وصف حالهم، وعدم الاتصاف به، بل ما شممنا له رائحة، ولكن محبة القوم تحمل على تعرف منزلتهم والعلم بها، وإن كانت النفوس مختلفة منقطعة عن اللحاق بهم، ففي معرفة حال القوم فوائد عديدة:

منها.. ومنها: أن هذا العلم هو من أشرف علوم العباد، وليس بعد علم التوحيد أشرف منه، وهو لا يناسب إلا النفوس الشريفة، ولا يناسب النفوس المهينة..

وبالجملة ففوائد العلم بهذا الشأن لا تنحصر، فلا ينبغي أن تصغي إلى من يثبّطك عنه ويقول: إنه لا ينفع بل احذره..»[1].

---

(١) أي: احذر المثبط.

واستعن بالله ولا تعجز، ولكن لا تغتر».

«وفرِّق بين العلم والحال، وإياك أن تظن أن بمجرد علم هذا الشأن قد صرت من أهله.. هيهات، ما أظهر الفرق بين العالم بوجود الغنى وهو فقير، وبين الغني بالفعل، وبين العالم بأسباب الصحة وحدودها وهو سقيم، وبين الصحيح بالفعل»[1]، وواضح من هذا الكلام، مكانة القوم عند ابن القيم، ومكانة علمهم، وأنه لا يصلح إلا للنفوس الشريفة.

ويحثُّ على العلم بهذا الشأن وعدم الالتفات إلى المثبطين..

التعريف بالطريق لمن أراد سلوكه:

ويوضح الإمام ابن القيم الطريق الآمن لمن أراد سلوكه؛ فيقول:

«وجماع الأمر في ذلك: إنما هو بتكميل عبودية الله في الظاهر والباطن، فتكون حركات نفسه وجسمه كلها في محبوبات الله تعالى.

فهذا كمال من جهة الإرادة للعمل.

وأما من جهة العلم والمعرفة، فأن تكون بصيرته متفتحة علىٰ

---

(١) طريق الهجرتين، ص(٢٠٥ ـ ٢٠٦).

معرفة الأسماء والصفات والأفعال؛ له شهود خاص مطابق لما جاء به الرسول ﷺ، لا مخالف له، فإنه بحسب مخالفته له يقع الانحراف.

ويكون مع ذلك قائماً بأحكام العبودية الخاصة التي تقتضيها كل صفة بخصوصها، وهذا سلوك الأكياس الذين هم خلاصة العالم.

والسالكون على هذا الدرب أفراد في العالم.

طريق سهل قريب موصل، طريق آمن، أكثر السالكين في غفلة عنه، ولكن يستدعي رسوخاً في العلم ومعرفة تامة به، وإقداماً على ردّ الباطل المخالف له، ولو قاله من قاله..»[1].

وهكذا يصف ابن القيم الطريق ويوضح معالمه..

إنه طريق سهل قريب آمن، فكل مواصفات السلامة والراحة متوفرة فيه، إنها دعوة مرغبة لسلوكه. ولكن يلزم السالك:

- رسوخ في العلم.

- التزام بما جاء به الرسول ﷺ.

- البعد عن التقليد، ورد الباطل أيّاً كان قائله، والباطل هو ما كان مخالفاً لما جاء به الرسول ﷺ، وأنه بحسب المخالفة يكون الانحراف.

---

(١) طريق الهجرتين، ص (٢١٥).

ويؤكد ابن القيم على امتلاك شفافية النفس للسالك، فغلظ الحجاب وكثافة الطبع لا تصلح لذلك.

قال: «ومن غلظ حجابه وكثف طبعه وصلب عوده، فهو عن فهم هذا بمعزل»[1].

وقال: «من كثف ذهنه وغلظ طبعه عن فهم هذا، فليضرب عنه صفحاً إلى ما هو أولى به، فقد قيل:

إذا لـــم تستطِـــعْ شيئـــاً فَـــدَعْـــهُ
وجـــاوزْه إلـــى مـــا تستطيـــعُ»[2]

إنها خبرة ابن القيم بالطريق!!.

ربط التصوف بالقرآن والسنة:

إن التصوف الذي يقره ابن القيم، هو الذي يقوم على الكتاب والسنة، فهو مرتبط بالنصوص، وفي هذا يقول:

«إن ربط هذا الشأن بالنصوص النبوية، والعقل الصريح، والفطرة الكاملة من أهم الأمور.

فلا يحسن بالناصح لنفسه أن يقنع بمجرد تقليد أهله، فما أكثر

---

(١) طريق الهجرتين، ص (٨).

(٢) طريق الهجرتين، ص (٢٣).

غلطهم فيه، وتحكيمهم مجرد «الذوق» وجعل حكم ذلك الذوق كليّاً عامّاً، فهذا ونحوه من مثارات الغلط»[1].

وبما أن الاعتماد على «الذوق» و«الحال» من مصادر الخطأ في هذا الشأن، فقد بين ذلك بقوله:

«اعلم أن كل «حال» و«ذوق» و«وجد» و«شهود» لا يشرق عليه نور العلم المؤيد بالدليل، فهو من عبث النفس وحظوظها، فلو قدر أن المتكلم إنما تكلَّم بلسان العلم المجرد، فلا ريب أن ما كشفه العلم الصحيح المؤيد بالحجة أنفع من حال من يخالف العلم، والعلم يخالفه».

«وليس من الإنصاف ردُّ العلم الصحيح بمجرد الذوق والحال، وهذا أصل الضلالة، ومنه دخل الداخل على كثير من السالكين في تحكيم أذواقهم ومواجيدهم على العلم، فكانت فتنة في الأرض وفساد كبير، وكم قد ضل وأضل محكّم الحال على العلم.

بل الواجب تحكيم العلم على الحال، ورد الحال إليه، فما زكَّاه شاهد العلم فهو مقبول، وما جرحه شاهد العلم فهو المردود.

---

(١) طريق الهجرتين، ص (٢٥١).

وهذه وصية أرباب الاستقامة من مشايخ الطرق، يوصون بذلك..»[1].

وإذاً ـ وكما يقرر ابن القيم ـ فالميزان للتصوف.. والطريق، هو الكتاب والسنة.

مكانة العلم في ضبط السلوك:

ولم يكتفِ ابن القيم بهذا، بل إنه يوضح ما يكتنف الطريق من «ظلمات» تحتاج إلى نور العلم كي يضيء الطريق عندها، ومن ذلك قوله:

«وأما تعبده سبحانه وتعالى باسمه «الباطن».. فإنه يستلزم معرفة بريئة من شوائب التعطيل، مخلصة من فرث التشبيه، منزهة عن رجس الحلول والاتحاد، وعبارة مؤدية للمعنى كاشفة عنه، وذوقاً صحيحاً، سليماً من أذواق أهل الانحراف.

فمن رزق هذا، فهم معنى اسمه «الباطن»، وصحَّ له التعبد به، وسبحان الله كم زلَّت في هذا المقام أقدام، وضلت فيها أفهام، وتكلَّم به الزنديق بلسان الصديق، واشتبه فيه إخوان النصارى

---

(١) طريق الهجرتين، ص (٣٢٤ ـ ٣٢٥).

بالحنفاء المخلصين، لنبو الأفهام عنه، وعزة تخليص الحق من الباطل فيه . . »[١].

وهكذا يؤكِّد ابن القيم على أن «الجهل» هو سبب المتاهات التي سلكها أكثر أرباب الفقر والتصوف السالكين على غير طريق العلم[٢].

رأي ابن القيم في بعض «المنازل»:

لم يكتفِ ابن القيم بوصف الطريق وبيان ضوابطه ومزالقه، بل أبدى رأيه في بعض مسائل الفكر الصوفي:

ـ فهو لا يرى «الفناء» منزلة أو مقاماً، بل هو عارض.

ـ وإذا كان «الفناء» قطب رحى السير الذي يشير إليه القوم، والعلم الذي يشمِّرون إليه، فإنه لا يراه كذلك ـ بعد تفصيل القول فيه ـ ويبرهن على أن حال الصحو أكمل وأفضل[٣].

ـ و«الحزن» عنده ليس منزلة ـ كما يرونه ـ بل هو مرض وبلية . .[٤].

---

(١) طريق الهجرتين، ص (٢١).
(٢) المرجع السابق، ص (١٨٤ ـ ١٨٥).
(٣) المرجع السابق، ص (٢٦٠ ـ ٢٦٢).
(٤) المرجع السابق، ص (٢٧٨).

ـ وهم يرون أن في «المنازل والمقامات» ما كان للعامة، ومنها ما هو للخاصة.. وهو لا يرى ذلك، بل المقام الأدنى يندرج حكمه في الأعلى.

وليس الأمر هنا كمنازل الأبدان الذي إذا قطع منها منزلاً خلَّفه وراء ظهره، واستقبل المنزل الآخر معرضاً عن الأول بارتحاله.. فأعلى المقامات مقرون بأدناها مصاحب له، متضمن له تضمن الكل لجزئه»[1].

موقفه من انحرافات المتصوفة:

انحرافات الصوفية ليست قليلة، وهي ليست في مستوى واحد من حيث خطرها على العقيدة، وقد تصدَّى ابن القيم ومن قبله الغزالي لبيانها والتحذير منها، ومنها:

١ ـ القول بوحدة الوجود:

هذا القول ناتج عن فكرة الفناء: «والفناء عندهم على ثلاثة معان: الفناء عن السوى، والفناء عن شهود السوى، والفناء عن إرادة السوى.

فأما الفناء عن وجود السوى، فهو فناء الملاحدة القائلين

---

(١) طريق الهجرتين، ص (٢١٩).

بوحدة الوجود، وأنه ما ثَمَّ غيرٌ، وأن غاية العارفين والسالكين: الفناء في الوحدة المطلقة، ونفي التكثر والتعدد عن الوجود بكل اعتبار، فلا يشهد غيراً أصلاً، بل يشهد العبد عينَ وجود الرب، بل ليس عندهم في الحقيقة رب وعبد»[1].

ويبين لنا ابن القيم الآثار المترتبة على هذا القول فيقول:

«أما فناء القائلين بوحدة الوجود، فهو فناء باطل في نفسه، مستلزم جحد الصانع وإنكار ربوبيته وخلقه وشرعه، وهو غاية الإلحاد والزندقة، وهذا هو الذي يشير إليه علماء الاتحادية ويسمونه «التحقيق».

وغاية أحدهم فيه: أن لا يشهد ربّاً وعبداً، وخالقاً ومخلوقاً، وآمراً ومأموراً، وطاعة ومعصية، بل الأمر كله واحد.

فيكون السالك عندهم في بدايته يشهد طاعة ومعصية، ثم يرتفع عن هذا الفرق بكشف عندهم، إلى أن يشهد الأفعال كلها طاعة لله لا معصية فيها، وهو شهود الحكم والقدر، فيشهدها طاعة لموافقتها الحكم والمشيئة.

وهذا ناقص عندهم أيضاً، إذ هو متضمن للفرق، ثم يرتفع عندهم عن هذا الشهود إلى أن لا يشهد لا طاعة ولا معصية، إذ

---

(١) مدارج السالكين (١/ ١٥٤).

الطاعة والمعصية إنما تكون من غير لغير، وما ثَمَّ غيرٌ، فإذا تحقق بشهود ذلك وفني فيه، فقد فني عن وجود السوى»[1].

ولا يكتفي ابن القيم بذكر الآثار لهذا القول، بل يبين لنا الأسباب التي أدت إلى القول به فيقول:

«وأما الملاحدة القائلون بوحدة الوجود، فإنهم قالوا: العبد من أفعال الله، وأفعالُه من صفاته، وصفاته من ذاته، فأنتج لهم هذا التركيب: أن العبد من ذات الرب، تعالى الله وتقدس عمَّا يقولون علوّاً كبيراً».

ولبيان موضع الغلط في هذه المقولة، يقول ابن القيم:

«وموضع الغلط: أن العبد من مفعولات الرب تعالى، لا من أفعاله القائمة بذاته، ومفعولاته آثار أفعاله، وأفعاله من صفاته القائمة بذاته.

فذاته سبحانه مستلزمة لصفاته وأفعاله، ومفعولاته منفصلة عنه، تلك مخلوقة محدَثةٌ، والرب تعالى هو الخالق بذاته وصفاته وأفعاله»[2].

---

(١) تقريب طريق الهجرتين، ص (٤٧٧)، نشره المكتب الإسلامي، أعده صالح أحمد الشامي.

(٢) المهذب من مدارج السالكين، ص (٣٩١)، نشرته دار القلم، أعده صالح أحمد الشامي.

بهذا البيان الواضح تناول ابن القيم هذه الطامة من طامات المتصوفة، فبين منشأ الفكرة الفلسفي، ثم ذكر ما يترتَّب عليها من آثار في أمر العقيدة من كفر وإلحاد، ثم بين المنطق العقلي الذي دفعهم إلى ذلك، ثم بيَّن فساد هذا المنطق.

٢ ـ ومن انحرافاتهم: الشطحات:

وأما الشطحات فالمراد بها: بعض الكلام الذي أحدثه الصوفية، وهو صنفان:

«**أحدهما**: الدعاوى الطويلة العريضة في العشق مع الله تعالى، والوصال المغني عن الأعمال الظاهرة، حتى ينتهي قوم إلى دعوى الاتحاد وارتفاع الحجاب، والمشاهدة بالرؤية، والمشافهة بالخطاب، فيقولون: قيل لنا كذا، وفعلنا كذا.

الثاني من الشطح: كلمات غير مفهومة، لها ظواهر رائقة، وفيها عبارات هائلة، وليس وراءها طائل..»[١].

قال ابن القيم: «ومن كيد الشيطان ما ألقاه إلى جُهال المتصوفة من الشطح والطامّات، وأبرزه لهم في قالب الكشف من الخيالات، فأوقعهم في أنواع الأباطيل والترَّهات، وفتح لهم أبواب الدعاوى الهائلات..»[٢].

---

(١) المهذب من الإحياء (١/ ١٨ ـ ١٩)، أعده صالح الشامي، نشرته دار القلم.

(٢) البيان في مصايد الشيطان، ص (٤٤)، نشره المكتب الإسلامي.

ومثَّلَ لذلك بما يحكى عن أبي يزيد: أنه قال: «سبحاني» أو«ما في الجبَّة إلا الله». .

وقال: «إن هذه الكلمات لو صدرت عن قائلها وعقله معه لكان كافرا، ولكن مع سقوط التميز والشعور قد يرتفع عنه قلم المؤاخذة»[1].

وأكتفي بهذين المثالين.

ابن القيم وإصلاح التصوف:

إن موقف ابن القيم من التصوف ليس موقف المعادي له ـ كما قلت ـ ولكنه موقف المقدِّر لهذا الطريق الحريص على إصلاحه، فهو معجب به ومعجب بنتائجه عندما يكون وفق ضوابط الشرع من الكتاب والسنة.

وإذا أردت أن ألخِّص النقاط التي وضعها للحفاظ على صفائه، فأهمها:

١ ـ أن يكون منضبطاً مع الكتاب والسنة، فلا يخرج عن الحدود التي جاءت فيهما.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ١٥٥).

٢ ـ لا يقبل التقليد فيه.. لكثرة غلط أهله واعتمادهم على «الذوق» و«الحال».

٣ ـ تحكيم العلم والرجوع إليه، فهو الذي يكشف بنوره ما يكتنف الطريق من ظلمات، فالجهل هو سبب كل المتاهات التي وقع فيها كثير من السالكين.

٤ ـ ليس كل الناس يصلح لسلوك هذا الطريق؛ فهو يحتاج إلى مواصفات رفيعة؛ منها: الرسوخ في العلم، والشفافية في النفس، فمن غلظ حجابه وكثف طبعه.. فإنه لا يصلح لذلك.

٥ ـ بيان الفرق بين «العلم» و«الحال» في هذا الشأن، فالعلم بالتصوف لا يجعل الإنسان متصوِّفاً.. ولكنه التطبيق والعمل.

وبمثل تلك الضوابط وغيرها يصبح سلوك الطريق آمناً..



الفصل الرابع

الإصلاح الاجتماعي

عاش ابن القيم بين أفراد مجتمعه، قريباً منهم، بل ومعهم، فصلواته الخمس، وخطبه، وتوجه الناس إليه بفتاواهم وأسئلتهم. . كل ذلك جعله على صلة دائمة بمشكلاتهم، كما جعله على خبرة بما ينتاب المجتمع من انحرافات وما يصيبه من أمراض.

وهو لا يستطيع أن يشاهد ذلك، ويمر عليه مرَّ الكرام، دون أن ينصح ويوجه ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. . وقد أصابه بسبب ذلك بعض البلاء. . وسجن بعض الأحيان.

وفي هذا الفصل نتحدث عن نماذج قليلة من أعماله في سبيل ما يرى أنه الحق والصواب:

١ ـ شروط أخرى لصلاح القاضي:

يبدو أن الإمام كانت تبلغه بعض الأحكام التي تصدر عن القضاة، فلا يرى فيها إحقاقاً للحق. .

وهذا ما دفعه إلى البحث عن الأسباب التي كانت تؤدي إلى ذلك، وبخاصة أن هؤلاء القضاة ربما كانوا من صلحاء العلماء.

من المعلوم أن الفقهاء قد وضعوا للقاضي شروطاً ينبغي أن تتوفَّر فيه حتى يكون أهلاً لذلك.. واستكملوا بها عدة «العشرة» فينبغي أن يكون: بالغاً، عاقلاً، ذكراً، حرّاً، مسلماً، عدلاً، سميعاً، بصيراً، متكلِّماً، مجتهداً ولو في مذهب إمامه للضرورة.

ورأى أن هذه الشروط غير كافية لإقامة العدل، وقرر أن على الحاكم أو القاضي أن يجمع بين نوعين من الفقه حتى يستطيع إحقاق الحق..

ولنستمع إليه في بيان ذلك؛ حيث يقول:

«ولا يتمكَّن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم:

أحدهما: فهم الواقع، والفقه فيه، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتى يحيط به علماً.

والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان رسوله في هذا الواقع، ثم

يطبق أحدهما على الآخر، فمن بذل جهده واستفرغ وسعه في ذلك لم يعدم أجرين أو أجراً»[1].

وقال: «والحاكم إذا لم يكن فقيه النفس في الأمارات ودلائل الحال.. كفقهه في جزئيات وكليات الأحكام، أضاع حقوقاً كثيرة على أصحابها، وحكم بما يعلم الناس بطلانه..

فها هنا نوعان من الفقه لا بد للحاكم منهما:

- فقه في أحكام الحوادث الكلية.

- وفقه في نفس الواقع وأحوال الناس..

ثم يطابق بين هذا وهذا، فيعطي الواقع حكمه من الواجب، ولا يجعل الواجب مخالفاً للواقع»[2].

وبهذا يضيف الإمام ابن القيم إلى صفات القاضي التي تؤهِّله إلى هذا المنصب: صفة الذكاء والفطنة وسرعة البديهة وأن يكون من أهل الفراسة[3].. حتى يستطيع أن يطابق بين الفقهين المذكورين.

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ٨٧).

(٢) الطرق الحكمية، ص (٢٥)، عناية صالح الشامي، نشره المكتب الإسلامي.

(٣) المرجع السابق، ص (٨).

وهكذا أصبح «فقه أحوال الناس» شرطاً ـ عند ابن القيم ـ من شروط القاضي.

٢ ـ عندما تجفُّ التقوى:

جاء هذا الدين العظيم ليتعامل مع الإنسان من خلال إيمانه ورقابته لله تعالى، فهو منضبط بهذه الرقابة الذاتية من نفسه على نفسه لا برقابة الناس.

ومع مرور الزمن أصاب هذا المعنى بعض الجفاف، وبدأ بعض الناس يتعاملون مع الظاهر المادي للأحكام بعيداً عن ملاحظة الجانب الباطن الذي تمثله التقوى..

وبدأ بعض الناس من هذا المنطلق يتحايلون على أكل الربا تحت مسمى عقد البيع، ويتهرَّبون من أداء الزكاة تحت عقود هبات صورية..

وزاد الطين بلة، أن بعض الفقهاء جعل يعدُّ هذه الحيل ويرتبها ويلبسها لبس الأحكام الشرعية..

ولعل بعض هذا كان في زمان الإمام ابن القيم.. فتصدَّى له مبيناً فساد ذلك في صفحات كثيرة ملأها بهذا الشأن مما يدل على عظم هذه الآفة.

ولنستمع إليه وهو يناقش هذه المسألة ويردها إلى أصولها

وقواعدها الشرعية، ويبين أن العلم تابع للنية، حيث يقول:

«فالنية روح العمل ولبه وقوامه، وهو تابع لها، يصح بصحتها ويفسد بفسادها، والنبي ﷺ قد قال كلمتين كفتا وشفتا، وتحتهما كنوز العلم، وهما قوله: (**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**).

فبين في الجملة الأولى: أن العمل لا يقع إلا بالنية، ولهذا لا يكون عمل إلا بنية.

ثم بين في الجملة الثانية: أن العامل ليس له من عمله إلا ما نواه، وهذا يعمُّ العبادات والمعاملات والأيمان والنذور، وسائر العقود والأفعال.

وهذا دليل على أن من نوى بالبيع عقد الربا، حصل له الربا، ولا يعصمه من ذلك صورة البيع..

فالمقدمة الأولى معلومة بالوجدان، والثانية معلومة بالنص.

وعلى هذا: فإذا نوى بالعصر حصول الخمر، كان له ما نواه، ولذلك استحق اللعنة.

وإذا نوى بالفعل «التحيُّل» على ما حرمه الله ورسوله، كان له ما نواه، فإنه قصدَ المحرمَ، وفعل مقدوره في تحصيله، ولا فرق في التحيل على المحرم بين الفعل الموضوع له، وبين الفعل

الموضوع لغيره إذا جعل ذريعة له، لا في عقل، ولا في شرع.

ولهذا لو نهى الطبيبُ المريضَ عما يؤذيه وحماه منه، فتحيل على تناوله؛ عدَّ متناولاً لنفس ما نهيَ عنه.

قال الخطابي: في هذا الحديث، بطلان كل حيلة يحتال بها المتوسِّل إلى المحرم، فإنه لا يتغير حكمه بتغير هيئته وتبديل اسمه»[1].

وهكذا بذل الإمام جهده بذكر الأدلة والبراهين والأمثلة في سبيل بيان هذا الانحراف.. حتى يحذره الناس.

٣ ـ مسألة نكاح المحلل:

إن القارئ لكتب ابن القيم يعجب من كثرة ما تمر عليه هذه المسألة، مطولة تارة وقصيرة أخرى.. ولعل السبب في ذلك أن هذه الواقعة كان لها حضور في الواقع الاجتماعي، فاقتضى ذلك منه أن يكرر ذكرها منفِّراً منها وداعياً إلى هجرانها نهائياً. وقد سبق الحديث عنها، ولكني ألخصها بكلمات لبيان مكان الخلل:

صورة المسألة: رجل طلق امرأته ثلاثاً دفعة واحدة.

قد مرت هذه المسألة بأدوار:

---

(١) إعلام الموقعين (٣/ ١١١ ـ ١١٢).

١ ـ كان حكمها زمن النبي ﷺ أنها تقع واحدة.

٢ ـ وفي زمن عمر رضي الله عنه أمضاها عليهم فجعلها ثلاثاً، عقوبة لاستعجالهم.

٣ ـ واستمر هذا حتى دونت المذاهب، فكان أن دونت المذاهب ما كان في عهد عمر، وأما ما كان في زمن النبي ﷺ فبقي مدوناً في كتب الحديث، ولم يَعُدْ متداولاً في الفقه.

٤ ـ كثرت ظاهرة الطلاق الثلاث، وليس في يد فقهاء المذاهب إلا إيقاعه وفقاً لما دُوِّن في كتبهم.

٥ ـ إيقاع الطلاق لم يحل المشكلة، فلجأ بعضهم إلى نكاح المحلل لحل المشكلة، وهو محرم اتفاقاً، ولكن حاجتهم إلى التئام الأسرة لم يحل دونه ارتكاب المحرّم.

٦ ـ وجاء العلماء الكبار المخلصون ليطالبوا بالعودة إلى ما كان في زمنه ﷺ؛ ففيه الخلاص، ولكن الفقهاء الذين لم يفقهوا غير مذاهبهم وقفوا في وجه ذلك..

تلك هي القصة التي كان الكلام فيها مسبباً للأذى لابن القيم وشيخه، ولكنهما لم يباليا، واستمرا في نشر الحكم الذي كان زمن النبي ﷺ والإفتاء له.

وقد يكون من المستحسن أن نقف مع واحد من النصوص

التي كتبها ابن القيم مصوِّراً كيف كان يجري هذا النكاح، قال:

«فلو شاهدت الحرائر المصونات، على حوانيت المحلِّلين متبذلات، تنظر المرأة إلى التيس نظرة الشاة إلى شفرة الجازر، وتقول: يا ليتني قبل هذا كنت من أهل المقابر، حتى إذا تشارطا على ما يجلبُ اللعنة والمقْتَ، نهض واستَتْبَعَها خلفه للوقت، بلا زفاف، ولا إعلان، بل التخفي والكتمان.

فلا جهاز ينقل، ولا فراش إلى بيت الزوج يحوَّل، ولا صواحب يهدينها إليه، ولا مهر مقبوض ولا مؤخر، ولا نفقة ولا كسوة تقدر، ولا وليمة ولا نثار، ولا دفَّ ولا إعلان.

والزوج يبذل المهر، وهذا التيس يطأ بالأجر، حتى إذا خلا بها وأرخى الحجاب، والمطلِّق والولي واقفان على الباب، دنا ليطهرها بمائه النجس الحرام، ويطيِّبها بلعنة الله ورسوله ﷺ.

حتى إذا قضيا عرس التحليل، ولم يحصل بينهما المودة والرحمة التي ذكرها الله في التنزيل.. فإن كان قد قبض أجرةَ ضرابه سلفاً وتعجيلاً، وإلا حبسها حتى تعطيه أجره طويلاً.

فهل سمعتم بزوج لا يأخذ بالساق حتى يأخذ أجرته بعد الشرط والاتفاق؟!..»[1].

---

(١) البيان في مصايد الشيطان، ص (١٤٠).

وهكذا ويمثل هذا الكلام الساخر ينفر ابن القيم من هذا الزواج.. ولعل في ذلك تذكيراً للعلماء الذين لم يقبلوا جعل الطلاق الثلاث واحداً.

٤ ـ شد الرحال إلى القبور:

زيارة القبور أمر دعت إليه السنة لتذكر الآخرة؛ وهذا يكون بزيارة الإنسان للمقبرة التي في بلده الذي يقيم فيه.

أما أن يشد الإنسان رحله ويسافر إلى بلد آخر قاصداً زيارة قبر فهذا ما ينكره الشرع لمخالفته أوامره ﷺ فقد قال: (**لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد**) فالسفر بقصد الطاعة لا يكون إلا لمسجد من المساجد الثلاثة، ولا يكون لغيرها.

وفي زمن ابن القيم كان بعضهم يشد رحله لزيارة قبر الخليل، فقام الشيخ منكراً عليهم ذلك، قياماً بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. وأصابه بسبب ذلك بعض الأذى، ولكنه لم يبالِ بذلك، وظل على موقفه منكراً ومحذراً.

* * *

إنها نماذج من أعمال ابن القيم في سبيل إصلاح المجتمع، تدل على حركته الدائبة وسعيه الحثيث في دلالة الأمة على الخير، وتحذيرها من الشرور والآثام.



خاتمـــة

وبعد:

فإن الإمام ابن القيم علم من أعلام المسلمين، لا يستطيع كاتب مثلي أن يوفيه حقَّه إذا ما أراد الحديث عنه.

وقد بذلتُ جهدي في تسليط الضوء على جانب من تراثه العلمي الذي تركه لنا، فإنه يعطي بعض التصور عنه رحمه الله.

وعلى الرغم من حبي له، فقد بذلت جهدي أيضاً في أن أكون بعيداً عن التعصب له أو عليه، وأن يكون دوري دور الذي يصف مشاهداته، وكلها يدفع إلى الإعجاب والإكبار لهذا العلم الفذ.

ثم إن هذه الترجمة جاءت من خلال دراستي لبعض كتبه التي بين أيدينا، والتي هي بدورها بعض تراثه الذي لم يصلنا.. وهذا يبين حجم التقصير فيها.

ومع ذلك، فإن الله تعالى ـ بكرمه وواسع فضله ـ يقبل جهد المقل، ويبارك فيه فيكون منه الخير الكثير.

هذا، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

❑ ❑ ❑



المحتـوى

تمهيد عام

حين جاء ابن القيم

الباب الأول

مولد ابن القيم ونشأته

الباب الثاني

شخصية الإمام ابن القيم

الباب الثالث

علم الإمام ابن القيم

الباب الرابع

منهجه في التأليف ومميزاته

الباب الخامس

تقريب تراث ابن القيم

الباب السادس

التعريف بكتب الأخرى

الباب السابع

الإمام المصلح

❑ ❑ ❑

كتب للمؤلف

أولاً ـ في السنَّة المطهرة:

١ ـ الجامع بين الصحيحين، (٥ مجلدات).

٢ ـ زوائد السنن على الصحيحين، (٧ مجلدات).

٣ ـ تحقيق الجمع بين الصحيحين، للموصلي، (في مجلدين).

٤ ـ العناية بالأدب المفرد، للإمام البخاري.

٥ ـ تحقيق مشارق الأنوار، للقاضي عياض (تحت الطبع).

٦ ـ الوافي بما في الصحيحين.

ثانياً ـ في السيرة النبوية الشريفة:

١ ـ من معين السيرة.

٢ ـ من معين الشمائل.

٣ ـ من معين الخصائص النبوية .

٤ ـ السيرة النبوية (تربية أمة وبناء دولة) .

٥ ـ تحقيق المواهب اللدنية، للقسطلاني، (٤ مجلدات) .

٦ ـ أضواء على دراسة السيرة .

٧ ـ هكذا فهم الصحابة .

٨ ـ أهل الصفة (بعيداً عن الوهم والخيال) .

٩ ـ الغرانيق، (قصة دخيلة على السيرة النبوية) .

١٠ ـ المهذَّب من الشفا، للقاضي عياض .

١١ ـ سيرة النبي ﷺ في بيته .

ثالثاً ـ في الرقائق والأخلاق :

١ ـ مواعظ الصحابة .

٢ ـ المهذَّب من إحياء علوم الدين (في مجلدين) .

٣ ـ تحقيق رسالة «شرح المعرفة»، للمحاسبي .

٤ ـ تهذيب حلية الأولياء، للأصبهاني، (٣ مجلدات) .

٥ ـ سلسلة مواعظ السلف : صدر منها :

ـ مواعظ الإمام الحسن البصري .

- مواعظ الإمام سفيان الثوري .

- مواعظ الإمام عمر بن عبد العزيز .

- مواعظ الإمام مالك بن دينار .

- مواعظ الإمام سلمة بن دينار .

- مواعظ الإمام إبراهيم بن أدهم .

- مواعظ الإمام عبد الله بن المبارك .

- مواعظ الإمام الفضيل بن عياض .

- مواعظ الإمام الشافعي .

- مواعظ الإمام أبي سليمان الداراني .

- مواعظ الإمام الحارث المحاسبي .

- مواعظ الشيخ عبد القادر الجيلاني .

- مواعظ الإمام ابن الجوزي .

- مواعظ شيخ الإسلام ابن تيمية .

- مواعظ الإمام ابن قيم الجوزية .

- مواعظ الإمام الغزالي .

رابعاً ـ مشروع تقريب تراث الإمام ابن القيم رحمه الله :

صدر منه عن المكتب الإسلامي :

١ ـ تقريب طريق الهجرتين .

٢ ـ الوابل الصيّب من الكلم الطيّب .

٣ ـ سيرة خير العباد .

٤ ـ البيان في مصايد الشيطان .

٥ ـ القضاء والقدر .

٦ ـ قل انظروا .

٧ ـ فضل العلم والعلماء .

٨ ـ الطرق الحكمية في السياسة الشرعية .

٩ ـ الهدي النبوي في العبادات .

١٠ ـ الهدي النبوي في الفضائل والآداب .

١١ ـ الروح .

١٢ ـ إعلام الموقعين .

وصدر عن دار القلم :

١٣ ـ طب القلوب .

١٤ ـ الجواب الكافي (الداء والدواء).

١٥ ـ المهذب من مدارج السالكين.

خامساً ـ موضوعات أخرى:

١ ـ محبة الله ورسوله شرط في الإيمان.

٢ ـ نظرات في هموم المرأة المسلمة.

٣ ـ الفرائض فقهاً وحساباً، (في جزأين).

٤ ـ الفن الإسلامي (التزام وإبداع).

٥ ـ الظاهرة الجمالية في الإسلام.

٦ ـ ميادين الجمال في الظاهرة الجمالية.

٧ ـ التربية الجمالية في الإسلام.

٨ ـ الإمام الغزالي (سلسلة أعلام المسلمين).

٩ ـ الإسلام دين التيسير.

١٠ ـ رضيت بالإسلام ديناً.

١١ ـ فصول في إصلاح النفس والمجتمع، للإمام ابن الجوزي.

١٢ ـ الصلاة.. الصلاةَ (آخر ما تكلَّم به النبي ﷺ).

١٣ ـ الجمال في منهج الإسلام وتشريعه .

١٤ ـ نداء الإيمان في القرآن الكريم .

❑ ❑ ❑